

(1)

لا

يأتون بمثله

الشيخ محمد قطب

موقع الصحوة

<http://www.sahwah.net>

مقدمة

منذ فترة من الزمن، ظهر على ((الإنترنت)) كلام مسجوع من تأليف عربي لا يدين بالإسلام، يعيش في أمريكا، يحاول فيه أن يقلد النسق القرآني، من حيث تقسيم الكلام إلى عبارات مسجوعة تنتهي بحرف الميم أو النون مسبوقه بمد يائي أو واوي 0 وظن المسكين أنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل، كما قال الشاعر:

وإن وإن كنت الأخيرة زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل⁽¹⁾

كما ظن أنه بعمله هذا قد أبطل التحدى الذى تحدى الله به الإنس والجن حين قال سبحانه:(قل لعن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)⁽²⁾ 0 وكأنه يقول: هاأنذا قد أتيت بمثله! وإذا فقد أبطلت التحدى، وأبطلت دعوى الإعجاز القرآني الذى قامت عليه رسالة محمد ﷺ 00 وإذا فالإسلام ليس من عند الله، إنما هو صناعة بشرية قام بها محمد ﷺ!

ولعل المسكين لم يعلم أن مسيلمة الكذاب قد قام بمثل هذا العمل من قبل، وأتى بسجعات مثل سجعاته قال إنها مثل القرآن 0 ومر الزمن وبطلت سجعات مسيلمة، وبقي القرآن يتحدى الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها 0

ولكن هذه الأضحوكة الساذجة التى قام بها مسيلمة المتأمر - وإن لم يدع بها النبوة كسلفه الجاهلى - حفزتنى إلى أن أعاود الكتابة فى موضوع كنت قد أشرت إليه فى كتاب سابق بعنوان ((دراسات قرآنية))، وهو موضوع الإعجاز الشامل للقرآن الذى لا ينحصر فى الإعجاز البياني، الذى توجه إليه الاهتمام الأكبر فى كتابات الأقدمين، لأسباب لا يصعب إدراكها 0

لقد كان العرب فى جاهليتهم قوما أولى فصاحة نادرة، وكانوا يعتزون بفصاحتهم إلى الحد الذى أطلقوا على غير الناطقين بلغتهم لفظة ((العجم)) ووصفوهم بـ ((العجمة))، وفيها إشارة واضحة إلى

¹ البيت لأبي العلاء المعرى 0

² سورة الإسراء: 88

أنهم يعدونهم دونهم لا لسبب إلا لأنهم لا يستطيعون الكلام باللغة الفصيحة - لغتهم هم - التي يتميزون بها!

وإذ كان ديدن الرسالات السماوية أنها تتحدى المنكرين بمعجزة تفوق قدراتهم البشرية، ليستيقنوا أنها من عند الله، ولو جحدوها ظاهراً، إمعاناً في الكفر والعناد كما قال سبحانه وتعالى عن موقف آل فرعون من معجزات موسى عليه السلام: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً)⁽¹⁾

إذ كان هذا ديدن الرسالات، فقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل قوم فيما برعوا فيه وعدوه موضع فخرهم فتحدى قوم فرعون بآيات تفوق السحر الذي كانوا بارعين فيه، وكانوا يستخدمونه لفتنة الناس عن ربهم، وتأليه الفرعون بدلاً من الله وتحدى قوم عيسى عليه السلام بآيات تفوق براعتهم في الطب الذي كانوا يمارسونه ويعتزون بإتقانه؛ فأعطاه القدرة على نفخ الحياة في الطين، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، ليستيقنوا أنه من عند الله:

((ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمة والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين))⁽²⁾

فلما بعث الله الرسول الخاتم ﷺ في العرب، كان من المناسب أن تكون الآية التي يتحدى بها المنكرين فصاحة من نوع ودرجة لا يقدر على الإتيان بمثلها، لتستيقنوا أنفسهم ولو جحدوا بها ظاهراً كقوم فرعون، فكانت معجزته الكبرى ﷺ هي هذا القرآن، الذي تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فلم يستطيعوا، بصرف النظر عن المحاولة العابثة التي قام بها مسيلمة الكذاب، والمحاولة الأخرى التي قامت بها المنتبئة سجاح، فلم تستطع هذه ولا تلك أن تقنع العرب بأن القرآن يمكن أن يأتي أحد بمثله. (هذا بالإضافة إلى أن الله قد أراد أن تكون معجزة الرسول ﷺ باقية على الزمن، لا تذهب بذهاب القوم الذين شاهدوها، لأن الله أراد أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين، وأن تكون رسالته هي الرسالة الخاتمة، الباقية إلى آخر الزمان)0

¹ سورة النمل : 14

² سورة آل عمران : 49

إذا أدركنا ذلك، أدركنا سر اهتمام القدامى من الكتاب العرب بالإعجاز البياني في القرآن، حيث كان هو موضع التحدى، وحيث كان عجز العرب - المعتزين بفصاحتهم - عن الإتيان بمثله، دليلاً يقينياً على أن هذا القرآن هو كلام الله، وليس من كلام البشر، وأنه - بهذه الصفة - هو دليل صدق الرسول ﷺ في رسالته⁰

نعم⁰⁰ ولكن القرآن لم يكن معجزاً في بنائه اللفظي وحده وإن كان إعجازه اللفظي كافياً - وحده - للدلالة على أنه من عند الله، وكافياً - وحده - لإقامة التحدى أمام الإنس والجن إلى قيام الساعة!

القرآن معجز في جميع مجالاته، وعلى جميع أصعدته⁰⁰

وإذا كان القدامى - لأسباب مفهومة - قد وجهوا أكبر اهتمامهم للإعجاز البياني، الذى تحدى القرآن به الجاهلية العربية وأهتها المزيفة، فقد آن لنا أن نتدبر جوانب الإعجاز الأخرى في هذا الكتاب المعجز، التى لا تقل إعجازاً عن الإعجاز البياني، والتى نحن فى حاجة إلى تدبرها، وبيانها، وإبرازها، لتحدى الجاهلية المعاصرة، التى تتخذ صورة ((العلمانية))، وترفع شعارات ((العلم)) و((العقلانية)) و((التنوير))؛ لتفتن الناس عن ربهم ودينهم، وتؤله ((الإنسان)) بدلاً من الله، وتسعى - بحماقة - إلى تدمير الإنسان، بإبعاده عن مصدر النور الحقيقى:

((الله نور السموات والأرض))⁽¹⁾

((يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون* هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون))⁽²⁾

ولن يفى كتاب واحد - مهما تضخمت صفحاته - بالحديث عن كل مجالات الإعجاز فى القرآن، فهى فى حاجة إلى أن يتفرغ لها كتاب وباحثون، بحيث تتكون من مجموع بحوثهم مكتبة كاملة من إعجاز القرآن، سواء الإعجاز البياني الذى لا تنفذ عجائبه، أو الإعجاز الدعوى، بوصفه كتاب دعوة قد أبرز عقيدة التوحيد الصافية كما لم يبرزها كتاب قط، ودخل بها إلى قلوب البشر من جميع

(5) سورة النور: 35

² سورة الصف (809)

منازعتها وأقطارها كما لم يفعل كتاب قط، أو الإعجاز التشريعي الذى تضمن شريعة متكاملة وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم لا فى زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الزمن وتعددت مجالات الوجود، أو الإعجاز التربوى الذى أخرج خير أمة أخرجت للناس، أو الإعجاز العلمى الذى تتكشف آياته كلما زاد البشر علماً بما حولهم من الكون⁰⁰

ولكن ضخامة الجهد المطلوب، وسعة الميادين المفتوحة للدراسة والبحث، لا تمنعنى أن أدلى بجهدى المتواضع الذى لا أبغى به أكثر من أن يكون مجرد إرشادات، لعلها تحفز الباحثين إلى أن يبحثوا، والمفكرين إلى أن يتدبروا كما أمرهم الله: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (1) 0

أرجو الله أن يجعل هذا العمل خالص لوجهه، وأن يتقبل منى جهدى على ضالته، وأن يعيننى على ذكره وشكره وحسن عبادته؛ فما أحوجنى إلى عونته، وما أحوجنى إلى رضاه، وما أحوجنى إلى عفوه عن الزلات والهفوات والغفلات⁰⁰ اللهم عفوك ورضاك يا أكرم الأكرمين⁰

من الإعجاز البيانى

كتب الكثير عن الإعجاز البيانى للقرآن، ولست هنا أضيف شيئاً إلى ما قيل، وإنما هى وقفات سريعة تمثل بعض إنطباعاتى فى هذا المجال⁰

أشرت من قبل فى كتاب ((دراسات قرآنية)) إلى ما يطلق عليه ظاهرة التكرار فى القرآن⁰ وقلت إن القرآن نادر جداً فى القرآن الكريم لا يتجاوز آيات معدودة جاءت بنصها فى أكثر من سورة⁰ ولكن الظاهرة الحقيقية ليست هى التكرار إنما هى التشابه الذى يؤدى إلى التنوع، وقلت إنها كثمار الجنة تبدو لأول وهلة أنها هى، ولكنها عند المذاق يتبين الفرق بينها وبين ما كان من قبل: (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً) (2) 0

¹ سورة النساء (82) 0

² سورة البقرة 0

(6)

وهذا التشابه الذى يؤدى إلى التنوع هو ذاته لون من الإعجاز 0 فالموضوع الواحد يعرض مرارا، ولكنه يعرض فى كل مرة مختلفا عما سبقه نوعا من الاختلاف، فىكون جديدا فى كل مرة، ويكون- مع التلاوة المستمرة للقرآن- متجددا على الدوام 0

وقد يكون الاختلاف فى حرف واحد، ولكنه يغير الصورة!

خذ هذا النموذج:

((وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)) (1) 0

((وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)) (2) 0

هناك نوعان من الاختلاف بين الآيتين - وإن كان موضوعهما واحدا - فالآية الأولى خطاب من الله تبارك وتعالى إلى بنى إسرائيل يذكرهم بنعمه عليهم، ويمن عليهم بأنه نجاهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب، والثانية خطاب من موسى عليه السلام إلى قومه يذكرهم بنعم الله عليهم، ويذكرهم بالذات بتلك النعمة الكبرى، وهى تنجيتهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب، بالإضافة إلى التغيير فى صيغة الفعل: نجيناكم وأنجاكم، أحدهما متعد بالتضعيف والآخر متعد بالهمزة، وأحدهما بضمير المتكلم والثانى بضمير الغائب 0

ولكن انظر إلى الجزء الخاص بالعذاب الذى كان يوقعه آل فرعون بينى إسرائيل. إن فيه اختلافا بين الآيتين يحدث تغييرا فى الصورة :

((يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم)) 0

((يسومونكم سوء العذاب ويذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم)) 0

¹ سورة البقرة (49)

² سورة إبراهيم (6)

إن الفارق بين العبارتين حرف واحد، هو الواو التي جاءت في الآية الثانية قبل كلمة ((يذبحون))، ولكن انظر كم أحدث الحرف الواحد من الاختلاف بين الصورتين!

في الصورة الأولى ينحصر العذاب في قتل الأولاد واستحياء النساء، وفي الثانية يصبح هذا الأمر واحدا فقط من ألوان العذاب التي تصب على بني إسرائيل، وإن كان السياق يوحي بأنه من أبرزها، وأشدّها وأخيبها. إذ أجمل ((سوء العذاب)) وفصل قتل الأولاد واستحياء النساء))0

ذلك مجرد نموذج ينفي خاطر ((التكرار)) الذي يتوهمه قارئ القرآن لأول وهلة، ويبرز بدلا منه ظاهرة ((التشابه)) التي تؤدي إلى التنويع، والتي تشبه ثمار الجنة الموصوفة في القرآن الكريم0

فإذا تدبرنا مجالين بالذات يوهمان بالتكرار للوهلة الأولى، بينما حقيقتهما التشابه وليس التكرار، فذاتك هما قصص الأنبياء مع أقوامهم، وصور النعيم والعذاب في اليوم الآخر، وهما من أكثر الموضوعات ورودا في القرآن الكريم، ولكن بشكل مختلف في كل مرة، وذلك - في ذاته - كما أشرنا من قبل لونه من الإعجاز، لا يرد بهذه الصورة في كلام البشر المحدودى القدرة في مجال التعبير0

خذ هذا النموذج من قصة نوح في ثلاث سور من سور القرآن0

من سورة هود :

((ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين(25) أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم(26) فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين(27) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون(28) ويا قوم لا أسألكم عليه ما لا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون(29) ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون(30) ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين(31) قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين(32) قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين(33) ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن

أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وعليه ترجعون(34) أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برئ مما تجرمون(35) وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون(36) واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون(37) ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون(38) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم(39) حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل(40) وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم(41) وهى تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين(42) قال ساوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين(43) وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين))⁽¹⁾

ومن سورة الأعراف:

((لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (59) قال المأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين(60) قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين(61) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون(62) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون(63) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين))⁽²⁾

ومن سورة الشعراء :

((كذبت قوم نوح المرسلين(105) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون(106) إني لكم رسول أمين(107) فاتقوا الله وأطيعون(108) وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين(109) فاتقوا الله وأطيعون(110) قالوا أنؤمن لك واتبعك الأردلون(111) قال وما علمى بما كانوا يعملون(112) أن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون(113) وما أنا بطارد المؤمنين(114) إن أنا

¹ سورة هود : (25- 44)

² سورة الأعراف : (59-64)

إلا نذير مبين(115) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين(116) قال رب إن قومى كذبون(117) فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين(118) فأنجيناها ومن معه فى الفلك المشحون(119) ثم أغرقنا بعد الباقين(120) إن فى ذلك لآية وما أكثرهم مؤمنين(121) وإن ربك هو العزيز الرحيم)) (1)0

ومن سورة الشعراء :

((كذبت قوم نوح المرسلين(105) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون(106) إن لكم رسول أمين(107) فأتقوا الله وأطيعون(108) وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين(109) فاتقوا الله وأطيعون(110) قالوا أنؤمن لك واتبعك الأردلون(111) قال وما علمى بما كانوا يعملون (112) إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون(113) وما أنا بطارد المؤمنين (114) إن أنا إلا نذير مبين(115) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين(116) قال رب إن قومى كذبون(117) فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين(118) فأنجيناها ومن معه فى الفلك المشحون(119) ثم أغرقنا بعد الباقين (120) إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين(121) وإن ربك هو العزيز الرحيم)) (2)0

إنها قصة واحدة 00 قصة نوح مع قومه، وجدالهم معه، وردوده عليهم، وتكذيبهم له، وإغراقهم فى النهاية ونجاة المؤمنين 0

ولكن هل هى واحدة فى السرد القرآنى، أم إنها صور متعددة وإن تشابهت فى عمومياتها، وفى بدئها وفى نهايتها؟

إن اختلاف الصور فى طرق السرد المختلفة هو فى ذاته جمال، لأنه يعطى فى كل مرة جواً مختلفاً للقصة فى نفس القارئ، والسامع، فكأنها قصة جديدة، مع أن الأشخاص هم هم، والوقائع هى هى فى النهاية 0

ولكن القصص في القرآن لا يرد لمجرد القصص، وإن كان مشتقاً من الناحية الفنية الجمالية على عناصر الجمال الفني التي تجعل له مدخلاً لطيفاً إلى النفس، فيكون أبلغ تأثيراً فيها، مما لو كان مجرد فكرة أو قضية تخاطب العقل وحده ولا تخاطب الوجدان⁰

ولكن الروعة في هذا القصص أنه - مع جماله الفني - يؤدي هدفاً دعويًا مما يشتمل عليه كتاب الدعوة الأعظم، في تناسق كامل بين الهدف الدعوى والجمال الفني.. وإذ كانت الأهداف الدعوية كثيرة ومتعددة ومختلفة، يجيء القصص القرآني في صورة مختلفة في كل مرة، متناسقة مع الهدف المقصود من إيراد القصة، مع توافر الجمال الفني في كل مرة⁰

ولنراجع قصة نوح في السور الثلاث التي أثبتناها منذ قليل، لنرى تناسقها في كل مرة مع الهدف من إيراد القصة⁰⁰

الهدف من إيراد القصة في سورة هود - كما هو مذكور في سياق السورة - ثلاثة أمور:

((ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد(100) وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آهنتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيب(101) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد (102) إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود))⁽¹⁾

((وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين))⁽²⁾

فهى إنذار للناس لكي يحذروا عذاب الآخرة ويتقوه.. وهى تثبيت لقلب الرسول ﷺ، وهى موعظة وذكرى للمؤمنين⁰

وكان من المناسب لهذه الأهداف الثلاثة تطويل العرض، والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كل رسول وقومه. وكان ذلك مناسباً بصفة خاصة للهدف المتعلق بتثبيت قلب الرسول ﷺ وهو

¹ سورة هود: 100 - 103

² سورة هود: 1020

يلقى العنت من قومه : من تكذيبهم وجدلهم واللد في خصومتهم.. فهذا هو ذا رسول سابق من رسل الله قد لقي مثل ذلك العنت، وصبر عليه، ثم نجاه الله وقضى على الذين كذبوه⁰⁰

أما الهدف في سورة الأعراف – كما جاء في سياق الصورة – فهو هذا البيان:

((وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون(94) ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون))⁰⁽¹⁾

فالتركيز هنا هو على الأخذ المباغت، وليس على ما جرى من أحداث بين الرسول وقومه، فلا يركز عليها في السياق⁰

وأما في سورة الشعراء فههدف إيراد القصة – كما هو مذكور في السورة – أن الكفار يطالبون الرسول ﷺ بأية تجعلهم يصدقون أنه رسول من عند الله. فجاء التركيز في القصة على الآية، وهي إهلاك المكذبين وتنجية المؤمنين، وليس على تفاصيل الأحداث كما كان الحال في سورة هود⁰

وهكذا يتم للقصة جمالها الفني مع وفائها – في كل مرة – بالهدف من إيراد القصة، وتنوع الصور في كل مرة بما يناسب سياق العرض⁰⁰

وذلك من الإعجاز⁰⁰

* * *

والشأن كذلك في مشاهد القيامة، وهي كثيرة متنوعة، تعرض أحيانا في اختصار شديد، في كلمات معدودات، وأحيانا بالتفصيل في آيات متواليات، وفي كل مرة تعطى جوا خاصا، يتناسب – من جهة – مع قصر السورة أو طولها، ومن جهة أخرى مع السياق المعروض في السورة، ولكل سورة من سور القرآن جوها الخاص وسياقها الخاص، وإن اشتركت جميعا في هدف واحد كبير مشترك، هو هداية للناس إلى ربهم، وتعريفهم به، وبما يجب عليهم تجاهه – سبحانه – من خالص العبادة وخالص الطاعة⁰

خذ مثلا من أمثلة الإيجاز البليغ ، سورة القارعة :

((القارعة(1) ما القارعة (2) وما أدراك ما القارعة(3) يوم يكون الناس كالفرش الميثوث(4) وتكون الجبال كالعهن المنفوش(5) فأما من ثقلت موازينه(6) فهو في عيشة راضية(7) وأما من خفت موازينه(8) فأمه هاوية (9) وما أدراك ما هية (10) نار حامية))⁽¹⁾

وخذ صورة أخرى أكثر تفصيلاً، ولكن في غير طول، في سورة الغاشية :

((هل أتاك حديث الغاشية (1) وجوه يومئذ خاشعة(2) عاملة ناصبة(3) تصلى ناراً حامية(4) تسقى من عين آنية(5) ليس لهم طعام إلا من ضريع(6) لا يسمن ولا يغنى من جوع(7) وجوه يومئذ ناعمة(8) لسعيها راضية(9) في جنة عالية(10) لا تسمع فيها لاغية(11) فيها عين جارية(12) فيها سرر مرفوع (13) وأكواب موضوعة(14) ونمارق مصفوفة(15) ووزرابى مبنوثة))⁽²⁾0

وخذ وصفاً أكثر تفصيلاً للعذاب، في سورة الحج:

((هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم(19) يصهر به ما في بطونهم والجلود(20) ولهم مقامع من حديد(21) كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق))⁽³⁾0

أو هذا المشهد من سورة الواقعة:

((وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال(41) في سموم وحميم(42) وظل من يحموم(43) لا بارد ولا كريم(44) إنهم كانوا قبل ذلك مترفين(45) وكانوا يصرون على الحنث العظيم(46) وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعثون(47) أو آباؤنا الأولون(48) قل أن الأولين والآخرين(49) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم(50) ثم إنكم أيها الضالون المكذبون(51) لاكلون من شجر من زقوم(52) فمالتون منها البطون(53) فشاربون عليه من الحميم(54) فشاربون شرب الهيم(55) هذا نزلهم يوم الدين))⁽⁴⁾

¹ سورة القارعة : 1-11

² سورة الغاشية : 1 - 16

³ سورة الحج : 19-22

⁴ سورة الواقعة : 41-56

ثم خذ هذا المشهد المفصل للنعيم، من سورة الإنسان:

((فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً(11) وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً(12) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً(13) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً(14) ويطاق عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً(15) قوارير من فضة قدروها تقديراً(16) ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً(17) عينا فيها تسمى سلسبيلاً(18) ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً(19) وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً(20) عاليهم ثياب من سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم رهم شراباً طهوراً(21) عن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً))⁽¹⁾

ماذا تجد في نفسك حين تتبع هذه المشاهد في القرآن الكريم؟

إنك أولاً في عرض متنوع على الدوام، سواء من حيث الإيجاز والتطويل، أو من حيث مفردات الوصف للنعيم والعذاب، التي تختلف في كل معرض عنها في المعرض الآخر، والتي تشكل في كل مرة صورة مختلفة عن الصورة الأخرى، حتى إن أتحدث في عموميتها⁰

وأنت ثانياً في عرض حي متدفق الحيوية، لا تملك ألا تنفعل به نفسك، ويتأثر به وجدانك⁰ بل لا تملك إلا أن تعيش فيه كأنه حاضر أمامك اللحظة، يحيط بك من كل جانب، ويأخذ عليك أقطار نفسك، بل يصل التأثير به أن يعيش الإنسان فيه كأنه حاضر، وكأن الحياة الدنيا- التي هي الحاضر في الحقيقة- كانت واقعا قديما، حدث ذات يوم ثم مضى وانقضى، وليست هي التي يعيشها الإنسان في هذه اللحظة، فيظل خاطر الآخرة حيا في النفس لا يفارقها، بما تشتمل عليه من صور النعيم والعذاب، الأولى تدفع الشوق إلى الجنة، والثانية تحذر من الوقوع في العذاب⁰ وذلك من الإعجاز⁰⁰

* * *

وثمة مجال ثالث يبدو فيه التنويع- لا التكرار- أوضح ما يكون، ذلك مجال الآيات الدالة على قدرة

الله⁰⁰

إن القرآن - كما قلنا - كتاب هداية، مهمته الأولى هداية الناس إلى ربهم، وإلى الصراط المستقيم:

((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين(15) يهذى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم))⁽¹⁾

وأوسع الأبواب التي ترد في القرآن لتعريف الناس بربهم هو الآيات الدالة على قدرة الله، والتي تؤدي بالقلب البشري - حين يتدبرها على حقيقتها - أن ينبذ الآلهة الزائفة كلها، ويتعلق بالإله الحق، الذي لا إله غيره، ويعبده وحده بلا شريك⁰

وفي مكان آخر من الكتاب سنتكلم عن هذه النقطة في مجال الإعجاز الدعوى، والإعجاز التربوي⁰ إنما نريد هنا أن نتحدث عنها من ناحية دخولها في ظاهرة التنوع، التي يخيل للإنسان للوهلة الأولى أنها تكرر، ولكنها ليست تكراراً في الحقيقة، إنما هي عرض متنوع على الدوام⁰

الآيات في مجملها واحد: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتدبير الكون، والمهيمنة التامة على كل ما في الوجود ومن في الوجود، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، والحاكمة المطلقة على كل شئ في الكون المادى أو في حياة البشر⁰

ولكن هذه الأمور لا تأتي في صورة واحدة⁰⁰ بل في مئات الصور في القرآن من أوله إلى آخره⁰

وتختلف الصور⁰⁰ مرة من حيث الطول والقصر، ومرة من حيث المفردات المذكورة في كل منها، ومرة من حيث الحجم الذي تأخذه كل مفردة من المفردات في سياق السورة⁰

فخلق السموات والأرض ربما كان أكثر الآيات وروداً في معرض إثبات قدرة الله التي لا تحدها حدود. ولكن هذه القضية الواحدة ترد في صور شتى تجعلها جديدة وقائمة بذاتها في كل مرة:

((هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل

شئ عليم))⁽²⁾⁰

¹ سورة المائدة: 15، 16 0

² سورة البقرة : 29 0

((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون))⁽¹⁾ 0

((هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون(10) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن ذلك لآية لقوم يتفكرون(11) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون(12) وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون(13) وهو الذى سخر البحر لتأكلون منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون(14) وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأهبارا وسبلا لعلكم تهتدون(15) وعلامات وبالنجم هم يهتدون(16) أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون))⁽²⁾

فكيف ترى في هذه الآيات!؟

أهى ذات المشاهد المألوفة التي يتبدل عليها الحس لأنها مكرورة أمامه؟ أم إنها أمر جديد يهز الوجدان ويحرك المشاعر!؟

وما الجديد فيها!؟

إن الجديد فيها شيئان يبرزهما السياق. الأول أن السياق يعرضها لا على أنها ((مرئيات)) أمام الإنسان يطلب منه أن يشاهدها، أو حتى أن يلتفت إليها التفاتا خاصا.. إنما يصلها مباشرة بالقدرة القادرة التي أوجدتها، والتي تحركها وتدبر أمرها.. تصلها بالله؛ فيشاهدها الإنسان - مع السياق القرآني- في ثوب جديد غير ذلك الذى تبدل عليه الحس. فتنتفض حية في الوجدان، لأن الوجدان يتابع فيها يد الصانع القادر الجليل، في كل شيء بمفرده، وفي المجموع الذى تكونه المفردات.. فينبض القلب بالتأثر العميق⁽³⁾ 0

¹ سورة البقرة : 164 0

² سورة النحل : 10-17

³ سنتعرض لهذه النقطة مرة أخرى في الحديث عن الإعجاز الدعوى 0

أما الشيء الآخر فهو التنوع المستمر في العرض.. إن له خاصية ذات تأثير، هي إحياء المشهد المعروض كأنه في كل مرة جديد 00

وذلك من الإعجاز 00

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن التنويع ذاته هو آية من آيات الله التي يشار إليها نصا في معرض الحديث عن آيات الله في الخلق 0

((ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين))⁽¹⁾ 0

((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود(27) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور))⁽²⁾ 0

ويلفت النظر في هذا النص الأخير أن التعبير عن التنويع جاء من خلال التنويع في بعض ألفاظ العبارة ذاتها، ما بين التذكير والتأنيث، والرفع والنصب:

((مختلفا ألوانها))

((مختلف ألوانها))

((مختلف ألوانه))

خذ كذلك هذا النص من سورة الأنعام :

((إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون(95) فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم(96)

¹ سورة الروم : 22

² سورة فاطر : 27 ، 28

وهو الذى جعل لكم النجوم لتتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون(97) وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون(98) وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون))⁽¹⁾0

إن التنويع فى عبارات الآيات واضح بصورة تلفت النظر 00

ففى الآية الأولى لم يقل: يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى كما هو المعتاد فى الآيات الأخرى، ولكن قال: ((ومخرج الميت من الحى)) وهذا تنويع 0000

وفى الآية الثانية لم يقل: فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا كما هو المعتاد فى عطف الاسم على الاسم، ولكن قال : ((وجعل الليل سكنا)) وهذا تنويع 00

وفى الآية الرابعة لم يقل: هو الذى أنشأكم من نفس واحدة فجعل لها مستقرا ومستودعا كما يتوقع أ، يكون السياق العادى فيجرى العطف بين فعل وفعل، إنما حذف الفعل الثانى وجى بمعموله مرفوعاً كأنه نائب فاعل (فجعل لها مستقر ومستودع) وهذا تنويع 00

وفى الآية الخامسة تكرر الفعل (فأخرجنا) ((فأخرجنا)) فى الزمن الماضى وجاء بعده المضارع (نخرج) وفى هذا تنويع.. ثم تجاوز فى العبارة اسمان مرفوعان بالضممة (قنوان دانية)، واسمان أحدهما منصوب بالكسرة والثانى مجرور بالكسرة (وجنات من أعناب) وسامان منصوبان بالفتحة (والزيتون والرومان). وأخيرا جاءت كلمة فى صيغتين مختلفتين (مشتبها) و (متشابه) وذلك كله تنويع 00

وذلك من الإعجاز 0

* * *

ثم يلفت النظر نوع آخر من التنويع فى عرض آيات القدرة الربانية 00

فضلا عن كون التنويع يذكر - في ذاته - على أنه من آيات الله الدالة على القدرة التي لا تحدّها حدود، والتي لا تخلق فحسب، بل تخلق أنواعا مختلفة من كل شيء، وفضلا عن التنويع الذي يرد في العبارات ليلفت النظر إلى ظاهرة التنويع في الخلق، فإن إيراد آيات القدرة يأخذ في كل مرة (جو) السورة الذي ترد فيه 0

فالآيات في مجملها واحدة كما أشرنا من قبل: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتدبير الكون، والهيمنة التامة على كل ما في الوجود وكل من في الوجود، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، والحاكمة المطلقة على كل شيء في الكون المادى أو في حياة البشر.. ولكنها حين تعرض في سورة يغلب عليها جو الرضا الرباني على المؤمنين، أو التذكير اللطيف الذي يدعو الناس إلى الإيمان، تأخذ صورة مختلفة عنها هي ذاتها حين تعرض في سورة يغلب عليها جو الغضب الرباني على الكفار أو جو النذير 00

ولنعد إلى المثال الذي ذكرناه آنفا من سورة الأنعام، الذي جاء في آخره قوله: ((إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون). بمعنى أنه جاء في معرض التذكير بآيات الله لدعوة الناس إلى الإيمان. ولنضع إلى جانبه هذه الآيات من سورة يس، التي تشمل ((الموجودات)) نفسها أو الآيات نفسها، ولكن في جو مشحون بالغضب على الكافرين المعاندين، ولننظر كيف تختلف طريقة العرض:

((وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون(33) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون(34) ليأكلون من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون(35) سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون(36) وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون(37) والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم(38) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم(39) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون(40) وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون(41) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون(42) وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون(43) إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين))⁽¹⁾0

فالعيون تفجر، والليل يسلم منه النهار، والظلام يسود فجأة، وآخر صورة للقمر هى كونه كالعرجون القديم، والشمس لا تدرك القمر ولا ينبغى لها والليل لا يسبق النهار، ولا ينبغى له. والفلك مشحون. وهم منذرون بإمكان إغراقهم فى وضع لا ينجدهم فيه أحد ولا يسعى لإنقاذهم أحد !

وما أبعد هذه الصورة عن الصورة الواردة فى سورة الأنعام، وإن كانت كلتاهما تتحدث عن الشمس والقمر والزرع والثمار !

وذلك من الإعجاز 00

كنا حتى الآن نتحدث عن ظاهرة واحدة من ظواهر الإعجاز البياني فى القرآن الكريم، هى ظاهرة التنويع، وذلك فى مجالات رئيسة ثلاثة : قصص الأنبياء مع أقوامه، ومشاهد القيامة، وآيات الله فى الكون. ولكن الظاهرة لا تنحصر – كما ألمحنا فى أول الكلام – فى هذه المجالات الثلاثة، فهى ظاهرة عامة فى القرآن كله، وفى كل موضوعاته، ضربنا لها مثلاً فى قوله تعالى فى (سورة البقرة: 25) ((يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم)). وقوله تعالى فى (سورة إبراهيم: 6) ((يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم))، والأمثلة كثيرة فى القرآن الكريم تلفت انتباه كل قارئ يقرأ بوعى، سواء أدرك الحكمة فيها أم لم يدركها، كقوله تعالى: ((وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى))⁽¹⁾ وقوله تعالى: ((وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى))⁽²⁾، فالتركيز فى الأولى على الجئى من أقصى المدينة، بما يوحى بأهمية الأمر الذى حفز الرجل على قطع تلك المسافة الكبيرة، والتركيز فى الثانية على الرجل ذاته، بما يوحى باهتمامه الخاص بالأمر، وأنه حريص على سلامة موسى عليه السلام (والراجح أنه هو الرجل المؤمن من آل فرعون الذى ناصر موسى فيما بعد فى مواجهة فرعون). وقوله تعالى عن اليهود ((يخرفون الكلم عن مواضعه))⁽³⁾ وقوله عنهم ((يخرفون الكلم من بعد مواضعه))⁽⁴⁾. ففى الأولى يشير إلى تحريفهم لكلام الله، وما فى ذلك من لؤم والتواء، وفى الثانية يشير إلى تجرؤهم على الله سبحانه وتعالى بأن يقرر الأمر فيقرروا غيره من بعد تقرير الله له، وما فى ذلك

¹ سورة يس : 20

² سورة القصص : 20

³ سورة المائدة : 13

⁴ سورة المائدة : 41

من توقع وتمرد على رب العالمين. وفي مثل تلك المواضع يكون للتنويع دلالة خاصة تضاف إلى مجرد التنويع، الذى هو فى ذاته هدف مقصود0

وذلك من الإعجاز 00

ولكن ظاهرة التنويع – على تعدد مجالاتها فى القرآن الكريم – ليست وحدها التى تحمل الإعجاز البيانى فيه. فلإعجاز البيانى فى القرآن تحليلات كثيرة فى مجالات كثيرة، ليس من الضرورى أن تكون ظاهرة عامة فى كل مرة، فقد تكون فى آية، وقد تكون فى حرف من آية، كما سنضرب الأمثلة من أماكن متفرقة من كتاب الله الكريم، لمجرد التوضيح لا على سبيل الحصر.. فالأمر يفوق الحصر!

فى دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى سورة البقرة، وردت هذه الآيات:

((وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم(127) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم(128) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم))0

لاحظ نغمة المد فى هذه الكلمات بما يناسب جو الدعاء (منا إنك) ((ومن ذريتنا أمة)) ((وتب

علينا إنك 00)0

ثم لاحظ تغير النغمة بما يوحى بانتهاء الدعاء : ((ويزكيهم إنك 00))0

إن حركات المد فى العبارات الأولى تشعرك بالاستغراق فى الدعاء، والرغبة فى التعبير عن مشاعر عميقة تملأ قلبيهما وهما يتوجهان هذا التوجه الخاشع بين يدي الله وهما يقيمان قواعد البيت، بينما الياء فى كلمة (ويزكيهم) توحى بأن الدعاء قد وصل إلى غايته، وأنه يوشك أن ينتهى، بعد أن بثا مشاعرهما لله العلى العظيم. وحين تصور الكلمات – وهى مجرد كلمات – مشهداً كاملاً جياشاً على هذا النحو، وتعطى صورة الأكف المرفوعة بالضراعة، ثم حركة الأكف وقد أوشكت أن تفرغ من الدعاء هابطة إلى أسفل.. يكون هذا من الإعجاز 0

في سورة آل عمران ترد هذه الآيات :

((كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب⁽¹⁾) هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء))⁽²⁾0

المشهد هو مريم منقطعة للعبادة في المحراب، وزكريا لا يفتأ يدخل عليها يتفقد أحوالها، فهو كفيها المسئول عن تربيتها ورعايتها، فيجد عندها رزقا متجددا فيسألها: من أين لها هذا وهي لا تبارح المكان ولا تسعى على الرزق، فتجيبه في براءة وبساطة : ((هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)). فتجيش نفس زكريا بمشاعر هائلة، وهو يرى الفيض الإلهي يفيض على مريم، وهي الطفلة التي لا حول لها ولا طول. فيشتاق.. يشتاق إلى الذرية، ولم يكن قد رزق بالولد بعد، ويشتاق إلى أن يفيض الله عليه من نعمائه كما أفاض على هذه الطفلة الصغيرة التي كلفه الله برعايتها.. ((هنالك)) دعا زكريا ربه00

((هنالك)) .. ما دلالة اللام في هنالك!؟

إن اللغويين والبلاغيين يقولون إنها تعبر عن البعد. فالشئ يشار له بكلمة ((هنا)) إذا كان حاضرا قريبا تدركه العين أو اليد لقربه. ويشار إليه بكلمة ((هناك)) إذا كان بعيداً عن متناول اليد.. ثم إذا اشتد بعده يشار إليه بكلمة ((هنالك)) بزيادة اللام لتعطي مزيدا من البعد 00

فأين البعد هنا ؟

هذا هو المحراب، وهذه هي مريم، كلاهما حاضر قريب. وهذا هو زكريا معها في نفس المكان00

لا بعد في المكان، ولا بعد في الزمان0

إنما البعد في أغوار النفس !

¹ سورة البقرة : 127 - 129 0

² سورة آل عمران : 37 ، 38 0

((هنالك)) فى أعماق نفس زكريا تحرك الشوق.. الشوق إلى الذرية. والشوق إلى الفيض الإلهى الذى يفيض بالخير، وبالرحمة وبالعطاء، وبالرضوان..

هل تحس مدى العمق فى المشهد .. العمق الواغل فى أعماق النفس؟

إنه الإعجاز 00

* * *

يقول تعالى فى سورة فاطر :

((.. وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى))0()

فماذا يوحى إليك النص؟ وما الصورة التى تتبادر إلى ذهنك؟

إن المقصود بالنص هو النفس الإنسانية المثقلة بالذنوب، يقف صاحبها يوم القيامة مثقلاً بذنوبه، كما ورد فى نصوص أخرى 0

((ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون))0()

((وليجملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون))0()

((.. وقد أتيناك من لدنا ذكراً (99) من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً (100) خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً))0()

((.. وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون))0()

نعم .. ولكن!

إن حذف الموصوف (نفس) مع إبقاء الصفة (مثقلة) وتأنيتها، وإطلاقها بغير موصوف معين،

يورد على الخاطر صورة المرأة الحامل، المثقلة بحملها.. كم تعانى منه؟!

وإن تدع البشر جمعياً إلى حملها - فضلاً عن أولى القربي - فهل يستطيع أحد أن يحمل عنها حملها أو يخفف عنها شيئاً مما تعانيه من ذلك الحمل؟!

إنه حملها الخاص الذي لا يملك أحد على وجه الأرض كلها أن يحمل ((شيئاً)) منه، وهى معاناتها الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يعاونها فيها، فضلاً عن أن يخففها عنها00

كم تبلغ هذه الصورة في تعميق المعنى المقصود، الذي يرد أحياناً بصيغ أخرى:

((ولا تزر وازرة وزر أخرى))⁽¹⁾ ، ((كل نفس بما كسبت رهينة))⁽²⁾00

وكم تؤثر هذه الصورة في نفس من ((كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد))⁽³⁾ إنه

الإعجاز00

* * *

يقول تعالى في سورة الرعد:

((قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار(16) أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال))00⁽⁴⁾

الأمثال لها وقع خاص في النفوس، لأنها ترسم صورة موازية للمعنى المقصود00 تحوى غالباً أموراً من مألوفات الحياة، يستطيع الناس بسهولة أن يتعرفوا عليها ويتمثلوها في أذهانهم0 ثم يقطع الخيال رحلة ممتعة ينتقل فيها من هذه الأمور المألوفة إلى المعنى ((الموازي))، فيتجسم المعنى وينبض بالحياة حين يدرك الإنسان وجه الشبه بينه وبين الصورة الواردة في المثل، ويتضاعف حجمه في الحس لأن الإنسان يراه مرتين: مرة في الصورة المجردة، ومرة في المثل المضروب0

¹ سورة الإسراء: 15 0

² سورة المدثر: 38 0

³ سورة ق: 37

⁴ سورة الرعد : 16 ، 17

وفي القرآن ترد أمثال كثيرة، تجسم المعاني التي يراد تجسيمها، وتضاعف وقعها في النفوس **0** وتجئ الإشارة إلى ذكر الأمثال في القرآن في مثل قوله تعالى: ((ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل)) **0**¹

ولكن هذا المثل المضروب في سورة الرعد له خصوصية حتى بين الأمثال:

إنه يبدأ بكلام لا تحسبه في بادئ الأمر مثلاً يضرب، لأنه حقيقة واقعة من حقائق ((الطبيعة)) التي خلقها الله، تجئ في معرض ذكر القدرة الإلهية: ((الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (16) أنزل من السماء ماء (000)) **0**

ولكن هذه الحقيقة مرتبطة بالمثل **0** فهي حقيقة وهي مثل يضرب ذات الوقت **00**

هذا الماء الذي نزل بقدرة الله سالت منه أودية، كل واد بحسب سعته، وجرى الماء في الوديان فاحتمل السيل زبداً رابياً **00** إلى هنا يتم تقرير هذه الحقيقة الواقعة التي تقع في الطبيعة، ويسجل السياق وجود الزبد مع اندفاع الماء، وهذه أيضاً حقيقة تقع في الطبيعة **00**

ولكن يأخذ المثل في التشكل عند هذه النقطة، ثم يمضي شوطاً آخر **00**

((ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله)) **0**

فالزبد ليس حادثاً في ((الطبيعة)) فقط، بل فيما يصنع الإنسان كذلك **0** فالناس يوقدون على الذهب والفضة، ليصهروهما، ثم يشكلون من المادة المنصهرة حلياً ومتاعاً متعدد الأشكال، ولكن ظاهرة الزبد تلاحقهم أيضاً فيما يصنعون **00** وإلى هنا تقرر حقيقة جديدة: أن الزبد ظاهرة ملازمة سواء في الطبيعة التي خلقها الله، أو فيما يصنع الإنسان بيده **00**

ويبدأ المثل يتشكل بصورة أوضح، وذلك حين يقول الله سبحانه وتعالى: ((كذلك يضرب الله الحق والباطل)) **0** فالحق والباطل موجودان متجاورين متلازمين في حياة الناس، بقدر من الله، ولكن لفترة من الوقت، ومرحلة من المراحل **00** ثم يأتي ما قدره الله وما قرره منذ الأزل ((فأما الزبد

فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)) وتلك هي النهاية التي تستقر فيها الأمور في وضعها الأخير⁰⁰

ولكى ندرك مرمى المثل لابد أن نشير إلى واقع الدعوة في الفترة المكية، وإلى حال المؤمنين يومئذ⁽¹⁾

كان الباطل منتفشا في مكة، والمشركون ظاهرين، يجولون ويصولون، مزهوين بكثرتهم وقوتهم وغلبتهم على المؤمنين وقهرهم لهم⁰ والمؤمنون في ضعفهم وذلمهم وهوانهم على الناس كما وصف رسول الله ﷺ حاله وهو يشكو حاله إلى الله: ((إليك أشكو ضعفى وذلتى وهوانى على الناس))، والعذاب يصب عليهم صبا من جانب المشركين⁰⁰

هنا مضرب المثل في صورتين: صورة الرابي فوق الماء، والزبد المغشى للذهب والفضة المصهورتين⁰⁰

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يسرى عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين الغارقين في العذاب⁰ إن ما هم فيه ليس هو نهاية المطاف! إنما مرحلة موقوتة⁰⁰ ثم يتبدل الحال!

فأما السيل فبعد فترة يصفو، وينثى الزبد الذى يعلوه، ويذهب جفاء⁰⁰ يذهب بددا⁰⁰ ويبقى الماء يسقى الحرث والنسل، وينبت الزرع، ويتنفع الناس به، ويفرحون بالخير الذى جاء معه⁰

وأما الزبد الذى يعلو الذهب والفضة في عملية الصهر فيلقى جانبا، ويذهب بددا، وأما المعدن الصافي فيبقى نقيًا خالصًا ينتفع به الناس⁰

ذلك هو المثل. أما الصورة ((الموازية)) المطلوب إبرازها فهي أن انتفاش الباطل وهيمنة الكفار في مكة زائلان بحول الله وقوته. ويبقى الحق، ويعلو، وينتصر، ويخلص له الجو، ويصبح هو القوة الممكنة في الأرض، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، بعد فترة الصراع التي يخوضها الحق مع الباطل: ((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))⁽²⁾

¹ سورة الرعد مختلف في كونها مدنية أم مكية، ويغلب على ظني، كما بينت في كتاب ((دراسات قرآنية - أمها مكية تحوى آيات مدنية. والله أعلم 0

² سورة البقرة : 251

إنه مثل رائع، يجسد علو الباطل فترة من الوقت، ثم تبدده في النهاية وانتصار الحق..

ولكن روعته تزداد في الحس حين ينعم الإنسان النظر في تفصيلاته..

من سنن الله أن يسبق انتصار الحق وتمكنه في الأرض فترة يعلو فيها الباطل ويتنفش. ومن سنة الله

في الوقت ذاته أن يتلى المؤمنون على يد الكفار :

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله

الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))⁽¹⁾0

ويبين الله حكمة الابتلاء في قوله تعالى: ((وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين))⁽²⁾فمحق

الكافرين يأتي بعد تمحيص المؤمنين وتمحيص المؤمنين يأتي من خلال الابتلاء00

وتبلغ الروعة في المثل قمتها في تصوير حالة الابتلاء.. إنها ((فتنة)) ينصهر فيها المؤمنون كما يفتن

الذهب والفضة على الناس⁽³⁾، كما ورد في سورة العنكبوت: ((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا

وهم لا يفتنون⁽²⁾ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))⁽⁴⁾0

وفي عملية الانصهار التي تتم في الابتلاء تذهب أدران النفوس، وتصفو، وتخلص لله، كما يذهب

ما يعلق بالذهب والفضة من أوشاب، لا تزول إلا ((بالفتنة)) على النار، ثم يبقى الجوهر الصافي الذي

يستمتع به الناس0

ألا إنه إعجاز00

يقول تعالى في سورة يوسف :

((اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين))⁽¹⁾0

¹ سورة العنكبوت : 2 ، 3

² سورة آل عمران : 141

³ يقال في اللغة : فتن الذهب والفضة أى صهرهما على النار لينفى منهما الخبث0

⁴ سورة العنكبوت : 3، 2

((يأت)).. من أين يأتي؟! إن المقصود أنه يعود مبصراً في التو واللحظة. ولكن الفعل ((يأت))

يظل له إبحاؤه .. فما دلالتة؟

إن يعقوب عليه السلام لم يكن م غائباً فيأتى! فهو جالس مكانه لا يريم! ولكنه كان كالغائب..
فحين فقد بصره لم يكن ((حاضراً)) فيما حوله، يراه، ويتفاعل معه كما يتفاعل المبصرون! إنما كان
((غائباً)) ببصره عنه.. وحين يرتد بصيراً فإنه ((يأت)).. يأتى من غيبته التى كان فيها، ويصبح
((حاضراً)) فيما يحيط به من أشخاص وأشياء..

وكلمة واحدة تعطى هذا المعنى العميق كله، وتجعل المشهد يتحرك بحركة ((الجيء)) بعد

((الغياب))!

ألا إنه إعجاز 00

يقول تعالى في سورة النور :

((الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه
كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه
نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم(35) في
بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال (36) رجال لا تلهيهم تجارة ولا
بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار(37) ليحزيهم الله
أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب(38) والذين كفروا أعمالهم
كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع
الحساب(39) أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق
بعض إذا أخرج يده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور))⁽²⁾

¹ سورة يوسف : 093

² سورة النور : 35 - 40

إشراقه النور، ونضرة النعيم 00 وهناك ظلمات مدلهمة تحيط بالكفار، تنعدم فيها الرؤية تماماً، وتحيط بهم الأعاصير، والموج الرهيب يقرب أجسادهم وأفئدتهم وهم فى الظلام لا يرون من أين تأتيهم الأخطار، ولكنها تتناوشهم من كل جانب 00

لا يوجد أنور من هذا النور، ولا أظلم من هذا الظلام!

ولا يوجد أروع من هذا التقابل الذى ترسمه اللوحتان المتقابلتان، اللتان ترسمان بالألفاظ ما تعجز عن تصويره كل أدوات التصوير 00

وفى سياق واحد تتقابل صورتان جنباً إلى جنب، فتتجذب القلوب إلى النور، ثم تفرغ من الظلام فتستدير إلى النور، تستروح فيه الطمأنينة والأنس والإشراق 0

ويجتم السياق بهذه الحقيقة الهائلة: ((ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)) فكل مصدر يلمس فيه النور غير المصدر الربانى لا ينير، وكل شىء غير نور الله ضلال، بل عبث وانقطاع، ووهم وخداع، ينتهى بصاحبه إلى الضياع فى لجة الظلام 00

ألا إنه إعجاز 00

يقول تعالى فى سورة الأعراف :

((فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأثم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون))⁽¹⁾ 0

الآية فى وصف الأمة اليهودية بعدما أداروا ظهرهم للهدى الربانى، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءهم بغير حق، وخالفوا أمر ربهم، وأخذوا إلى الأرض بحثاً عن المتاع الرخيص 0

وفى كلمة واحدة من كلمات الآية ينكشف الوضع كله، وتتضح معالمه، وتبين أسبابه:

¹ سورة الأعراف : 169 0

((ورثوا الكتاب))0

هذا سر الموقف كله 00

لقد صار الكتاب الذى يحمل الوحي الرباني تراثاً، يحتفظ به، ويعتز بذكراه، ويتفاخر به، ولكن لا يعمل به فى واقع الحياة

إنه كتاب الآباء والأجداد، ولكنه ليس كتابهم هم! وهم ورثوه عن الآباء والأجداد، ولكنهم لا يعدونه موجهاً إليهم، ولا ملزماً لهم ليعملوا به! إنما التزام به الآباء والأجداد الذين أنزل إليهم. أما هم ففى واد آخر، وفى شغل آخر، لا علاقة له بالكتاب! إنهم يبحثون عن عرض الحياة الدنيا، وذلك شغلهم الشاغل. ولكنهم فى الوقت ذاته متعلقون بذكرى الكتاب! وذكرى الكتاب توهمهم أنهم لن يعاقبوا على أعمالهم التى يرتكبون فيها ما حرم الله، لأن ذكرى الكتاب ستحميهم من ذلك العقاب، وستجلب لهم مغفرة الرب الذى يكفرون به وبآياته، ويزعمون فى الوقت ذاته أنهم أبناءه وأحبائه!

((ويقولون سيغفر لنا))0

والانشغال بعرض الدنيا ليس أمراً عارضاً فى حياتهم إنما هو دينهم : ((وإن يأثم عرض مثله يأخذوه)) فهم يسعون دائماً إليه، وإن جاءهم لا يفوتونه!

وليس شىء من ذلك كله عن جهل منهم بما أمرهم به الله وما نهاهم عنه.. فهم يعرفون ذلك جيداً. فقد درسوا الكتاب.. ولكنها دراسة التراث لا دراسة العمل والتنفيذ! ويختتم السياق بتذكيرهم بالحقيقة الغائبة عن حسهم: ((والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون))0

إنها آية واحدة، ولكنها تصف حال أمة بأكملها، وتصفها الوصف الذى يكشف نقاط الخلل فيها، ومظاهر الانحراف وأسبابه: وراثته الكتاب، والانكباب على عرض الحياة الدنيا، ونسيان الآخرة00

هل بقى شىء من حال تلك الأمة لم تبينه تلك الآية المعدودة الألفاظ؟

ألا إنه إعجاز 00

تلك مجرد نماذج من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، من ألوان مختلفة، في مجالات مختلفة. والقرى، حافل بمثل هذه النماذج، إلى درجة لا يملك حس ألا يتأثر بها، أو أن يتغافل عنها. فلا عجب في أن يكون القرآن هو معجزة الرسول ﷺ إلى القوم الذين يعتزون بفصاحتهم، ويتيهون بها على الخلق. ولا عجب في أن يتحداهم فيعجزوا عن إجابة التحدى، ولو جحدوا بها كبرا وعنادا وجفاء وقسوة قلب 0

ولكن الإعجاز في القرآن الكريم لا ينتهى عند هذا الحد.. وإنما هذه بدايته!

إن الإعجاز البياني هدف مقصود بذاته، يتحدى المنكرين والمعاندين، ليعلموا في دخيلة أنفسهم صدق الرسالة وصدق الرسول ﷺ، ولتقوم عليهم الحجة ولو جحدوا وأنكروا..

ولكنه في الوقت ذاته وسيلة لغايات آخر!

إنه وسيلة للدعوة. ووسيلة لإخراج خير أمة أخرجت للناس. ووسيلة لبيان المنهج الرباني الذى يريد الله للبشرية كلها أن تتبعه لتتعم بالطمأنينة والبركة والفلاح في الدنيا والآخرة 00

إن الله يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد 00 ولكنه يدعوهم بهذا الأسلوب الفائق الذى يبلغ حد الإعجاز 0

والله يربى الأمة التى آمنت به تربية دقيقة عميقة فذة شاملة تشمل كل جوانب كيانهم. ولكنه يربئها بهذا الأسلوب الفائق الذى يبلغ حد الإعجاز 0

والله يريد أن يضع لهذه الأمة منهج الحياة الذى تسير عليه ليكتب لها التمكين فى الأرض، ولتكون رائدة لكل البشرية 0 ولكنه يبين لها المنهج بهذا الأسلوب الفائق الذى يبلغ حد الإعجاز 0

وهذا نفسه إعجاز فوق إعجاز!

من الإعجاز الدعوى

ونقصد بالإعجاز الدعوى: الإعجاز في بيان العقيدة الصحيحة بكل تفصيلاتها، والإعجاز في الوصول بها إلى مكامن النفوس بحيث تستقر فيها وترسخ نقية صافية من كل غبش، والإعجاز في تحويلها - بعد بياها وترسيخها - إلى قوة فاعلة في شتى مجالات الوجود الإنساني⁰

والعقيدة التي جاء بهذا القرآن هي التوحيد . وهي عقيدة الأنبياء جميعا من لدن آدم ونوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا⁰ ولكنها لم تكن قط في أى كتاب أصفى منها في القرآن الكريم، ولا دخلت إلى نفوس الناس من كل منافذها وأقطارها كما دخلت عن طريق هذا الكتاب، ولا كانت قط مؤثرة في واقع الحياة على أوسع نطاق كما انبثقت من هذا الكتاب⁰

ولا عجب في ذلك، فالقرآن هو كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التي اكتمل بها الدين، وتمت بها النعمة، وأخرجت خير أمة :

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً))⁰⁽¹⁾

((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))⁰⁽²⁾

إن كون الله هو الرب، وهو الخالق، عقيدة لا تحتاج إلى إرسال رسول، فهي كامنة في أعماق الفطرة :

((وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا))⁰⁽³⁾

وما أرسلنا رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها، فالفطرة تعرف ذلك بغير رسول. ولا أرسل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها فاعبدوه. فالفطرة تتجه تلقائيا إلى عبادة الإله الذي تؤمن به.

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا للناس : ((اعبدوا الله ما لكم من إله غيره))⁰⁽¹⁾

¹ سورة المائدة : 03

² سورة آل عمران : 0110

³ سورة الأعراف : 0172

ذلك أن مشكلة البشرية الكبرى لم تكن إنكار وجود الله، إنما كانت هي الشرك. ودعك مما سرى في الجاهلية المعاصرة من إلحاد ينكر وجود الله، فقد نشأ من ظروف خاصة، وله شياطينه الذين ينفخون فيه. ولكنه لون خاص من الانحراف لم يقع بصورته تلك في أى جاهلية من جاهليات التاريخ⁰

والذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ((ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر))² وسموا بالدهريين، كانوا على وجه اليقين منكرين للبعث، ولكن الآية لا تدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا ينكرون وجود الله. فقد نسبوا الموت إلى الدهر بمعنى مرور الزمن، أى أنهم يولدون، ويحيون حياتهم، ثم يهلكون بمرور الزمن، ثم لا يعثون مرة أخرى بعد الموت. وهؤلاء كانوا مطموسى البصيرة بلا شك. ولكننا لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا منكرين لوجود الله، وإن أنكروا قدرة الله على البعث. فقد كان مشركو العرب ينكرون البعث، ولكنهم مع إنكارهم هذا - إذا سئلوا ((من خلق السموات والأرض)) يقولون الله. وإذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، كما سجل القرآن عليهم:

((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))³0

ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))⁴0

وأيا كان الأمر، فلئن وجد في القديم قلة من الناس ينكرون وجود الله - وهو أمر مشكوك فيه - فلم يحدث قط - إلا في الجاهلية المعاصرة - أن أصبح هذا اللون من الإلحاد (دينا) يدين به ملايين من البشر، لظروف بينها في غير هذا الكتاب، وقام شياطين الإنس بنشره في الأرض، وتبنته الشيوعية ديناً رسمياً لدولتها. ولكن ما أن انهارت الشيوعية حتى عاد الناس في روسيا ذاتها إلى معتقداتهم الدينية السابقة، وأقروا بوجود الله، أيا كان في معتقداتهم من انحراف!

المرض الأكبر إذن في الجاهليات هو الشرك، وهو الذى أرسل كل رسول لينتزع من نفوس قومه. ثم أرسل الرسول الأعظم ﷺ لينتزع من قلوب البشرية جمعاء، فأمن به من قدر له الهدى، وأبى من أبى بقدر من الله⁰

¹ سورة هود : 50، 61، 84

² سورة الجاثية : 24

³ سورة لقمان : 25 .

⁴ سورة الزخرف : 87

والشرك - وتوابعه - يسميها الله سبحانه وتعالى ((عبادة الشيطان)) 0

((ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم))⁽¹⁾ 0

والأصل في الفطرة هو التوحيد، ولكن الشياطين يحاولون دائما إخراج الناس من صفاء التوحيد إلى كدر الشرك:

((إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالهم الشياطين))⁽²⁾ 0

وهذا الاجتلاء يأخذ صوراً شتى:

منها تأليه الجن والملائكة والشمس والقمر والنجوم والحجر والشجر، والزعم بأنها آلهة تعبد مع الله أو من دونه 00

ومنها ادعاء الولد لله 00

ومنها الاعتقاد بأن كائناً من كان له مشاركة مع الله في الخلق أو التدبير، أو له شفاعاة مقبولة عند الله فيعبد ليقرب الناس من الله زلفى 00

ومنها إنكار الوحي والرسالات 00

ومنها إنكار البعث 00

ومنها التحليل والتحريم (أى التشريع) بغير ما أنزل الله 00

ومنها اتباع الهوى والشهوات 00

وهي كلها انحراف عن عقيدة التوحيد، ورفض لإخلاص العبادة لله وحده بلا شريك 0

ولها أسباب شتى، ولكنها تؤدي في النهاية إلى شيء واحد هو الكفر بالله 0

¹ سورة يس : 60 ، 61

² أخرجه مسلم 0

وقد ينشأ الكفر من تعظيم زائد لأشخاص من البشر يصل إلى حد التقديس، كما حدث في عبادة الأصنام⁰

وقد ينشأ من فساد في الفطرة يهبط بها عن حالتها السوية التي فطرها الله عليها، والتي تتسع للإيمان بما تدركه الحواس (عالم الشهادة) والإيمان بما لا تدركه الحواس (عالم الغيب)، فتنحصر في الإيمان بما تدركه الحواس، وتنشئ آلهة محسوسة، تتعبد لها بدلاً من الله الذي (لا تدركه الأبصار)⁰⁽¹⁾

وقد ينشأ من الاستكبار عن عبادة الله⁰

وقد ينشأ من اعتداد الإنسان بنفسه وقوته اعتداداً زائفاً يخيّل إلى صاحبه أنه ذو قوة ذاتية فاعلة بذاتها⁰

وقد ينشأ من الطغيان والتجبر على الناس، فيدعى الطاغية الألوهية لنفسه، ويلزم الناس بأداء شعائر التعبد له، أو يستعبد لهم بالتشريع لهم بغير ما أنزل الله، وإخضاعهم لتشريعهم، ومعاقبتهم إذا خرجوا على شرعه⁰

وقد ينشأ من تضخم الذات، فيعبد الإنسان ذاته، أو بالأحرى أهواءه وشهواته⁰⁰ والإعجاز في كتاب الله أنه يعرض لهذه الأسباب كلها، لا يغادر شيئاً منها. فيبرزها، ويندد بها، ثم يعالجها⁰

((ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله))⁰⁽²⁾

((وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين))⁰⁽³⁾

((قال إنما أوتيته على علم عندى))⁰⁽⁴⁾

((كلا إن الإنسان ليطغى (6) أن رآه استغنى))⁰⁽¹⁾

¹ سورة الأنعام : 103 0

² سورة يونس : 18 0

³ سورة سبأ : 35 0

⁴ سورة القصص : 78 0

((فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة))⁽²⁾

((واستكبر هو وحنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون))⁽³⁾

((أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين(77) وضرب لنا مثلا ونسى خلقه

قال من يحي العظام وهي رميم))⁽⁴⁾ 0

((ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً(35) وما أظن الساعة قائمة ولئن

رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا))⁽⁵⁾ 0

((وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد(7)

أفتري على الله كذبا أم به جنة))⁽⁶⁾ 0

((وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب(4) أجعل الآلهة إلها واحدا

إن هذا لشيء عجاب))⁽⁷⁾ 0

((إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه))⁽⁸⁾ 0

((أفرأيت من اتخذ إلهه هواه))⁽⁹⁾ 0

((بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم))⁽¹⁰⁾ 0

((وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله))⁽¹¹⁾ 0

¹ سورة العلق : 6 ، 7 0

² سورة فصلت : 15 0

³ سورة القصص : 39 0

⁴ سورة يس : 77 ، 78 0

⁵ سورة الكهف : 36 ، 35 0

⁶ سورة سبأ : 8 ، 7 0

⁷ سورة ص : 5 ، 4 0

⁸ سورة غافر : 56 0

⁹ سورة الجاثية : 23 0

¹⁰ سورة الروم : 29 0

¹¹ سورة إبراهيم : 30 0

((وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون))⁽¹⁾ 0

((وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين(24) ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون))⁽²⁾ 0

((وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم))⁽³⁾
 ((ولئن جنتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون))⁽⁴⁾

((وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون))⁽⁵⁾ 0

((وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون))⁽⁶⁾ 0

تلك على وجه الإجمال كانت أفكارهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم التي يعيشون فيها، والتي تصدهم عن الإيمان بالله واليوم الآخر والوحى والنبوة، ولها فى حسهم ثقل الأمر الواقع من جهة، وثقل الأمر الموروث من جهة أخرى. فلاهم يتصورون إمكان تغييرها، ولا إمكان الخروج عليها، وهى تقاليد الآباء والأجداد، فى بيئة شديدة المحافظة على التقاليد، وعلى موروث الآباء والأجداد. فضلا عن ذلك فهم يتوهمون أنهم على دين إبراهيم، ويحتفظون ببعض ما كان فى دين إبراهيم عليه السلام، فيعظمون الكعبة، ويحجون إلى البيت الحرام، وإن كانوا يرتكبون فى حجهم مخالفات ما أنزل الله بها من سلطان 0

وكانت قريش خاصة – التى بعث من بينها رسول الله ﷺ، والتي وجهت إليها الدعوة أول ما وجهت، إذ قال الله لرسول ﷺ: ((وأندر عشيرتك الأقربين))⁽⁷⁾ 0 كانت تدل على العرب كلهم بسدانة الكعبة، وعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فكانت تعد نفسها الرئيسة الدينية، التى تقول

¹ سورة الأعراف : 28 0

² سورة النحل : 24 ، 25 0

³ سورة لقمان : 7 0

⁴ سورة الروم : 58 0

⁵ سورة السجدة : 10 0

⁶ سورة البقرة : 170 0

⁷ سورة الشعراء : 214 0

فتطاع، وليست التي تتلقى أوامر من أحد، فضلا عن أن تكون الأوامر نقضا كاملا لأفكارهم ومعتقداتها.

لذلك كانت الحرب شديدة على العقيدة الجديدة، وكان اللدد في الخصومة، والعنف في المواجهة، والمبالغة في الصد 00

وكان القرآن هو الرد على ذلك كله 0 هو الدعوة. وهو المواجهة . وهو أداة التغيير: ((وجاهدكم به جهاداً كبيراً)) (1) 0

((آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)) (2) 0

ومرة بعد مرة يتزل القرآن ليعين العقيدة الصحيحة من جهة، وليفند أوهام المشركين واعتراضاتهم من جهة أخرى، تارة ببيان ما اشتملت عليه من سخف لا يقبله منطق ولا عقل، وتارة ببيان الأسباب الدافعة لهم إلى التمسك بالشرك وعدم الإقلاع عنه، وأما أسباب تنبع من انطماس في البصيرة، وانحراف في الفطرة، وفساد في السلوك، وكلها أمراض لا يشرف إنسانا عاقلا أن يحملها، فضلا عن أن يعتز بها وينافح عنها!

وكانت الأداة الكبرى في كل ذلك هي تعريف الناس بحقيقة الألوهية، وبتفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والإنشاء والهيمنة والتدبير، وانتفاء هذه الصفات كلها عن الآلهة المزعومة التي يتمسكون بها، بحيث يتبين عجزها وهزلها، فتسقط ألوهيتها المزعومة، ويسقط بالتالي استحقاتها للعبادة مع الله أو من دونه 00

وكان الأمر في حاجة إلى مواجهة طويلة عميقة شاملة دقيقة، حتى تنجاب الصلاة التي تحجب الحق عن القلوب، فتتهدى تلك القلوب الضالة إلى الحق، وتدخل في دين الله 0

* * *

¹ سورة الفرقان : 52

² سورة إبراهيم : 01

إذا تأملنا سورة العلق – أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ – نتبين كيف بدأ التعريف بالله سبحانه وتعالى : ((اقرأ باسم ربك الذى خلق(1) خلق الإنسان من علق(2) اقرأ وربك الأكرم(3) الذى علم بالقلم(4) علم الإنسان ما لم يعلم))⁽¹⁾، بدأ بذات المعلومات التى كانت معلومة عند العرب من قبل، ولكن بإضافة جديدة تجعلها حية وفاعلة⁰

فأما أن الله هو الخالق الذى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان فقد كان حقيقة مسلمة عندهم لا ينكرونها ولا يجادلون فيها، كما سجل القرآن عليهم فى قوله تعالى: ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))⁽²⁾. ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))⁽³⁾. وكونه خلق الإنسان من علق، أو من نطفة، أو من منى يمى، فقد كان معلوما عندهم كذلك، فقد سجل القرآن عليهم ذلك فى قوله تعالى: ((كلا إنا خلقناهم مما يعلمون))⁽⁴⁾. ((ولقد علمتم النشأة الأولى))⁽⁵⁾.

ولكن هذه المعلومات كانت بالنسبة لهم كالبذرة الميتة لا تنبت، لا لأن من شأها ألا تنبت، ولكن لأن تربتها – وهى القلوب – جفت وقست، وران عليها ما طمر البذرة فقتلها، ولقد كانت قمينة لو القلوب سليمة والنفوس صحيحة أن يكون لها مقتضى فى مجرى حياتهم⁰⁰

فالآن يأتى القرآن فيرفع الران الذى طمر البذرة فمنعها من الإنبات، ويضع بذرة جديدة من ذات النوع، ولكن فى تربة جديدة مهيأة للإنبات⁰⁰

((اقرأ))⁰⁰

اقرأ الدلالة الكامنة فى هذه الحقيقة الكبرى، وهى أن الله هو الخالق، وأنه خلق الإنسان من

علق⁰⁰

إنها حقيقة هائلة حين يتدبرها الإنسان بقلب واع وفكر متفتح.. معجزة الخلق.. خلق السموات والأرض من العدم.. وخلق الإنسان من نطفة إذا تمى..

¹ سورة العلق 1-5

² سورة الزمر : 38

³ سورة الزخرف : 87

⁴ سورة المعارج : 39

⁵ سورة الواقعة : 62

إذا كنت لم تقرأ هذه الدلالة من قبل فاقرأها الآن على صوت هذا النداء : ((اقرأ))!

اقرأها جيدا .. اقرأها مليا .. تتضح لك دلالتها 00

دلالتها أنه إله واحد هو الذى ينبغى أن يعبد، وليس سواه.. الإله الذى خلق .. خلق السماوات والأرض من العدم، وخلق الإنسان من علق 00

فإذا فرغت من قراءة تلك الحقيقة الهائلة، واتضح لك دلالتها، فاقرأ حقيقة أخرى، قمينة بأن تملأ قلبك بالحب والود والتعظيم لذلك الإله الخالق.. إنه ربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم 0

حقيقة أخرى هائلة.. فالطفل يخرج إلى الحياة بلا علم ولا معرفة ولا إدراك.. ثم يتعلم .. كيف يتعلم؟ لو لم يكن الله قد أودع فيه القدرة على التعلم فهل كان يمكن أن يتعلم؟! إن القلم هو أداة التعليم .. نعم! ولكن ضع القلم عند كائن لم يوهب القدرة على التعلم، فهل يعلمه القلم، أم الذى يعلمه هو الذى خلقه، وخلق فيه القدرة على التعلم؟

أى إكرام من ربه الأكرم، الذى خلقه على هذا النحو، وفضله - بمزيتته تلك - على كثير ممن خلق! ما الذى يجعل القلب البشرى يغفل عن تلك الدلالة الهائلة فلا يقرؤها؟!

إنه الران الذى يطمس البصيرة، ويحجب النور!

((كلا إن الإنسان ليطغى(6) أن رآه استغنى))⁽¹⁾!

هذا الوهم الضخم الذى يحيط بالإنسان فيغفل وينسى 00

يغفل عن حقائق الكون والحياة، فينسى الخالق الذى خلق، الذى أوجد كل شيء بقدرته، بحوله وطوله، بقدرته وقوته، بعقله وعلمه، بفكره وإرادته، عن الله الذى خلقه فسواه فعدله، فى أى صورة ما شاء ركبته 00

وحين ينسى فإنه يطغى 00

¹ سورة العلق : 6،7

يطغى، فيتمرد على الخالق الذى خلقه، فلا يعبد حقه عبادته، ويعبد سواه ..

ويظن أنه حر يفعل ما يشاء.. يفعل ما يميله عليه هواه.. فمنذا الذى يحاسبه على ما يفعل؟!!

كلا!

((إن إلى ربك الرجعى))⁽¹⁾!

ليس متروكا لهواه.. ليس متروكا يفعل ما يشاء بلا حساب ولا عقاب00

إنه راجع إلى ربه يحاسبه على ما جنت يده00

وتلك المعاني كلها كانت فى تلك الإقراءة الأولى، التى افتتح بها الوحي الربانى، والسق غيرت

القلوب، فجعلت البذرة تنمو نموها السوى، فتنبت الإيمان00

* * *

وتتوالى الآيات 00 تتوالى تعرف الناس برهم، بما يعزفون وما لا يعزفون00

فأما ما يعزفون – كحقيقة أن الله هو الخالق، وهى الحقيقة الكبرى التى ركز عليها القرآن فى

تعريف الناس برهم – فطريقة القرآن فيها، كما أشرنا فى المثال السابق، هى إزالة الركام الذى طمرها

فجعلها لا تؤدى مقتضاها الطبيعى، وهو عبادة الله وحده بلا شريك، واحياؤها فى طريقة عرضها،

وربطها بالقدرة الإلهية بالطريقة التى تمز الوجدان فينفع بها، فيفتح للإيمان بالله00

وأما ما لا يعرفون – أو ما ينكرون – كالبعث والنشور، والوحي والرسالة، فيضاف إلى

معلوماتهم بالطريقة ذاتها التى تجعل الوجدان ينفع فيتأثر، فيستجيب لداعى الإيمان00

وهنا يأتى دور الإعجاز البيانى، فيؤدى مهمته فى هذا المجال00

فطريقة العرض أولا هي التي تحي المشاهد، فتزيل عنها ما يصيبها في نفوس الناس من تبدل الحس عليها بسبب الألفة الطويلة، فإذا هي السياق القرآني شيء آخر غير ما تبدل الحس عليه، جديد حتى متحرك⁰

والتنوع كذلك يؤدي دوره. فالنفوس التي كانت منكرا أو كانت غافلة، كانت في حاجة إلى تكرار القضايا مرات ومرات حتى تزول الغفلة ويذوب الإنكار وتكرر الشيء ذاته بنفس الألفاظ ونفس الصورة يبعث السأم في النفوس. ولكن التنوع في العرض له من الجاذبية ما ينفي السامة، بل يجدد الرغبة، ويجدد الانتباه، ويجدد التأثير. وهكذا، فالقرآن كما جاء في وصفه: ((لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد)) فهو متجدد أبدا في النفوس، يعرض الأمور في كل مرة كأنها جديدة تعرض لأول مرة⁰ وهذا الذي أشرنا إليه آنفا: أن الإعجاز البياني في القرآن هدف مقصود في ذاته، وهو في الوقت ذاته وسيلة لأهداف آخر⁰

* * *

ويدخل القرآن إلى النفوس في قضايا العقيدة من كل منافذها وأقطارها، فلا يترك منفذا لا ينفذ منه، ولا يترك مدخلا لا يطرقه ليوصل العقيدة الصحيحة إلى القلوب⁰

وإذا كانت الوسيلة العظمى - كما أشرنا آنفا - هي تعريف الناس برهم، ليعبدوه وحده بلا شريك، حين يدركون تفرد سبحانه بالألوهية، وعجز الآلهة المزعومة عن القيام بشيء مما يقدر الله عليه، ففي النفس البشرية منافذ فطرية، أودعها الله في الفطرة لتتعرف على خالقها، وتتوجه إليه بالعبادة، ومن هذه المنافذ بالذات - المودعة في الفطرة - ينفذ القرآن إلى النفوس، فيوقظها من غفلتها، فتنبعث متوجهة إلى الله. ولا عجب في ذلك، فالله هو خالق الفطرة، وهو منزل القرآن ليلتقى بالفطرة التقاء كاملا شاملا مفصلا دقيقا، فيلتقيان على تعارف كامل وتوافق واتساق!

((فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))⁽¹⁾

الكون بضخامته المعجزة يروع الحس البشرى، فيروح يتأمل في هذه الضخامة التي يعجز عن الإحاطة بها، فيرد على خاطر سؤال فطرى لا يملك الإنسان دفعه : من خالق هذا الكون؟ فيهدى إن كتب له الهدى، فيعلم أن الله هو الخالق، أو يضل فيتصورها إلهاً آخر أو ألهة أخرى غير الله ينسب لها الخلق. ولكنه - حتى في ضلاله - لا يتصور أن الكون يمكن أن يوجد بغير خالق (ودع عنك ضلالات الجاهلية المعاصرة التي أحدثت نتيجة ظروف خاصة في أوربا غير مسبوقة في البشرية. وحتى هذه لم تستطع أن تنهرب من هذا السؤال الفطرى، فنسبت الخلق إلى ((الطبيعة!)) التي قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق! فابتدع إلهاً خالقاً - غير الله - وأضفت عليه بعض صفات الله سبحانه وتعالى كالخلق والتدبير، ولكن كانت أهم صفة في هذا الإله المزعوم أنه ليست له كنيسة تضطهد النساء، وتطاردهم في يقظتهم ومنامهم! وتلك كانت عقدة الجاهلية المعاصرة التي أدت بها إلى الإلحاد!)⁽¹⁾

والكون بدقته المعجزة يروع الحس البشرى كذلك. فهذا الكون ليس ضخماً فقط، ولست ضخامته التي تتجاوز كل تصور هي وحدها التي تروع الحس، ولكن يروعه كذلك أنه مع ضخامته تلك دقيق إلى درجة معجزة⁰

وتبدى الدقة المعجزة في مجالات عدة. فانتظام دورة الفلك، وانتظام الليل والنهار، من دلائل تلك الدقة التي تروع الحس⁰

وتوزيع الكائنات الحية على سطح الأرض من دلائل الإعجاز⁰

وتصريف الرياح، وحركة السحاب⁰⁰

واختلاف الألوان في الكائنات، سواء الكائنات الحية أو الجوامد⁰⁰

¹ انظر - إن شئت - حديثنا مفصلاً عن هذه القضية في كتاب ((مذاهب فكرية معاصرة))⁰

بل يدق الأمر أحياناً حتى يتبدى الإعجاز فى ريشة الطائر، ولون الزهرة، ورفرفة الطير، وسقسقة العصفور، فضلاً عن أطوار الجنين، واختلاف طبائع البشر، واختلاف مشاعرهم ومشاعرهم وطرائق حياتهم 00

دقة تروح الحس.. فيرد على الخاطر سؤال فطرى، لا يملك الإنسان دفعه: من وراء هذه الدقة المعجزة؟ من وراء هذا التنوع العجيب فى الكائنات؟ من يدبر دقائق الكون ودقائق الحياة؟ ثم يهتدى الإنسان إن كتب له الهدى، فيعلم أنه الله، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة، أو يغفل عن إيقاعات الكون غفلة تامة فكأنه فى حسه غير موجود 00

وظاهرة الموت والحياة مما يروع الحس البشرى 00

يتوهم الطفل الصغير فى مبدأ حياته أن الكائنات كلها حية، ويتعامل معها على هذا الأساس! حتى يكبر وعيه، فيعلم أن هناك جوامد وهناك كائنات حية، ثم يعلم أن الكائنات الحية تموت.. ويترك الموت فى حسه أثراً لا يمحي، بل يزداد تعمقاً مع الأيام.. فيرد على خاطره سؤال فطرى لا يملك دفعه: من وراء هذه الظاهرة الهائلة: ظاهرة الموت والحياة.. ثم يهتدى إن كتب له الهدى، أو يضل فيقول إنه الدهر أو غيره من قوى الوجود 0

والحركة فى الكون مما يروع الحس البشرى. سواء حركة الأجرام فى السماء، أو حركة البشر على الأرض، وما يحدث لهم من تحولات فى أثناء حياتهم، من قوة وضعف، وفقر وغنى، وعز وذل، وصحة ومرض، وحياة وموت.. فيرد على الخاطر سؤال فطرى لا يملك الإنسان دفعه: من المحرك وراء الأشياء والأحداث؟.. أتحدث من تلقاء نفسها أم تحدث بتدبير؟ ومن وراء التدبير؟ وهل تحكمها سنن وضوابط، أم تجرى فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم هى عبث لا حكمة فيه؟ ثم يهتدى الإنسان إن كتب له الهدى، فيعلم أنه الله، ومشيعته، وسننه، ونظامه وتدييره، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة، أو يظنها فوضى لا يشملها نظام 0

والمفارقة بين العجز البشرى والقدرة التى لا تحدها حدود، مما يروع الحس البشرى.. فالإنسان يتطلع إلى القوة والسيطرة والتملك، ويحصل من ذلك ما يقدر عليه، ولكنه فى دخيلة نفسه لا يشبع ولا

يقنع، ويتمنى لو أن له سيطرة على كل شيء، يسيره على هواه، وقوة لا تعجز عن شيء، وملك لا يبلى.. ثم يجد نفسه عاجزاً مهما سيطر، ومهما ملك، ومهما استخدم من أسباب القوة. وأشد ما يعجز عنه هو الخلق، ثم يتدرج العجز درجات!

وهذا العجز يفرض على حسه تلك المقارنة الفطرية بين ما يقدر عليه وبين القدرة القادرة التي تخلق، وتنشئ، وتسير وتدبر، ولا يعجزها شيء. ثم يهتدى فيعلم أنها قدرة الله، أو يضل فيتخيل آلهة لا وجود لها ينسب إليها ما يراه من أحداث⁰

وقضية الغيب مما يعرض للحس البشرى فيوقظه من غفلته إن كان من الغافلين. فالإنسان شديد التطلع إلى معرفة الغيب. يريد أن يطمئن على ما يكون من أمره في الغد القريب والغد البعيد. هل يعيش طويلاً أم يحترمه الموت؟ هل سيكون سعيداً في مستقبل حياته أم تعتوره الأزمات والآفات فتتغص عليه عيشه؟ هل يكون غنياً أم فقيراً؟ هل يتزوج أم لا يتزوج؟ هل يكون له ولد أم لا يكون؟ هل يحصل على مكانة عالية في الأرض أم يكون هملاً لا وزن له؟

ويؤلمه أنه لا يستطيع أن يستكنه الغيب.. لا الغيب البعيد الموجل في المجهول، بل الغيب القريب الذي يكون غداً أو بعد ساعات.. بل غيب اللحظة المقبلة عليه الآن، والتي لا يعرف كنهها وكنهه ما يجري فيها حتى تقع بالفعل⁰

ويجزه عجزه عن استكناه الغيب إلى مقارنة فطرية مع القوة التي تعلم الغيب، لأنه مكشوف لها غير خاف عليها منه شيء. بل التي تعلم الغيب لأنها هي التي تصنع الغيب⁰⁰

ثم يهتدى، فيعلم أنه الله، عالم الغيب والشهادة، أو ينسبه لآلهة مزعومة أو يغمض عينيه ويغلق حسه ويعيش كالأنعام!

تلك مفاتيح فطرية⁰⁰ أو دعها الله في الفطرة لتتعرف على الله⁰⁰

وقد نظن أحياناً أن هذه الأسئلة الفطرية التي تفرض نفسها على الحس البشرى، لا تجيء إلا في فترة النضوج والوعى، ولكن الحقيقة غير ذلك⁰

إن الطفل الصغير تبدأ هذه الأمور تخطر على حسه في مراحل مبكرة جداً، أكثر تبكيراً مما نحسب!

إنه في فترة باكراً، منذ بداية الوعي، يظل يسأل والديه ومن حوله أسئلة ذات دلالة واضحة، حين يسألهم عن أمور لا إجابة لها في الحقيقة إلا إجابة واحدة: إنه الله 0 وإنه صنع الله!

حين يسأل: لماذا تطلع الشمس بالنهار ولا تطلع بالليل؟

لماذا يكون ورق الشجر أخضر؟

لماذا لا يكبر هو بسرعة فيصبح كأبيه في الطول؟

لماذا كان ريش هذا الطائر ملونا والآخر غير ملون؟

كيف يتزل المطر من السماء؟

كيف ينبت الزرع؟

وعشرات من الأسئلة ومئات، يضيق بها الأبوان أحياناً، ويعجزان عن إعطاء إجابة تقنع ذلك الصغير الذى لا يكف عن السؤال، بينما مداركه لا تستوعب الجواب!

إنه بدء تيقظ الفطرة لتبحث عن الله!

وقد لا يدرك الطفل دلالة أسئلته.. لكننا نحن ينبغي أن ندرك أنها أسئلة الفطرة، التى تتوجه بها – فطرياً – للتعرف على الله 0

ولكن الحس البشرى عرضة أن يتبدل على المنظر المكرور، والحدث المكرور، فلا تعود إيقاعات الكون تجد استجابتها الفطرية فى النفس 00

لا الكون بضخامته المعجزة، ودقته المعجزة، ولا ظاهرة الموت الحياة، ولا ظاهرة الحركة : حركة الأشياء والأحداث، ولا ظاهرة العجز البشرى، ولا ظاهرة العجز عن استكناه الغيب 00

عندئذ يفقد الإنسان شفافيته التي خلقها الله في كيانه، ويفقد بالتالي سمته التي جعلته إنساناً، وميزته عن الحيوان، فيصبح من الذين جاء فيهم هذا الوصف القرآني:

((لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))⁽¹⁾0

فيأتي القرآن ليوقظ القلوب، ويفتح الأعين، ويزيل الوقر من الآذان، فتتفتح جميعاً للإيقاعات التي يرسلها الكون إلى الحس⁰ فتحيا النفوس بعد موت، وتستيقظ بعد الغفلة⁰⁰ وتتوجه إلى الله⁰

((والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم(163) إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون))⁽²⁾0

لوحة عريضة واسعة حافلة بالحوية والحركة، والإيحاءات والدلالات⁰⁰

إنها مشاهد معروضة أمام الحس البشري، ولكن الحس يتبدل أحيانا فيغفل عما فيها من الإيحاءات والدلالات، ويمر بها لا يكاد يعيرها اهتماماً. ولكن القرآن يحيي المشهد بأسلوبه الفريد، فينتفض حياً متحركاً، فيلتقط الوجدان ما يرسله من الإشارات⁰

إن السموات والأرض المذكورة في الآية ليست هي ذلك المشهد المكرور المؤلف الذي كان يراه الإنسان فلا يتحرك له، ولا يهتز له وجدانه، فيغفل عن الحقيقة الكبرى الكامنة فيه، وهي أن السموات والأرض مخلوقتان، وأن الله هو الخالق!

إن الحس المتبدل يراهما موجودتين دائماً أمامه، فيغفل وينسى!

¹ سورة الأعراف : 179 0

² سورة البقرة : 163 ، 164 0

ولكن السياق القرآني يوقظه من أول لفظة إلى الحقيقة المنسية 00

((إن في خلق السموات والأرض..)) فهما ليستا موجودتين من ذات نفسيهما، ولا هما أزلتان. إنما هما مخلوقتان، أى أهما لم تكونا موجودتين ثم وجدتا..

وهى حقيقة هائلة، تترتب عليها - أو يجب أن تترتب عليها - حقائق أخرى 0

فأما الجاهلية العربية فقد كانت تقر أن الله هو الذى خلق السموات والأرض:

((ولئن سألتهم من خلق السموات ليقولن الله))¹. ولكنها لم تكن ترتب على هذه الحقيقة

مقتضاها الطبيعي المباشر، وهى أن الإله الذى خلق هو الحقيق بالعبادة وحده بلا شريك 0

وأما الجاهلية المعاصرة - وهى أذكى من الجاهلية العربية من ناحية، وأغنى منها من ناحية أخرى - فقد أدركت أن هذه القضية ذات شأن كبير، وأنها إحدى قضايا الوجود الرئيسة. وأدركت أنها إن أقرت بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض فقد لزمها أن تعبد، وتخلص له العبادة، وهى لا تريد - كبرا وعنادا وغطرسة وانطماس بصيرة - فنفت أن الله هو الخالق، وراحت تتخبط على غير هدى. تقول مرة إن الكون قد وجد من ذات نفسه بغير موجد، وتارة أخرى تردد قولة دارون الحمقاء: الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق!

كلتاها جاهلية! وكلتاها فى حاجة إلى هداية الله!

ونعود إلى الآية القرآنية نستلهمها إشارتها الدافقة، وحقائقها ذات الدلالة 00

إن خلق السموات والأرض قد نشأت عنه حركة معينة فى هذا الكون، هى اختلاف الليل

والنهار 00

ولئن كانت الحقيقة الأولى تنفذ إلى النفوس الواعية من أحد منافذها الكبرى، وهى الضخامة المعجزة فى هذا الكون وما يدل عليه ذلك من عظمة الخالق، الذى يخلق تلك الأجرام الهائلة المبتوثة فى السموات، فإن الحقيقة الثانية - وهى اختلاف الليل والنهار - لتنفذ إلى النفوس الواعية من منفذين فى

¹ سورة لقمان : 25

آن واحد : منفذ الحركة – حركة الأحداث في هذا الكون – ومنفذ الدقة المعجزة في خلق الكون. فإن انتظام الأفلاك، الذى ينشأ منه تعاقب الليل والنهار له دلالاته الخاصة، المضافة إلى القدرة على الخلق، وهى القدرة على التنظيم الدقيق لهذا الكون، بحيث لا يختل مرة، فيكون فيه نهار بلا ليل، أو ليل بلا نهار. وتلك دلالة أخرى على عظمة الخالق وأنه متفرد بهذه العظمة لا يشاركه فيها أحد في الوجود كله 0

وتمضى الآية تعدد آيات القدرة الربانية 00

((والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس..)) 0

إن الفلك التى تجرى فى البحر هى من صنع البشر فى ظاهر الأمر. ولكنها ما كانت لتوجد لولا الخواص التى أودعها الله فى الماء من ناحية، وفى المواد التى تصنع منها الفلك من ناحية أخرى، والتى تتجعل الفلك محمولة على الماء لا تغوص فيه. ولذلك يمن الله على البشر فى موضع آخر (فى سورة يس) فيقول : ((وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون(41) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون))⁽¹⁾ 00 فالإنسان – وكل ما يعمل – هو من خلق الله من ناحية، وكذلك فإن الخواص المودعة فى المادة، والتى تجعل فى إمكان البشر أن يصنعوا الفلك التى تجرى فى البحر، هى من خلق الله، ولولا خلق الله لها ما استطاع الإنسان أن يصنعها 0

والآية لا تشير فقط إلى جريان الفلك فى البحر، الذى ينفذ إلى النفس من منفذ الحركة – وهى من الأمور التى تلفت الحس البشرى بشدة وتوقظه من غفلته – ولكنها تنفذ من منفذ آخر هو ((المصلحة))! فإنها تجرى فى البحر بما ينفع الناس. وهذا يذكرهم بفضل الله عليهم. فالأشياء التى تنفع الناس هى من خلق الله، وحملها فى الفلك حتى تصل إلى الناس هو كذلك من خلق الله. فهو فضل مزدوج يستحق من العباد أن يشكروا ربه عليه، لا أن يجحدوه ويعبدوا سواه 0

ونقلة أخرى نقلنا إلى مشهد آخر 0

((وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة))

إنها إشارات متواكبة متوالية تقرع الحس بشدة لتلفتته إلى ما كان غافلا نه 00

فإنزال الماء من السماء آية، وإحياء الأرض الميتة بهذا الماء آية، وبث الدواب في الأرض بعد إحيائها بالماء آية 00 وكلها آيات تنفذ إلى النفس من منافذ شتى في آن واحد . من منفذ الدقة المعجزة في الكون، ومن منفذ الحركة المتدفقة، بالإضافة إلى القدرة على الخلق، فتتواكب الآيات لتتهز الوجدان، وتنفض عنه غفلته إن كان من الغافلين 00

وحين يتبدل الحس فإنه يرى المشاهد كلها يمر عليها في بلادة كأنها غير موجودة.. أما حين يعرضها النص القرآني على هذه الصورة، فهل يملك الحس أن يفلت من تأثيرها أو يتجاهلها، إلا أن يكون حسا مغلقا في قلب مريض!؟

فالمطر لا يتزل من تلقاء نفسه! إنما هو مخلوق من مخلوقات الله يخضع لأمره، ويسير حسب سننه، ولو شاء الله لجعله على صورة أخرى فلا يملك البشر أن ينتفعوا به :

((أفأنتم الماء الذى تشربون(68) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون() لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون))⁽¹⁾ 0

وإحياء الأرض الميتة بالماء لا يحدث من تلقاء نفسه! فلولا خاصية أودعها الله في الماء، وخاصية أودعها في الأرض، ما أنبتت حين يتزل عليها الماء :

((وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج))⁽²⁾ 0

ولا تقتصر قدرة الله على إحياء الأرض بالماء فحسب، وهى فى ذاتها قدرة معجزة، ولكن الله القادر، الرزاق الوهاب، يبت فى تلك الأرض بعد إحيائها ألوانا شتى من الدواب، تأتى لتأكل ما أنبتت الأرض، ويتضاعف بها الرزق للإنسان، فالماء رزق، والنبات رزق والدواب التى تأكل النبات رزق. كله من خلق الله، وكله فضل يتفضل الله به على العباد .. أفيحق للإنسان بعد ذلك أن يعبد من دون الله ما لا يخلق ولا يرزق ولا يضر ولا ينفع؟

وتستمر الآية تعرض معجزات القدرة معجزات الخلق 00

¹ سورة الواقعة : 68 – 70 0

² سورة الحج : 5

((وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض))

إن الرياح آية من آيات الله.. إنها لا تتحرك من ذات نفسها! إنما الله هو الذى ((يصرفها)).. هو الذى يحدد لها وجهتها ومسارها00

وقد عرفت الجاهلية المعاصرة ((القوانين)) التى تحكم حركة الرياح، ولكنها غفلت عن خالق الرياح، وخالقت تلك ((القوانين)) التى تسيرها.. ومع ذلك فالرياح لا تسير دائما حسب ما يتخيلون من حركتها بحسب تلك القوانين، فهى تفاجئهم بين الحين والحين مفاجآت لا تعليل لها عندهم.. ولا تعليل لها فى الحقيقة إلا مشيئة الله!

والسحاب كذلك من آيات الله.. سواء تعليقه بين السماء والأرض، أو ((تسخيره)) ليقوم بالمهام التى خلقها الله من أجله0

وفى آية واحدة من سورة واحدة يتم هذا الحشد الهائل من الإيقاعات التى يتلقها القلب البشرى فلا يملك ألا يتأثر بها، ولا يملك - فى حالته السوية - ألا يستجيب0

وكلها مشاهد يراها الإنسان على الدوام معروضة أمامه، ولكنه فى أحواله العادية قد لا يفكر فيها ولا يتدبرها، أو قد ينسبها فى غفلته - كما تصنع الجاهلية المعاصرة - إلى ((الطبيعة))! فلا تؤدى فى حسه ما ينبغى أن تؤديه من إيقاظ الفطرة إلى حقائق الوجود، وبالذات إلى الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود: حقيقة الألوهية، وحقيقة القدرة المعجزة التى أوجدت هذا الكون كله، وأجرت فيه ما أجرت من أحداث وأمور0

ولكن السياق القرآنى يزيل هذه الغفلة بأكثر من وسيلة0

فهو بادئ ذى بدء يرد الأمور كلها، ويرد الخلق كله، إلى مصدره الحقيقى، إلى الله الذى خلق كل شىء، ويدبر كل شىء.. إلى الله الذى لا إله غيره: ((والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم))⁽¹⁾0

ثم هو ييث الحركة في المشاهد التي يعرضها، فلا تصل إلى الحس ساكنة خامدة، كالمعلومات الذهنية التي تسكن في الذهن ولا تحرك الوجدان. إنما تصل في تتابع حى متحرك، يجعل الخيال يتابع حركتها واحدة إثر الأخرى، حتى ينتهى عرض الشريط بالكامل، والخيال هو الرسول إلى الوجدان، يحركه من مكمنه، فينفع بالحدث أو المشهد، فيصبح الحدث أو المشهد جزءاً من محتوى النفس، يؤثر فيها من داخلها، وليس شيئاً خارجاً عنها تملك ألا تلتفت إليه أو تنصرف عنه!

ثم يأتى الإعجاز البيانى فيشارك في التأثير، حين يرسم بالألفاظ لوحة كاملة، حية متحركة، بتملاها الخيال وينفعل بها الوجدان، كأنما هى صور متحركة لا مجرد ألفاظ⁰

وتتوأكب التأثيرات كلها لتؤدى الهدف المطلوب، وهو إيقاظ القلب الغافل ليتوجه إلى الله⁰⁰

* * *

ولكن التأثير عرضة لأن يخفت بعد حين، وتبرد حرارته في الحس، نتيجة اشغال الإنسان في حياته الدنيا بأمر كثيرة تتعلق بحياته على الأرض، سواء كانت بحثاً عن الرزق في مناكب الأرض، أو ((استمتاعاً)) ن بشىء من متاع الحياة الدنيا: ((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحراث ذلك متاع الحياة الدنيا⁰⁰))⁽¹⁾

ويحتاج الإنسان دائماً إلى التذكير ، وإعادة التذكير⁰⁰

ولو ذكرناه بذات النص الذى أثار انفعاله من قبل، فلن يكون له في حسه في المرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ما كان له في أول مرة، فمن طبيعة الإنسان إزاء الشىء المكرور أن يقل إحساسه به في كل مرة عن سابقتها، حتى يمر به يوماً فلا يحس به، كأنه غير موجود!

والخالق العليم الخبير يعلم منه ذلك! ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))⁽²⁾

لذلك يذكره - في كل مرة - بنص مختلف عن سابقه!

¹ سورة آل عمران : 14

² سورة الملك : 14 .

وتختلف النصوص بعضها عن بعض أنواعا مختلفة من الاختلاف. مرة في ترتيب المعروضات في النص فيحدث فيها تقديم وتأخير. ومرة بالتفصيل في بعض الجزئيات والإجمال في بعضها الآخر، ومرة في ((الجو النفسى)) الذى تعرض فيه ما بين جو الرضا وجو الغضب، وجو الترغيب وجو الترهيب، مما أشرنا إلى بعضه في الفصل السابق، ووعدنا بمزيد من الحديث عنه في هذا الفصل والذى يليه⁰

وخذا مثلا النص الذى ذكرناه آنفا، وراجع ((المعلومات)) الواردة فيه: إنها خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر، والماء النازل من السماء ليحيى الأرض، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض⁰

وانظر فى كل واحدة من هذه ((المعلومات)) كيف ترد فى نصوص أخرى⁰⁰

خذ خلق السموات والأرض (ومعها فى أحيان كثيرة اختلاف الليل والنهار):

((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب(190) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار))⁽¹⁾⁰

((ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد⁽²⁾) وما ذلك على الله بعزيز))⁽³⁾⁰

((وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون))⁽⁴⁾⁰

((أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون))⁽⁵⁾⁰

¹ آل عمران : 190 ، 191 0

² سورة هود : 7

³ سورة إبراهيم : 19 ، 20 0

⁴ سورة الجاثية : 22 0

⁵ سورة الروم : 8

((الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون(4) يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون(5) ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم))⁽¹⁾0

((ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين(11) فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم))⁽²⁾0

* * *

كل نص من هؤلاء – والنصوص غيرها كثير – يذكر السموات والأرض فى معرض مختلف عن الآخر 0

ففى النص الأول (من سورة آل عمران) يصف أولى الألباب بأنهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض، فينتهى بهم التفكير إلى أن الحياة الدنيا ليست هى نهاية المطاف، وأن هناك بعثاً ونشوراً، وجنة وناراً، فيتوجهون إلى الله أن يقيهم عذاب النار 0

وفى النص الثانى (من سورة هود) يذكر الهدف من خلق السموات والأرض ((ليلوكم أيكم أحسن عملاً)) 0

وفى النص الثالث (من سورة إبراهيم) يذكر خلق السموات والأرض فى جو التهديد للكافرين بأن الذى فى قدرته أن يخلق تلك السموات والأرض قادر على أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد 0

وفى النص الرابع (من سورة الجاثية) يذكر خلق السموات والأرض بالحق، ويترتب عليه جزاء كل نفس بما كسبت دون ظلم يقع على أحد 0

¹ سورة السجدة : 4-6

² سورة فصلت : 11،12

وفي النص الخامس (من سورة الروم) يذكر إلى جانب خلق السموات والأرض بالخلق أنها موجودة إلى أجل مسمى ، هو يوم القيامة، ويذكر إلى جانب ذلك أن كثيرا من الناس يكفرون بقاء الله في ذلك الأجل المسمى 0

وفي النص السادس (من سورة السجدة) يذكر إلى جانب خلق السموات والأرض، الدال على تفرد الله بالخلق، وقدرته التي لا تحد، نفى الشفاعة عن الآلهة المزعومة التي لا حول لها ولا طول. ثم يذكر أمر آخر: أن الأمر يتنزل من السماء إلى الأرض ثم يعرج إلى الله مرة أخرى فيما يوازي ألف سنة مما يعد البشر، مما يدل على سعة الكون، وقدره الله المعجزة التي تخلق كونا واسعا بهذا القدر.

وفي النص السابع (من سورة فصلت) معلومات جديدة عن خلق السموات والأرض، أنهما مسخرتان بأمر الله لا تحيدان عن أمره، وأن السماء كانت في منشأ أمرها دخانا. وأن الله خلق من هذا الدخان سبع سموات، ثم أوحى في كل سماء ما هي مخلوقة من أجله، وأمرها الذي قدر لها أن تسير عليه. وأنه زين السماء الدنيا بمصابيح - هي الشمس والقمر والنجوم - وأن بعض ما تشتمل عليه - وهو الشهب - من مهامه حفظ السماء من محاولات الشياطين استراق السمع والاطلاع على الغيب 00

وهكذا يتجدد العرض في كل مرة، ويكون لخلق السموات والأرض في كل مرة شأن غير شأنها السابق في النص الآخر، فيتجدد المشهد، ويتجدد التأثير ، ويتنفي التكرار الذي يؤدي إلى تبدل الحس على المشهد المكرور!

وخذ الجزئية الخاصة باختلاف الليل والنهار 00 إنها ليست صورة واحدة ولكنها صور شتى:

((تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل 00))¹

((يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا 00))²

((وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون))³

¹ سورة آل عمران : 27

² سورة الأعراف : 54

³ سورة يس : 37

((قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون(71) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون(72) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون))⁽¹⁾0

((وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئء فصلناه تفصيلاً))⁽²⁾0

فأنت مع الليل والنهار في جميع هذه الآيات - وكثير أمثالها - ولكنك في كل مرة في معرض غير الآخر وفي مشهد غير الآخر - ففي الآية الأولى أنت مع عملية متدرجة يدخل فيها الليل في النهار في رويدا رويدا، ويدخل النهار في الليل كذلك بالتدرج. ولكنك في الآية الثانية مع مشهد مختلف فالليل يغشى النهار ولكن في حركة تشبه السباق أو الملاحقة؛ فالليل يلاحق النهار ليدركه أو يسبقه، ولكنه يظل في طلبه في حركة دائبة لا تنتهي، وهذا يمثل دوران الليل والنهار على سطح الكرة الأرضية. بينما كان المشهد في الآية الأولى يمثل بقعة واحدة منها، في اللحظات التي يتداخل فيها الليل والنهار ثم تنتهي بدخول أحدهما في الآخر واختفاء الأول من المشهد. وفي الآية الثالثة مشهد مختلف تماماً عن المشاهد الأخرى كلها التي يرد فيها ذكر الليل والنهار ثم تنتهي بدخول أحدهما في الآخر واختفاء الأول من المشهد. وفي الآية الثالثة مشهد مختلف تماماً عن المشاهد الأخرى كلها التي يرد فيها ذكر الليل والنهار، يناسب جو الغضب الذي ينصب في السورة على الكافرين المعاندين، وهو مشهد ((سلخ)) النهار من الليل، فإذا النور يختفي فجأة والليل يسوده الظلام⁽³⁾. أما الآية الرابعة فهي تخيل مشهداً غير موجود في الحقيقة وهو النهار السرمدي الذي لا يتلو ليل، والليل السرمدي الذي لا يتلوه نهار، والذي يعرض لبيان فضل الله ورحمته بالناس، الذي جعل الليل والنهار خلفاً، يخلف أحدهما الآخر، فيتيح للناس فترة للعمل والنشاط، وفترة للسكون والراحة. ولولا ذلك لتحولت الحياة إلى عذاب دائم، سواء في الليل السرمدي الذي لا ضياء فيه، أو النهار السرمدي الذي لا سكن فيه. وأما الآية الخامسة فتعرض مشهداً مختلفاً فالليل والنهار آيتان، ولكن آية الليل محيت! وهذا تصوير لكون الليل مظلماً من ذات نفسه، إنما هو صار

¹ سورة القصص : 71 - 73 0

² سورة الإسراء : 12 0

³ راجع ما قلناه عن هذا المشهد في الفصل السابق 0

هكذا لأن الله الخالق ((محاه))، بينما جعل الله النهار مبصرا.. جعله .. فهو ليس منيرا من ذات نفسه، ولكن يجعل الله له على هذه الصورة. وفي ذلك تذكير بأن الأشياء كلها تأخذ وضعها الذى هى عليه بتقدير الله وتدييره، وليس من ذات نفسها كما يبدو للإنسان حين يغفل عن الحقيقة الكبرى، وهى أن الله خالق كل شىء، ومعطى كل شىء هيئته التى هى عليه، لا بحتمية مادية، ولا بحتمية تاريخية كما يزعم التفسير المادى، وأن الهيئة التى عليها كل شىء ليست هى الصورة الوحيدة التى كان يمكن - نظريا - أن تكون عليها - وإنما هى الهيئة التى اختارها الله لها بحكمته ومشيئته وعلمه : ((.. ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى))⁽¹⁾0

أما الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، فهى كذلك ترد فى مناسبات شتى، ولأهداف مختلفة :

((وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره))⁽²⁾0

((ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام(32) أن يشاء يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره أن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور(33) أو يوبقهن بما كسبوا))⁽³⁾0

((حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ریح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين(22) فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق))⁽⁴⁾0

((وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون))⁽⁵⁾0

((والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون(12) لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين(13) وإنا إلى ربنا لمنقلبون))⁽¹⁾0

¹ سورة طه : 50

² سورة إبراهيم : 32

³ سورة الشورى : 32-34

⁴ سورة يونس : 22 ، 23

⁵ سورة النحل : 14

فأنت في تلك النصوص كلها- وغيرها كثير- مع الفلك 0 ولكنك معها في كل مرة في مشهد مختلف، له في كل مرة تأثير في النفس مختلف 0 فأنت في الآية الأولى مع حقيقة من حقائق الألوهية وحقائق الوجود، وهي تسخير الله للفلك لتجرى في البحر بأمره 0 وهي من الحقائق الكثيرة التي يغفل الحس عنها حين يغفل عن الدلالات الكامنة في كل شئ في الوجود 0 فلو لا ((التسخير)) من عند الله ما جرت الفلك في البحر مهما حاول البشر 0 فهم لا ينشئون شيئاً من عند أنفسهم، لا المادة التي تصنع منها الفلك، ولا ((القوانين)) (أو فلنقل السنن الربانية) التي جعلها تجرى في البحر 0 ثم إنها في كل مرة تجرى ((بأمر الله)) ولو لم يصدر الله لها الأمر ما جرت: ((إنا كل شئ خلقناه بقدر)) 0⁽²⁾

وأنت في الآية الثانية مع سنة أخرى من سنن الله في الكون، وهي إجراء الرياح التي تدفع الفلك في البحر فتجرى، وكان يمكن أن يجعل الله الرياح ساكنة فلا تجرى الفلك 0 والإشارة بالطبع هي إلى الفلك الشراعية التي كانت تعتمد على الرياح 0 ولقد يظن الإنسان في الجاهلية المعاصرة أنه قد تغلب على أمر الله، واستغنى عن الرياح فلم يعد يعتمد عليها في تسيير السفن العملاقة التي تمخر العباب! ومثل هذا الإنسان- في جاهليته- يغفل عن أن تلك السفن تمخر العباب بسنة من سنن الله، علمها الله للإنسان، ولو لا أن الله علمها للإنسان، وسخر له الطاقة التي يعمل بها ما تم له شئ مما قام بعمله 0 ومع ذلك، فالآية الثانية تدركه وهو في أوج انتفاحه وغروره وقوله كما قال قارون من قبل: ((إنما أوتيته على علم عندى)) 0⁽³⁾ فتقول له أن الله قادر- إذا شاء- أن يهلك تلك السفن عقاباً لأهلها 00 وكم من سفينة جبارة ظن أهلها أنهم قادرون عليها، فأوبقها الله بقدرته 0 ليفيئ الإنسان من غروره، ويعلم أنه يعمل كل شئ بتسخير من الله، لا بعلمه الذاتي، ولا بقدرة ذاتية غير مستمدة من عند الله 0

وأنت في الآية الثالثة مع حالة من الحالات التي تعرض للإنسان في مجرى حياته حين يكون بعيداً عن الهدى الرباني 0 فهو في ساعة الشدة وساعة الخطر يلجأ إلى الله، وينكشف الغطاء، ويوقن الإنسان ألا ملجأ من إلا إليه، فيتوجه إليه بالضراعة، واعدأً أنه إذا أنجاه الله من الكرب فسيكون من الشاكرين!

¹ سورة الزحرف : 12 - 14

² سورة القمر : 49

³ سورة القصص : 78

فإذا قدر الله له النجاة فسرعان ما ينسى الخطر والشدة ويقول في غفلته: ((ذهب السيئات عني))! (1) 0
فينسى وعده أو يتناساه، ويلج فيما كان غارقاً فيه من الغواية: ((إنه لفرح فخور)) (2) 00

وأنت في الآية الرابعة في معرض أنعم الله على الإنسان، التي ينساها الإنسان في غفلته، ويذكره القرآن بما ليشكر الله على نعمه 0 ويأتي من بين هذه النعم جريان الفلك في البحر، وابتغاء الناس من فضله عن هذا الطريق 0 إشارة إلى ما تقوم به السفن من حمل الأرزاق من مكان إلى مكان 0

وفي الآية الخامسة توجيه في الاتجاه نفسه - وهو وجوب شكر الله على نعمه وأفضاله - ولكنه يأخذ صورة مختلفة، فهو يصور استواء الناس على ما سخر الله لهم من أدوات الركوب، سواء كانت من الأنعام التي سخرها الله للسفر في البر، أو من السفن التي سخرها للسفر في البحر، مع تلقيهم صورة معينة لشكر الله على هذه النعمة بالذات، وهي أن يقولوا حين يستون على ظهر الدابة أو على ظهر الفلك: ((سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (13) وإنا إلى ربنا لمنقلبون)) 0 وبذلك يشكرون الله على النعمة، ويذكرون أنفسهم أنهم حيثما ذهبوا فهم في ملك الله، وفي سلطان الله، وأهم في النهاية راجعون إلى الله 0

وهي كما ترى أجواء مختلفة، وحالات مختلفة، يتم من خلالها توجيه القلب البشري إلى الله 0

وأما الماء النازل من السماء، فله كذلك مجالاته المختلفة، وتوجيهاته المختلفة 0

((وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)) (3) 0

((وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين)) (4) 0

((ألم ر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب)) (1)

¹ سورة هود: 10

² سورة هود: 10

³ سورة الأنعام: 99

⁴ سورة الحجر: 22

((هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون(10) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون))⁽²⁾0

((الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون(48) وإن كانوا من قبل يتزل عليه من قبله لمبلسين(49) فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شئ قدير))⁽³⁾0

ففى الآية الأولى، يذكر ظاهرة الإنبات التى تنشأ عن نزول الماء من السماء، ولكن السياق يحوى فى داخله إشارات مختلفة، كلها يخدم الهدف الأخير من إيراد هذه الآيات كلها: ((إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون))، أى أنها دعوة للإيمان الصحيح، الإيمان بالله وحده بلا شريك. وقد أشرنا إلى هذه الآية بالذات فى الفصل السابق، فى معرض الحديث عن التنوع، وذكرنا كيف يدل السياق على التنوع باللفظ المباشر، ثم بتنوع الأسلوب ذاته، ليعطى جو التنوع بالإيجاء، بالإضافة إلى الذكر الصريح.. ويلفت النظر هنا أن السياق لم يدخل إلى الوجدان من باب ((المصلحة)) أى من باب ((الفوائد)) التى يجنيها الإنسان من نزول المطر، ولكن من باب ((الجمال)).. ((انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه))⁽⁴⁾! فقد خلق الله الكون جميلاً، وخلق فى الإنسان حاسة تتذوق الجمال وتعجب به. ومن خلال هذه الحاسة يوقظ الوجدان، ليتعرف على قدرة الله وعظمته، ليتوجه له بالعبادة. فللجمال فى الكون، وللإحساس به عند البشر هدف مقصود: أن يتعرف الناس على ربهم تعرفاً شاملاً يشمل كل الجوانب، ولا يغادر جانباً لا يلم به. فانظر إلى الإنسان المؤمن كيف يكون الجمال فى الكون دعوة له لعبادة الله، والإنسان الجاهلى يتخذ الجمال فتنة فيعبده من دون الله! أو ينحرف به عن العبادة الحقه لله!

وفى الآية الثانية يشير إلى ثلاثة أمور كونية فى آن واحد: الأمر الأول هو الرياح ((اللواحق)) التى تكثف السحاب وتدفعه فيترل منه الماء. والأمر الثانى هو سقيا البشر من هذا الماء، وهو أمر تتوقف حياتهم عليه. والأمر الثالث هو عجز البشر عن اختزان هذا الماء، ولقيد بيدون لإنسان الجاهلية المعاصرة

¹ سورة الزمر : 21

² سورة النحل : 10-11

³ سورة الروم : 48-50

⁴ سورة الأنعام : 99

أن هذا الأمر الأخير لم يعد وارداً بعد تمكن الإنسان من إنشاء الخزانات الضخمة التي تحتزن الماء! وأن الإنسان قد توصل بعلمه وقدرته إلى أن يشارك الله في قدرته! وحقيقة، إن الله قد علم الإنسان ومكنه من تخزين بعض ما يجريه الله من المطر في صورة أثمار. ولكن الجزء الأكبر من الأمطار التي تتزل على الأرض إما ذاهب إلى البحار والمحيطات، وإما متبخر بفعل حرارة الشمس، وإما متسرب إلى باطن الأرض، وكله ينطبق عليه النص: ((وما أنتم له بخازين))⁽¹⁾!

وفي الآية الثالثة أشار إلى الماء الذي يتسرب إلى باطن الأرض ثم يخرج على هيئة ينابيع، تسقى الأرض فيخرج منها زرع مختلف ألوانه.. وذلك في معرض تذكير الناس، بمآل المتاع الأرضي، ((ثم يصير حطاماً)) لكي لا تفتنهم الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، ونعيم خالد أو شقاء⁰

وفي النص الرابع يشير إلى السقيا وإنبات الزرع، وإلى معجزة الخلق، التي تخلق الأنواع كلها التي تسقى بماء واحد، فتخرج مختلفة الأشكال والألوان والطعم والمذاق⁰

وفي النص الخامس يذكر برحمة الله التي تتزل الغيث على الناس بعد ما يكونون قد قنطوا من انقطاع المطر وأصابتهم الشدة من الجفاف، وذلك في معرض تذكيرهم بأن الذي يحيي الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى، وهو ما كان المشركون يستبعدونه تماماً ويرونه مستحيلاً.. فيقربه إليهم بقياسه إلى ما يرونه أمامهم من آيات القدرة الربانية، وأنه لا فرق - من حيث القدرة - بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى، فالذي يقدر على هذه يقدر على تلك⁰

وفي الآيات كهلاً أنت مع الماء النازل من السماء، ولكنك في كل مرة مع مشهد مختلف، وتوجيه مختلف!

يأتي في آية البقرة (164) بعد ذلك تصريح الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض. ونكتفى بشأن الرياح بالنماذج السابقة التي ورد فيها ذكر الرياح اللواقح، والريح الطيبة، والريح العاصفة، والريح الساكنة، وإن كانت النماذج في كتاب الله كثيرة. ومنتقل الآن إلى السحاب المسخر بين السماء والأرض:

((ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ويتزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار))⁽¹⁾0

((هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال(12) ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال))⁽²⁾0

((أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكذبها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور))⁽³⁾0

((الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله))⁽⁴⁾0

((والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها))⁽⁵⁾0

فى الآفة الأولى يصف الله سبحانه وتعالى كيفية تكون السحاب التراكمى بمراحله المختلفة، وذلك فى وقت لم يكن أحد قد صعد إلى الأجواء العليا ولا علم شيئاً عن تراكم السحاب. وذلك أمر سنشير إليه مرة أخرى فى حديثنا عن الإعجاز العلمى⁰

وفى النص الثانى يجرى ذكر السحاب مع ما يصحبه من رعد وبرق وصواعق، فى معرض القدرة الإلهية من ناحية، وجدال الكفار حول الألوهية من جهة أخرى، لبيان تهاافت هذا الجدل وقيامه على غير أساس⁰

وفى الآفة الثالثة يجرى ذكر السحاب جزءاً من لوحة الظلام المطبق التى تحدثنا عنها فى الفصل الماضى، فى المواجهة الرائعة بين أنور نور وأظلم ظلام⁰

¹ سورة النور : 43

² سورة الرعد : 12، 13

³ سورة النور : 40

⁴ سورة الروم : 48

⁵ سورة فاطر : 9

وفي الآيتين الرابعة والخامسة إشارة إلى إرسال الله للرياح فتثير السحاب الذي يصرفه الله كيف يشاء. ولكننا نلاحظ التنويع بين قوله تعالى في الآية الأولى : ((الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً..)) وقوله تعالى في الآية الأخرى: ((والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً..)). والاختلاف مقصود للتنويع كما أشرنا في الفصل السابق. ولكن الآية الأخيرة فيها إضافة أحدثها تغير زمن الفعل (مضارع في الأولى وماض في الثانية). فقوله تعالى: ((.. أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت)) تفيد أن من شأن إرسال الرياح أن تثير سحاباً. كأنما أو كل الله إلى الرياح أن تقوم بهذا الأمر، تكليفاً منه سبحانه وتعالى. فحين يرسل الله الرياح تقوم هي بما كلفها الله به، فتثير السحاب! وهذا وذاك من أمر الله وتدييره، ولكن التنويع يضيف إلى المشاهد غنى، ويجدد تأثيرها في النفس وإن تشابهت الألفاظ 00

* * *

ولقد كنا حتى هذه اللحظة في مناسبة نص واحد من النصوص القرآنية التي تعرض آيات الله في الكون، وهو قوله تعالى: ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون))¹. وتطرق بنا الحديث عن هذا النص الواحد إلى النماذج المتعددة التي تتحدث عن المفردات الواردة في هذا النص الحاشد. ولكن هذا النص ليس هو الوحيد في كتاب الله في شموله لآيات عدة من آيات القدرة الربانية .. ولو ذهبنا نتبع كل النماذج لتشعب بنا الحديث أكثر. إنما أردنا فقط بإيراد هذا النص أن نفتح الباب للتأمل في تنوع المشاهد وتعددتها حتى وإن بدت لأول وهلة مكررة، وتعدد الأجواء التي تعرض فيها المشاهد، وكيف أنها تعطي في كل مرة تأثيراً مختلفاً في النفس، وإيقاعاً مختلفاً على أوتار القلب، فيظل القلب في تلق دائم لتلك الإيقاعات التي تجيئه من كل صوب، وتدخل إليه من كل مدخل، فلا يملك أن يتجاهلها أو ينصرف عن دلالتها 00

* * *

ولكن مداخل النفس كثيرة كما أسلفنا. وكل الأمثلة التي أشرنا إليها حتى الآن هي في مجال آيات الله في الكون، سواء من جهة الضخامة المعجزة في هذا الكون، أو الدقة المعجزة فيه. ولكن القدرة الربانية لها مجالات متعددة، وليست مجالاً واحداً. وكلها مؤثر. وكلها موقظ للفطرة، لا يدع لها مجالاً لأن تغفل عن الحقيقة العظمى في هذا الوجود، وهي حقيقة الألوهية⁰

وقد أشرنا من قبل إلى ظاهرة الموت والحياة، وقلنا إنها من أشد ما يوقظ الفطرة إلى حقيقة الألوهية، بعد الإعجاز البادى في الكون المادى سواء بضخامته أو دقته التي تروع الحس البشرى⁰ ونجد في المقابل - في كتاب الله - عناية واضحة بإبراز هذه الظاهرة، والدخول بها إلى أعماق القلب الإنسانى لتنهزه من أعماقه، وتوقظه من سباته.

فالله سبحانه وتعالى - بادئ ذى بدء- يصف نفسه بأنه ((الحى)) ((الحى القيوم)) ((الحى الذى لا يموت))..

ثم يصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه هو الحى المميت. وتتعدد مشاهد الإحياء والإماتة فتشمل البشر، والكائنات الحية الأخرى من الدواب والنبات، كما تشمل الأرض التى تكون ميتة فيحييها الله بالماء النازل من السماء، ويث فيها ألواناً مختلفة من الحياة، من دواب وزروع وأشجار⁰

ثم تركز النصوص القرآنية كثيراً على خاصية الإحياء - التى هى خاصية إلهية- لتثبت قدرة الله على إحياء البشر يوم القيامة بعد أن يكونوا قد أصبحوا عظاماً ورفاتا. وتأخذ هذه القضية حيزاً واسعاً في النصوص القرآنية في مقابل الإنكار الشديد الذى كان العرب المشركون يواجهون به قضية البعث والنشور والحساب والجزاء حتى قالوا كما حكى القرآن عنهم : ((هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد(7) أفترى على الله كذباً أم به جنة))¹

ويجئ التركيز على ظاهرة الإحياء والإماتة تارة بتعبير مباشر، وتارة في مشهد من مشاهد الحياة الدنيا، وتارة في مشهد من مشاهد القيامة، وفي جميع الأحوال نلاحظ التنويع الواضح في النصوص، كما

نلاحظ الإحاطة بالقلب البشرى من جميع منافذه فى هذه القضية كما فى غيرها من القضايا، بحيث لا يملك أن يفلت من التأثر إلا أن يكون الران قد علاه كالصدأ، فلم يعد يستجيب 0

ونأخذ الآن فى ذكر بعض الأمثلة لما قلناه، وهى غيظ من فيض 00

((هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين))⁽¹⁾ 0

((الله لا إله إلا هو الحى القيوم))⁽²⁾ 0

((وتوكل على الحى الذى لا يموت))⁽³⁾ 0

هذا فى باب تعريف الناس برهم .. أنه هو الحى بذاته سبحانه وتعالى. الحى الذى لا يستمد الحياة من غيرها، لأنه هو الحى القيوم. الحى الذى لا يدركه الفناء ولا الموت:

((كل شىء هالك إلا وجهه))⁽⁴⁾ 0

((كل من عليها فان) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام))⁽⁵⁾ 0

ولا يحتاج الحس البشرى إلى جهد ليدرك معنى هذه الخاصية من خواص الله سبحانه وتعالى. فهو يدرك بالممارسة الواقعية أن الكائنات كلها تموت، فإذا كان هناك من هو حى دائم الحياة، لا يموت أبداً، فهو الإله الذى ليس كمثل شىء، وهو الذى تتعين عبادته وحده بلا شريك، لأنه هو المتفرد بالحياة والدوام، كتفرده بالقدرة وبالتدبير 0

ثم يفرض القرآن فى الحديث عن الخاصية الأخرى التى يتفرد بها الله كذلك، وهى خاصية الإحياء والإماتة:

((يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى))⁽⁶⁾ 0

¹ سورة غافر : 65

² سورة البقرة : 255

³ سورة الفرقان : 58

⁴ سورة القصص : 88

⁵ سورة الرحمن : 26 ، 27

⁶ سورة يونس : 31 ، الروم : 19

((وآية لهم الأرض الميتة أحييناها00))0¹

((إنا نحن نجى ونميت وإلينا المصير))0²

((هو الذى يجيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون))0³

((له ملك السموات والأرض يجيى ويميت))0⁴

وهذا إخبار مباشر بأن الله يجيى ويميت، وأنه - وحده - هو الذى يجيى ويميت.

ولكن الأخبار يأتى أحيانا فى مشاهد معروضة لا فى تعبير مباشر :

((أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يجيى هذه الله بعد موتها فأما الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير(259) وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم))0⁵

((وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون(72) فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يجيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون))0⁶

((ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين(12) ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين(13) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين(14) ثم إنكم بعد ذلك لميتون(15) ثم إنكم يوم القيام تبعثون))0⁷

¹ سورة يس : 33

² سورة ق : 43

³ سورة غافر : 68

⁴ سورة الحديد : 2

⁵ سورة البقرة : 259 ، 260

⁶ سورة البقرة : 72 ، 73

⁷ سورة المؤمنون : 12 - 16

وفي هذا المثال الأخير يفصل الله أطوار الجنين، مما سنعود إليه في الحديث عن الإعجاز العلمى. ولكننا نشير هنا إلى أن هذه الأطوار يعبر عنها في آيات أخرى بأنها موت ثم حياة، في مثل قوله تعالى: ((كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون))⁽¹⁾ 0

كما يجئ ذكر الإحياء والإماتة في معرض التعبير عن قصر الحياة الدنيا وسرعة انقضائها في مثل هذا المشهد المؤثر: ((إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون))⁽²⁾ 0

وفي جميع الحالات، سواء كان التعبير مباشراً أو من خلال مشهد من المشاهد، فإن قضية الموت والحياة تأخذ حيزاً كبيراً في كتاب الله، لأن الله يعلم أنها قضية ذات شأن عميق في الحس البشرى، وأنها من موقظات الفطرة، التي توقظها لتتعرف على الله وتتوجه إليه 0

ولكن القضية تستخدم في كتاب الله الهدف آخر، بالإضافة إلى التأثير الوجداني الذي تحدثه في النفس، وتربط به القلب البشرى بالله. إنها تستخدم على نطاق واسع للتدليل على قدرة الله على بعث الموتى، ليحاسبوا على ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا من خير أو شر.. وكانت هذه القضية كما أسلفنا من أشد ما وقت بين المشركين وبين الإيمان بما أنزل إليهم من عند الله، وحسابه من الأساطير، أو من السحر، أو من الكذب الصراح!

((أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون(35) هيهات هيهات لما توعدون(36) إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين(37) إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين))⁽³⁾ 0

((وقالوا إن هذا إلا سحر مبين(15) أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون))⁽⁴⁾ 0

((ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً))⁽¹⁾ 0

¹ سورة البقرة : 28

² سورة يونس : 24

³ سورة المؤمنون : 35 - 38

⁴ سورة الصافات : 15 ، 16

((وقال الذين كفروا أنذا كنا ترابا وآباؤنا أنما لمخرجون(67) لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين))⁽²⁾0

((وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أنما لمبعوثون خلقا جديدا))⁽³⁾0

((وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم))⁽⁴⁾

((وقالوا أنذا ضللنا فى الأرض أنما لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون))⁽⁵⁾0

وكان رد القرآن عليهم غاية فى البساطة، وغاية فى الوضوح، وغاية فى استقامة المنطق، لولا أن الأمر فى حسهم كان أعجب من أن يصدقوه، واحتاج إلى التذكير المستمر، والمناقشة المستمرة، حتى استقر فى العقول والقلوب، وصار فى النهاية يقينا لا يقل فى قوته ووثاقته عن اليقين بوجود الله

كان الرد القرآنى الواضح البسيط: أن الذى خلق أول مرة لا يعجز عن إعادة الخلق، بل هو أهون عليه!

((وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم))⁽⁶⁾0

((أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم))⁽⁷⁾0

((وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم(78) قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم))⁽⁸⁾0

¹ سورة مريم : 66 0

² سورة النمل : 67 ، 68

³ سورة الإسراء : 49

⁴ سورة يس : 78

⁵ سورة السجدة : 10

⁶ سورة الروم : 27

⁷ سورة يس : 81

⁸ سورة يس : 78 ، 79

((قل كونوا حجارة أو حديدا(50) أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدها قل الذى فطرهم أول مرة))⁽¹⁾0

((أفبعينا بالخلق الأول بل هم فى لىس من خلق جديد))⁽²⁾0

هكذا كانت القضية فى غاية الوضوح. ولكنها - مع وضوحها - احتاجت إلى مجاهدة طويلة حتى استقرت. ذلك لأن حقيقة الخلق الأول - وهى الركيزة الرئيسة فى النقاش حول قضية البعث - لم تكن تحتل فى نفوس المشركين مساحتها الحقيقية التى ينبغى أن تأخذها. إنها أمر واقع، نعم! وهم لا ينكرونها: ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))⁽³⁾. ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))⁽⁴⁾. ولكنها حقيقة ميتة باردة فى حسهم، لا نبض فيها ولا إشعاع، لأن نفوسهم قد أكلها الصدا، وراى على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم تعد الأصداء الحقيقية لحقائق الوجود تصل إليهم، سواء من ناحية تفرد الله بالألوهية وما يقتضيه ذلك من إفراد الله بالعبادة، فلا يعبد غيره، أو من ناحية الإيمان بالبعث حين يخبرهم به الوحي المتزل، ويدلل لهم عليه بأن الذى خلق أول مرة قادر على إعادة الخلق.. ولو كانت قضية الخلق من العدم - التى ذكرهم بها مرات ومرات - تأخذ فى حسهم مساحتها الحقيقية، ما حتاجوا إلى كل ما احتاجوا إليه من نقاش حول قضية البعث، مهما كانت غرابتها عليهم فى الوهلة الأولى. فإن خلق أبسط الكائنات، فضلا عن الإنسان، فضلا عن السموات والأرض هو أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى. فإذا أقروا أن الله هو الخالق - كما كانوا يقرون بالفعل - فما وجه الإنكار بالنسبة للنشأة الثانية؟!

إنها الجاهلية! ولا شىء غير الجاهلية!

واعجب إن شئت للجاهلية المعاصرة - التى تدل على التاريخ كله بما أحرزته من ((العلم)) - تنكر وجود الله أصلا، وتنكر البعث كذلك، وتنكر كل ما لا تدركه الحواس.. لا لأسباب ((علمية)) ولكن لسبب وجدانى بحت، هو الهروب من إله الكنيسة الذى كانت الكنيسة تستعبد الناس باسمه، وتضيق عليهم، وتضطهدهم، وتطاردهم فى يقظتهم ومنامهم، وتفرض عليهم كل أنواع الطغيان:

¹ سورة الإسراء: 50، 51

² سورة ق: 15

³ سورة لقمان: 25

⁴ سورة الزخرف: 87

الروحي والمالي والسياسي والعقلي والعلمي.. فهربوا إلى إله لا كنيسة له ولا رجال دين، ولا دخل له بأعمال الناس في الأرض، يهيمون على وجوههم كالأنعام دون أن يحاسبهم على أعمالهم، وسموه ((الطبيعة)) ونسبوا إليه الخلق والتدبير، وإن كانوا نفوا عنه ((الحكمة)) فقال عنه دارون: ((الطبيعة تختبط

خبط عشواء!)) (Nature works haphazardly) 0

والجاهلية العربية لم تكن تنكر وجود الله، ولا أنه هو الخالق، ولا أنه هو مدبر الأمر، ولكنها – في جهالتها – كانت تشرك به آلهة أخرى. أما البعث فموقفها منه لا يختلف كثيرا عن موقف الجاهلية المعاصرة. فهو في جانب منه ناشئ من عدم الرغبة في أن يكون هناك رقيب يحاسبهم على أعمالهم، وينذرهم بالعقاب الأليم على ما يقترفون من تصرفات خاطئة في الحياة الدنيا، سواء كانت مظالم يمارسونها، أو شهوات يغرِقون في حماتها ولا يجبون أن يقلعوا عنها. ومن ثم ((يهربون)) من الموقف بنفي البعث أصلا، ونفى قدرة الله عليه، حتى يستريحوا من ذلك الخاطر المزعج، خاطر الحساب على ما يقترفون من أعمال، وينطلقوا مع شهواتهم بلا ضابط!

ومن قبل، قال قوم شعيب حين طالبهم نبههم بالاستقامة في البيع والشراء، وعدم إيقاع الظلم على الناس: ((أصلا تترك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد)) (1) 0

فاستهجنوا منه أن يطالبهم بشيء يضبط تصرفاتهم، ويجعل لها معياراً غير أهوائهم وشهواتهم، ورفضوا الدين كله الذي جاء به شعيب عليه السلام من أجل ذلك 0

كذلك استهجن مشركوا العرب دعوى البعث والنشور، والحساب والجزاء، كراهية لأن يحاسبوا، لا اعتمادا على ((منطق)) حقيقى يبرر إنكارهم 0

((بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم)) (2) 0

((إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه)) (3) 0

¹ سورة هود : 87

² سورة الروم : 29

³ سورة غافر : 56

((قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين(136) إن هذا إلا خلق الأولين(137) وما نحن بمعذبين))⁽¹⁾

والسبب الأول في ذلك بطبيعة الحال هو انطماس البصيرة، والغفلة التي تعطل حواس الهداية:

((لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))⁽²⁾ 0

((وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم(73) وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون))⁽³⁾ 0

نعم .. ولكن القرآن – المعجز – ظل يعالج هذه القلوب المنكرة النافرة، حتى آمنت بالله، وآمنت بالبعث والنشور، وتعمق الإيمان فيها حتى صنع ما يشبه المعجزات!

* * *

جريان الأحداث ، سواء في الكون المادى أو في حياة البشر، من الأمور التي تروع الحس البشرى كما أشرنا آنفاً، فيروح يبحث عن المحرك الذى يجرى الأحداث، كما يروح يتساءل عن دلالاتها: هل وراءها تدبير منظم. أم تحدث فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم تحدث بلا حكمة ولا هدف؟!

والقرآن – المتزل من لدن خالق الفطرة، ومودع ما أودع فيها من نوازع واتجاهات ومنسربات عميقة – يلتقى مع الفطرة، فيحدثها حديثاً مستفيضا عن حركة الأشياء وحركة الأحداث:

ولنعد إلى المثال الذى ذكرناه من قبل : ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون))⁽⁴⁾ 0

¹ سورة الشعراء : 136 – 138

² سورة الأعراف : 179

³ سورة المؤمنون : 73 ، 74

⁴ سورة البقرة : 164

إن المثال الواحد قد تكون له دلالات مختلفة؛ وإيقاعات مختلفة. فقد أوردنا هذا المثال من قبل لبيان طريقة القرآن في إحياء مشاهد الكون التي قد يتبدل عليها الحس بسبب الألفة الطويلة، فيعيدها القرآن جديدة، تصدر إشعاعها وإيقاعها، فيلتقطه القلب الغافل . والآن في مجال الحركة المؤثرة التي تحرك الوجدان ليتتبعها⁰⁰

ولكن المجال الذي نحن بصدده لا ينحصر في ذلك المثال، فمثله في القرآن كثير :

((الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار(32) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار(33) وآتاكم من كل ما سألتموه))⁰⁽¹⁾

((والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم(38) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم(39) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون))⁰⁽²⁾

((يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى))⁰⁽³⁾

((ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا))⁰⁽⁴⁾

((وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون))⁰⁽⁵⁾

وخذ نماذج من حركة الأحداث فى عالم البشر :

¹ سورة إبراهيم : 32 - 34

² سورة يس : 38 - 40

³ سورة الزمر : 5

⁴ سورة الفرقان : 45 ، 46

⁵ سورة النحل : 68 ، 69

((قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وترزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير))⁽¹⁾ 0

((الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير))⁽²⁾ 0

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون(44) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين))⁽³⁾ 0

((إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين(76) وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين(77) قال إن أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون(78) فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم(79) وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون(80) فحسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين(81) وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لحسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون(82) تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين))⁽⁴⁾ 0

((.. فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون))⁽⁵⁾ 0

¹ سورة آل عمران : 26

² سورة الروم : 54

³ سورة الأنعام : 44

⁴ سورة القصص : 76 - 83

⁵ سورة العنكبوت : 40

أما السؤال الذى يرد على الفطرة بشأن ما يحدث من أحداث فى الكون المادى وفى حياة الإنسان، فيجيب القرآن عليه إجابة مفصلة. وسنعود إلى هذه الإجابة بتفصيل أكبر عند الحديث عن الإعجاز التربوى. ولكننا هنا نورد لها لبيان أبعاد هذا الأمر فى مجال الدعوة إلى العقيدة الصحيحة⁰

إن القرآن يقول للناس ابتداء إن كل شىء يتم بقدر يقدره الله :

((إننا كل شىء خلقناه بقدر))¹0

وإن الله إذا أردنا شيئاً فأبنا يقول له كن فيكون:

((إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون))²0

ثم إنه لا مشيئة لأحد مع مشيئة الله:

((وما تشاءون إلا أن يشاء الله))³0

وإنه لا شىء يقف فى وجه المشيئة الربانية فيمنع وقوعها :

((إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً))⁴0

((وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً))⁵0

وإن لله — مع طلاقة مشيئته — سننا يجرى بها الأحداث فى الكون المادى وفى حياة البشر، ثبتها الله سبحانه بعلمه وحكمته، وجعلها غير قابلة للتبديل ولا التحويل.

((فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً))⁶0

((سنة الله التى قد حلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً))¹0

¹ سورة القمر : 49

² سورة النحل : 40

³ سورة الإنسان : 30

⁴ سورة الطلاق : 3

⁵ سورة فاطر : 44

⁶ سورة فاطر : 43

((قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين))⁽²⁾0

وإن من بين سننه فى حياة البشر أنه يعطى الدنيا للمؤمن والكافر على السواء إذا اجتهدا فى تحصيلها :

((كلا نمد هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً))⁽³⁾0

((من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون))⁽⁴⁾0

ولكن تفترق سنته — بعد ذلك — ما بين المؤمن والكافر. فقد يعطى الكافر على كفره، بل يمد له فى العطاء إلى حين :

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة

فإذا هم مبلسون(44) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين))⁽⁵⁾0

أما المؤمنون فلا يعطيهم إلا إذا وفوا بالشرط :

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من

قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً
))⁽⁶⁾0

وأن من سننه مداولة الأيام بين الناس

((وتلك الأيام نداؤها بين الناس))⁽⁷⁾0

ومن سنته التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل لحفظ الأرض من الفساد :

¹ سورة الفتح : 23

² سورة آل عمران : 137

³ سورة الإسراء : 20

⁴ سورة هود : 15

⁵ سورة الأنعام : 44،45

⁶ سورة النور : 55

⁷ سورة آل عمران : 140

((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))⁽¹⁾

ثم إن الأحداث تجري في الكون المادى وفي حياة البشر لهدف وحكمة، فلا هى تجرى اعتباطاً، ولا هى عبث لا غاية له :

((إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً))⁽²⁾ 0

((ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون))⁽³⁾ 0

((وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم

ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً))⁽⁴⁾ 0

((وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك

مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون))⁽⁵⁾ 0

((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون))⁽⁶⁾ 0

((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من

النار))⁽⁷⁾ 0

((وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأهجاراً وسبلاً لعلكم تهتدون))⁽⁸⁾ 0

((ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون))⁽⁹⁾ 0

((عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون))⁽¹⁰⁾ 0

¹ سورة البقرة : 251

² سورة الكهف : 7

³ سورة الأنبياء : 35

⁴ سورة الإسراء : 12

⁵ سورة النحل : 14

⁶ سورة المؤمنون : 115

⁷ سورة ص : 27

⁸ سورة النحل : 15

⁹ سورة القصص : 73

¹⁰ سورة الأعراف : 129

((قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر))⁰⁽¹⁾

((ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض))⁰⁽²⁾

((وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون))⁰⁽³⁾

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن

الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))⁰⁽⁴⁾

((وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين(140) وليمحص الله الذين

آمنا ويمحق الكافرين))⁰⁽⁵⁾

((وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين))⁰⁽⁶⁾

فالأشياء والأحداث تتحرك على الدوام، ولكنها حركة منضبطة تحكمها النواميس من جهة،

وتسير بها لغاية معينة من جهة أخرى، فلا عبث ولا فوضى ولا انفلات، ومن رواء الأشياء والأحداث

قدر الله: ((وكل شيء عنده بمقدار))⁰⁽⁷⁾

العجز والقدرة من الأشياء التي تلفت الحس البشرى كما أشرنا من قبل؛ ومقارنة العجز البشرى

بقدره الخالق الذى لا يعجزه شيء من المنافذ الفطرية التي توظف الفطرة إلى حقيقة الألوهية، فتهتدى -

حين تهتدى - إلى الإله الحق، أو تنسب القدرة كلها أو شيئاً منها - حين تضل - إلى كائنات أخرى

فتنسب إليها الألوهية أو تشرکہا في الألوهية مع الله⁰

¹ سورة النمل : 40

² سورة محمد : 4

³ سورة الفرقان : 20

⁴ سورة العنكبوت : 2،3

⁵ سورة آل عمران : 140 ، 141

⁶ سورة الدخان : 33

⁷ سورة الرعد : 8

والجاهلية العربية التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة لم تكن تمارى في قضية العجز البشرى، وقدرة الله التي لا يعجزها شىء. وقد سجل القرآن عليهم إقرارهم لله بالخلق والقوة والتدبير:

((قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون(84) سيقولون لله قل أفلا تذكرون(85) قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم(86) سيقولون لله قل أفلا تتقون(87) قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون(88) سيقولون لله قل فأنى تسحرون))⁽¹⁾

إنما كانت مشكلتهم الكبرى كما أشرنا من قبل هي توهم وجود آلهة أخرى مع الله، واعتقاد أن لها شفاعاة مستجابة عند الله، وتوجيه ألوان من العبادة لها مع الله أو من دونه، سواء كانت اعتقاداً بألوهيتها، أو توجهها لها بالدعاء أو الصلاة أو الذبح أو النذر أو الاستغاثة أو الاستعانة⁰⁰

ولقد ركز القرآن على دحض هذه الأوهام تركيزاً شديداً حتى تتمحض العبادة لله وحده دون

شريك :

((قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون(59) أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون(60) أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً إليه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون(61) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أغله مع الله قليلاً ما تذكرون(62) أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إليه مع الله تعالى الله عما يشركون(63) أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إليه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين))⁽²⁾

((قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار))⁽³⁾

¹ سورة المؤمنون : 84 - 89

² سورة النمل : 59 - 64

³ سورة الرعد : 16

((واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا))⁽¹⁾0

((قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون(31) فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون(32) كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون(33) قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون(34) قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون))⁽²⁾0

((يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب))⁽³⁾0

ولقد يبدو للوهلة الأولى أن هذه الآلهة التي كان العرب في جاهليتهم يعبدونها مع الله أو من دونه قد انتهى أمرها، فلم يعد لتلك الآيات الكثيرة في كتاب الله التي تتحدث عن ((الشركاء)) مكان في عالم اليوم ((المتحضر)) ((المتقدم)) ، وأن هذا القسم من كتاب الله يحفظ ((للذكرى))! ولكن ليست له مهمة يؤديها اليوم، وليس له نداء يخاطب عقول المتحضرين! ولكن ليست له مهمة يؤديها اليوم، وليس له نداء يخاطب عقول المتحضرين! وليس هناك وهم أبعد عن الحقيقة من هذا الوهم! فهذه الجاهلية المعاصرة بالذات ربما تكون أحوج الجاهليات لهذا النداء! فإنسان الجاهلية المعاصرة قد أله نفسه، وهو أبعد الكائنات عن أن يكون إلهًا، مع الله أو من دونه!

لقد كانت الآلهة المزعومة في الجاهلية العربية - وغيرها - كانت أسطورية، نعم، ولكنها في وهم أصحابها كائنات فائقة، لها صفات غير عادية، تؤهلها - في ظنهم - لمشاركة الإله في ألوهيته. أما الجاهلية المعاصرة التي تؤله الإنسان فهي التي تصفه بأنه ذلك الحيوان (الدوارويني) المتطور، الذي

¹ سورة الفرقان : 3

² سورة يونس : 31 - 35

³ سورة الحج : 73

تطور عن أحد القردة العليا: الشمبانزى والغوريلا والأورانج أوتانج (إنسان الغاب) والجيبون.. فيا له من إله!

الإله الذى سفك من الدماء فى هذا القرن الأخير وحده ما لم تسفكه وحوش الأرض ربما فى تاريخها كله! والذى جعل قانونه الأسمى هو قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف أو يزيحه من الطريق. والذى لم يكذب فى تاريخ البشرية كلها أحد مثله ما بين الشعارات المرفوعة والواقع الفعلى، الذى لا يمت بصلة للشعار المرفوع! والذى سخر عقله الذى منحه الله إياه فى صنع الشر أضعاف أضعاف ما سخره فى فعل الخير، والذى نشر من الفساد والانحلال الخلقى فى الأرض ما تعف عنه كثير من الحيوانات ذات الفطرة السوية التى لم تفسدها ((حضارة)) ذلك الإله المزعوم. ومع ذلك يقول قائلهم: إن الإنسان قد خضع لله فى الماضى بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقى من قبل فى عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله!⁽¹⁾

ونعوذ بالله من الكفر 00

ونعوذ إلى كتاب فنجده قد تعرض لتبجح المتبجحين اليوم، كأنما نزل الآن ليرد على تبجحهم، مع أنه قد أنزل من قبل أربعة عشر قرنا 00 وإن هذا ذاته لمن الإعجاز!

إن الذى ألم بالجاهلية المعاصرة - بسبب ما حصلت عليه من المعرفة - أشنع بكثير مما كان يلم بالجاهلية العربية بسذاجة أفكارها وسذاجة معتقداتها، فضلا عما تتصف به هذه الجاهلية الحديثة من الغرور العلمى الذى يخيل إليها أنها ((سبت عن الطوق، ولم تعد فى حاجة إلى وصاية الله⁽²⁾! والذى يخيل إليها من جانب آخر أنها سيطرت على البيئة!

إن زلزلة واحدة كالزلال الذى حدث فى تركيا وخسف القاعدة الحربية البحرية التى تطاول فيها أحد ضباطهم على رب العرش فى علاه، ومزق المصحف وداسه بأقدامه، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وراح ضحية الزلال عشرة آلاف من البشر⁽³⁾، وإن عاصفة واحدة كالعاصفة التى اجتاحت شمالى فرنسا

¹ هذه قولة جولييان هكسلى فى كتابه ((الإنسان فى العالم الحديث Man in the modern world

² هذه قولة شائعة فى كتاباتهم

³ حدث هذا الزلال فى صيف عام 1420هـ (1999م)

فاقتلعت أربعين ألف شجرة راسية شامخة، وقتلت من قتلت، وحطمت ما حطمت في شتاء عام 1420هـ (1999م) .. لكفيلة أن ترد الناس إلى صوابهم، لو كانوا يعقلون⁰⁰

ولقد أنذرهم الله في كتابه الذي أنزله قبل أربعة عشر قرنا، ولا يزال الإنذار قائما إلى قيام الساعة

:

((أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور(16) ام أمنتم من في السماء أن

يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير))⁰⁽¹⁾

((أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور))⁰⁽²⁾

إن العلم هبة من عند الله سبحانه وتعالى:

((وعلم آدم الأسماء كلها 000))⁰⁽³⁾

((اقرأ وربك الأكرم(3) الذي علم بالقلم(4) علم الإنسان ما لم يعلم))⁰⁽⁴⁾

وهو قمين في النفس السوية بأن يجعل الإنسان أكثر تقربا إلى الله وخشية له:

((.. إنما يخشى الله من عباده العلماء))⁰⁽⁵⁾

ولكن الجاهلية المعاصرة – التي تستمد مفاهيمها ومشاعرها من التراث الروماني الإغريقي الوثني

– قد ورثت فيما ورثت من ذلك التراث أن العلم شيء انتزعه الإنسان من الإله على كره منه، فهو

يستخدمه للتمرد على سلطان الله، وتأليه نفسه بدلا من الله⁶⁾، حتى يقول ذلك الملحد الذي أشرنا إليه

من قبل – جوليان هكسلي – إن الإنسان كلما ازداد علما ارتفع في حس نفسه درجة، وهبط الإله في

حسه في ذات الوقت درجة، حتى يأتي اليوم الذي يخلق فيه الإنسان الحياة، فيصبح هو الله!

¹ سورة الملك : 17، 16

² سورة الملك : 20

³ سورة البقرة : 31

⁴ سورة العلق : 3-5

⁵ سورة فاطر : 31

⁶ راجع أسطورة ((برومثيوس سارق النار المقدسة))

نعوذ بالله مرة أخرى من الكفر 00

ونعود إلى كتاب الله فنجد فيه الرد على تبجح المتبجحين اليوم، كأنما أنزل اليوم ليرد عليهم:

((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون(35) أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون))⁽¹⁾

((أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور))⁽²⁾ 0

فلو حجب عنهم العلم فكيف كانوا يعلمون؟ ولو أمسك عنهم الرزق فكيف يعيشون؟

وهم أنفسهم – أو عقلاؤهم على الأقل – قد بدءوا يدركون أن ما كشفه لهم العلم من الأسرار لا يقاس إلى جانب ما اكتشفوا أنهم يجهلونه من أسرار الكون! وأن كل كشف جديد يفتح الباب على مجاهيل جديدة لم يكونوا أصلاً يدركون وجودها، وأنهم في كل مرة يقفون أمام حاجز جديد عليهم أن يتخطوه.. وأن الحاجز الأكبر الذي يقفون أمامه من مبدأ الأمر إلى آخر الأمر، هو: لماذا تتصرف الأشياء على النحو الذي اكتشفوا أنها تتصرف عليه، وليس على أي نحو آخر؟! أى بعبارة أخرى: سر الخلق! ((ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى))⁽³⁾ وهم في النهاية كما وصفهم الله في كتابه المنزل: ((يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون))⁽⁴⁾ 0

أما قضية الشفاعة المزعومة – التي تقوم على توهم أن بعض هذه الآلهة المدعاة لها شفاعة مقبولة عند الله – فقد عنى القرآن بتنفيذها عناية واضحة، لأنها – فوق بطلانها في عالم الحقيقة – ذات أثر مفسد لعقائد الناس وسلوكياتهم، إذ تفسد التصور الصحيح لحقيقة الألوهية، وتغري البشر بمعصية أوامر الله اتكالا على شفاعة الآلهة التي تنجيهم من العقاب!

((أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون))⁽⁵⁾ 0

¹ سورة الطور : 36، 35

² سورة الملك : 21

³ سورة طه : 50

⁴ سورة الروم : 7

⁵ سورة الزمر : 43

((وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى))⁽¹⁾ 0

((يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون(254) الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه))⁽²⁾ 0

((الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون))⁽³⁾ 0

((ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له(000))⁽⁴⁾ 0

ومرة أخرى قد يبدو لأول وهلة أن معتقدات الجاهلية العربية حول الشفاعة والشفعاء قد انتهى أمرها، وأن هذا القسم من كتاب الله الذى يتحدث عن الشفاعة هو للذكرى! وليس له مكان فى عالم اليوم! فنقول إن العالم الإسلامى ذاته – فى غربة الإسلام الحالية – أحوج ما يكون إلى تدبر آيات الله فى هذا الشأن، وقد أفسدت الصوفية الجانحة عقائد الناس، وضحمت الشيخ فى حس المريد حتى صار واسطة بينه وبين الله، وشفيعاً له عند الله، لا فى أثناء حياته فحسب، بل حتى بعد أن يموت ألف عام!

وذلك فضلاً عن وثنيات شتى ما تزال تعيث فساداً فى الأرض!

قضية الغيب – كما أسلفنا – من موقظات الفطرة، ومن المؤثرات التى توقع إيقاعات شتى على الحس البشرى. فهناك باستمرار غيب لا يستطيع الإنسان إدراكه، هو المستقبل كله، سواء المستقبل البعيد أو المستقبل القريب، وهناك – دائماً – رغبة ملحة عند الإنسان أن يعرف ما يحدث له غداً، ولو

¹ سورة النجم : 26

² سورة البقرة : 254 ، 255

³ سورة السجدة : 4

⁴ سورة سبأ : 23

في خطوط عريضة إن تعذر التفصيل. ولكنه - في واقع الأمر - عاجز عن معرفة شيء يقيني بالنسبة لذلك الغيب لا بالإجمال ولا بالتفصيل⁰⁰

ومن هنا يهزه حديث الغيب!

والقرآن لا يفتأ يحدث هذه الهزة في القلوب!

((وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها

ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين))⁽¹⁾

هل هناك إحاطة أدق أو أشمل من هذه الإحاطة؟! حتى الورقة الساقطة من غصنها، حتى الحبة في

ظلمات الأرض، حتى الرطب واليابس.. إحاطة تدير الرعوس! يلهث الخيال البشري في تتبعها فلا

يستطيع اللحاق بها وهي تنتقل به من مكان في الأرض إلى مكان، ومن مجال إلى مجال!

((قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله))⁽²⁾

((عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو

مستخف بالليل وسارب بالنهار) له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله))⁽³⁾

((وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى))⁽⁴⁾

((إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا

وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير))⁽⁵⁾

((إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على

كل شيء قدير))⁽⁶⁾

¹ سورة الأنعام : 59

² سورة النمل : 65

³ سورة الرعد : 9-11

⁴ سورة طه : 7

⁵ سورة لقمان : 34

⁶ سورة آل عمران : 29

((ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر من ذلك إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم))⁽¹⁾ 0

ويلاحظ أن حديث الغيب يأخذ مسارين اثنين، كلاهما ذو تأثير عميق فى الحس البشرى. أحد المسارين هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، التى تهز الوجدان البشرى من ناحية عجز الإنسان عن استكناه الغيب، ومن ثم يروعه أن يقف - بعجزه - أمام القدرة القادرة التى لا يخفى عليها شىء، ولا يغيب عنها شىء. والمسار الثانى هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، الذى يراقب الإنسان فى حركاته وسكناته، والذى يعلم جهره وسره، بل ما هو أخفى من السر، وهو مكونات القلب التى لا يبوح بها الإنسان حتى لنفسه! فأنى يستخفى الإنسان عن رقابة الله التى تلاحقه فى كل مكان وفى كل حال، وأنى يلجأ ليدارى أفعاله عن علم الله، الذى يعلمها حال وقوعها، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة ولو كانت مثقال ذرة!

((يا بنى إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير))⁽²⁾ 0

((يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم))⁽⁶⁾ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره⁽⁷⁾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره⁽³⁾

((ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين))⁽⁴⁾ 0

ولا يكمل حديثنا عن الإعجاز القرآنى فى مجال العقيدة دون أن نشير إلى أسماء الله الحسنى التى ترد وروداً ظاهراً فى كتاب الله، والتى تحتّم بها كثير من الآيات فى القرآن الكريم:

¹ سورة المجادلة : 7

² سورة لقمان : 16

³ سورة الزلزلة : 6-8

⁴ سورة الأنبياء : 47

((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون))⁽¹⁾0

((قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله السماء الحسنى))⁽²⁾0

((الله إلا إله إلا هو له الأسماء الحسنى))⁽³⁾0

إن الأسماء والصفات التي يكثر ورودها في القرآن الكريم لتؤدي مهمتين رئيسيتين إحداهما في مجال الدعوة، والأخرى في مجال التربية⁰

ونتحدث هنا عن مجال الإعجاز الدعوى، ونعود إلى الحديث مرة أخرى في مجال الإعجاز التربوي⁰

إن هدف الدعوة الأول هو تعريف الناس بربهم الحق، وإزالة كل غيبش حول قضية الألوهية في نفوس الناس، سواء كان ناشئا من قصور في العلم، أو فساد في التصور، أو عرف فاسد، أو وهم عالق بالأذهان، أو جنوح إلى خرافة أو أسطورة لها ثقل الحقيقة في نفوس المؤمنين بها وهي مجرد ظن لا يقين فيه⁰⁰ وقد كان ذلك كله موجودا في الجاهلية العربية، وهو دائما موجود في صورة منالصور في كل جاهلية، لا يستثنى منها الجاهلية المعاصرة، التي ابتدعت لها سمتة ((الطبيعة)) وأعطته صفة الحقيقة العلمية، وهو مجرد أسطورة لا وجود لها في عالم الواقع⁽⁴⁾، وابتدعت شيئا سمتة ((الخلق الذاتى)) وهو أسطورة أخرى لا وجود لها في عالم الواقع، وأهلت ((العقل)) وهي ذاتها تعترف بأن ما يجمله ((العلم)) من أسرار الكون والحياة أكثر بكثير مما يعلمه! ثم أهلت الهوى والشهوات التي توشك أن تدفع الإنسان إلى درك من الهبوط لم يصل إليه في تاريخه كله!

إن الداء الأكبر في الجاهلية – كل جاهلية – أنها تجهل حقيقة الألوهية!

¹ سورة الأعراف : 180

² سورة الإسراء : 110

³ سورة طه : 8

⁴ نقصد أسطورة الطبيعة الخالقة التي قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق!

ومن ثم كانت عناية القرآن الكبرى بجلاء هذه الحقيقة، بحيث تأخذ مساحتها كاملة في النفس، وشفافيتها الكاملة في الحس، وتأثيرها الكامل في الوجدتان.. فتستقيم حياة الإنسان في الأرض - وهى لا تستقيم بغير ذلك! - لأن أى غيب في هذه القضية يحدث اختلالات مدمرة في كيان الإنسان، ويقوده إلى الضلال. وسوف نفصل الحديث عن هذه النقطة عند الحديث عن الإعجاز التربوى في كتاب الله⁰

أما هنا فنشير إلى أن إحدى الوسائل الرئيسية في تعريف الناس برهم هى الأسماء والصفات الواردة في القرآن، التى يتكرر ورودها كثيرا جدا فيه، وكثيرا ما تكون حتما للآيات القرآنية فتختم الآية بقوله تعالى: ((والله سميع عليم))⁽¹⁾ أو قوله تعالى: ((إن الله لطيف خبير))⁽²⁾ أو قوله تعالى: ((والله على كل شىء قدير))⁽³⁾ إلى غير ذلك من الأسماء والصفات⁰

ويجئ ذكر الأسماء والصفات إما بتعبير مباشر كقوله تعالى: ((قل هو الله أحد (1) الله الصمد (2) لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن له كفوا أحد))⁽⁴⁾، أو قوله تعالى: ((هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم (22) هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون (23) هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم))⁽⁵⁾.. وإما يجئ تعقيبا على مشهد من المشاهد الدنيوية أو الأخروية بما يناسب طبيعة المشهد، وبما يدل فى الوقت ذاته على بعض الهدف من إيراد المشهد، أى أنه يورد للدلالة على صفة من صفات الله جل وعلا، إلى جانب ما يكون من أهداف أخرى فى السياق.

((ثم أنز عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات

¹ سورة البقرة : 224

² سورة الحج : 63

³ سورة البقرة : 284

⁴ سورة الإخلاص : 1-4

⁵ سورة الحشر : 22-24

الصدور(154) إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم))⁽¹⁾0

((لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم(117) وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم))⁽²⁾0

((فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم))⁽³⁾0

((ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين))⁽⁴⁾0

((وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير))⁽⁵⁾0

((وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً(30) يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً))⁽⁶⁾0

((يا أليها الإنسان ما غرك برك الكريم(6) الذى خلق فسواك فعدلك(7) فى أى صورة ما شاء ركبك))⁽⁷⁾0

((فما يكذبك بعد بالدين(7) أليس الله بأحكم الحاكمين))⁽⁸⁾0

((أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور(9) وحصل ما فى الصدور(10) إن ربهم بهم يومئذ لخبير))⁽⁹⁾0

¹ سورة آل عمران : 154 ، 155

² سورة التوبة : 118، 117

³ سورة الأنعام : 96

⁴ سورة الأنعام : 62

⁵ سورة الأنعام : 73

⁶ سورة الإنسان : 30-31

⁷ سورة الانفطار : 6-8

⁸ سورة التين : 8، 7

⁹ سورة العاديات : 9-11

((يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين))⁽¹⁾0

((قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع

بصير))⁽²⁾0

والأمثلة أكثر من أن تحصى.. والهدف الذى يتحقق من خلالها - مع كثرتها وتعددتها - هو تكوين تصور واضح لحقيقة الألوهية يشمل كل المجالات وكل الأحوال التى تعرض للبشر، بحيث يشعر الإنسان أيا كان توجهه أن الله تجاهه، بصفة من صفاته أو اسم من أسمائه، فلا يكون شىء فى حياة الإنسان أو فكره أو مشاعره إلا وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالله سبحانه وتعالى. وسوف نعاود الحديث عن هذه النقطة لتزيدها جلاء حين نتحدث عن الإعجاز التربوى فى القرآن الكريم 0

* * *

بهذه الوسائل جميعاً، ومن هذه المنافذ جميعاً تنفذ إلى القلب البشرى حقيقة لا إله إلا الله، فتتعمق وتتوثق وترسخ، حتى تصبح يقيناً لا يتزلزل، وعقيدة صافية لا غبش فيها ولا خفاء، ولا أوهام ولا التواء 00

ولسنا نعرف - بصورة يقينية - ماذا كان فى الكتب المتزلة قبل القرآن فى قضية لا إله إلا الله، قبل أن تحرف على أيدى الكهنة ورجال الدين ومن تبعهم من عامة الناس، وإن كنا نعرف يقيناً - من كتاب الله - أنها كلها دعت لتوحيد الله، وعبادته وحدهن بلا شريك 00

ولكن القرائن كلها تقول إنه ما من كتاب - قبل القرآن - تحدث عن هذه القضية بهذا العمق، وهذه السعة، وهذا الوضوح، وهذا الشمول، ودخل بها من كل منافذ الفطرة، ومن كل مسارب النفس، بحيث تستوعب النفس من جميع أقطارها، وتتغلغل فيها إلى أعماق أعماقها كما فعل القرآن 00 كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التى تمت بها النعمة واكتمل الدين:

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً))⁽³⁾0

¹ سورة النور : 25

² سورة المجادلة : 1

³ سورة المائدة : 3

وذلك جانب من جوانب الإعجاز في هذا الكتاب الجليل، جدير بالتأمل، والتدبر، والالتفات 0

من الإعجاز التربوي

نستطيع في كلمة مختصرة أن نقول عن الإعجاز التربوي في كتاب الله إنه هو الذي أخرج من القبائل المتناحرة في الجزيرة العربية ((أمة)) لأول مرة في تاريخها، وليس أى أمة، إنما خير أمة أخرجت للناس 00

لقد عاشت هذه القبائل أمدا لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، تتكلم لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها ما بين قبيلة وقبيلة، وتسكن أرضا متصلة وإن تباعدت أرجاؤها، وتشابه عقائدها وإن اختلفت كل قبيلة بوثن أو بضعة أو ثان، وتتمائل عاداتها وتقاليدها.. ولكنها مع ذلك لا تكون ((أمة))، لأن التزايدات والحروب المستمرة بين القبائل، وما يتخلف عنها من الثارات والحزازات المتجددة على مر الأيام، لا تجعل القلوب تصفو ولا تتوحد، ولا تتيح فرصة للنفوس كي تتقارب على أمر عام تلتقى عليه فتلتقى عنده، وتتجمع من الشتات 00

وقد كانت تحدث أحيانا تحالفات بين بعض القبائل وبعض، ولكنها أبعد شيء عن أن تشكل ((أمة)) متحدة متجانسة. وإنما هي تحالفات تقوم بها بعض القبائل ضد بعضها الآخر، لتزيد من قوتها فترهبها القبائل الأخرى، فلا تفكر في العدوان عليها أو الإغارة على مائها أو كلتها، بينما تتاح لها هي فرصة الإغارة والعدوان معتمدة على قوتها المستمدة من تحالفها مع قبيلة أخرى أو جملة قبائل تتقاسم معا على الولاء في السراء والضراء! 00

وربما كان حلف الفضول أقرب شيء إلى التجمع على أمر عام، وهدف سام لا صلة له بالعدوان، وإنما هو لدفع العدوان ورد الحقوق المغتصبة وحماية الضعفاء، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه: دعيت إلى حلف في الجاهلية لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت.. ولكنه مع ذلك كان ما يزال في محيط ((القبائل)) وليس نابعا من الرغبة في إقامة أمة موحدة، أو دولة موحدة 00

وكان القرآن هو الذى حقق المعجزة 00

جمع القلوب المتنافرة، فتقاربت، فاتحدت، فالتحمت، لأول مرة في التاريخ، وعلى نحو غير مسبوق في التاريخ ((واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون))⁽¹⁾0

كيف تحققت المعجزة؟

أما أنها معجزة.. وأما أنها تحققت بالفعل، فأمر يشهد به الواقع التاريخي..

ولقد حاولت دعوى ((القومية العربية)) ذات يوم أن تزعم لها طريقا إلى هذه الوحدة، فقالت إن الأمة العربية كانت تتوق إلى التجمع والتوحد ولكنها لا تجد ((الزعيم القائد)) الذى يوحدنا، فلما وجدته فى شخص رسول الله صلى الله عليهم وسلم، سارعت إلى تحقيقه⁰⁰

وليس شىء أكذب من هذا على التاريخ⁰⁰

فإن هذه ((الأمة)) المزعومة لم تجتمع على شىء اجتماعها على حرب ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإيدائه والصد عنه وعن دعوته، واتهامه بالسحر والجنون والتلقى من الشياطين!

((وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد⁽⁷⁾ أفترى على الله كذبا أم به جنة))⁽²⁾0

((وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونكم بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون))⁽³⁾0

((وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا⁽⁴¹⁾ إن كاد ليضلنا عن آهتنا لولا أن صبرنا عليها))⁽⁴⁾0

إنما الذى حقق المعجزة هو القرآن⁰⁰

¹ سورة آل عمران : 103

² سورة سبأ : 6،7

³ سورة القلم : 51

⁴ سورة الفرقان : 41 ، 42

هو الذى ألان تلك القلوب الصلدة، وأذاب الران الذى كان يغشى القلوب فيكسوها بالطبقة المتحجرة التى تمنع النور من النفاذ إليها، وتصدها عن بشاشة الإسلام:

((الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد))⁽¹⁾ 0

فأى شىء فى هذا الكتاب هو الذى جمع تلك القبائل المتناحرة فى أمة، ثم أخرج منها خير أمة أخرجت للناس؟

((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))⁽²⁾ 0

إذا استعرضنا الكتاب نجد أن القضية الكبرى فيه هى قضية لا إله إلا الله 0

ولو تحرينا الأداة التى أخرج الله بها هذه الأمة إلى الوجود، لوجدنا أنها هى قضية لا إله إلا الله! فكيف تفعل لا إله إلا الله فى القلوب والعقول، وكيف تفعل فى الوجدان والسلوك، وكيف تصل فى النهاية إلى بناء أمة متضامنة متماسكة من لبنات كانت متنافرة من قبل، تأبى أن تجتمع فى كيان غير كيان القبيلة، الذى يشكل فى حس أصحابه ربا من الأرباب:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد!⁽³⁾

بل كيف وصلت إلى تفتيت القبيلة، التى تقوم على رابطة الدم، إذا لم تستقم على الحق، وتنشئ بدلا منها كيانا متماسكا يقوم على رباط لا ينبع أساسا من رابطة الدم، وهو فى الوقت ذاته أقوى من رابطة الدم بما لا يقاس!؟

((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون) (23) قل إن كان آباؤكم وأنباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم

¹ سورة الزمر : 23،24

² سورة آل عمران : 110

³ البيت لدريد بن الصمة

وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين))⁽¹⁾0

فلنأخذ لبنة من اللبنة، ولنتتبع تحولاتها من الجاهلية إلى الإسلام00

هذا إنسان جاهلي 00 يعيش بفكر جاهلي، وقلب جاهلي، وسلوك جاهلي 00 فما اهتماماته؟ لأى شىء يعيش؟! ما غاية الوجود فى حسه وفى تصوراتة؟

مجموعة من الشهوات من كل نوع: شهوة المال. شهوة القوة. شهوة الجنس. شهوة الطعام والشراب.. ((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا))⁽²⁾0

((ألهاكم التكاثر(1) حتى زرتم المقابر))⁽³⁾0

((زين للذين كفروا الحياة الدنيا))⁽⁴⁾0

والفرصة المتاحة لهذا المتاع هى هذه الحياة الدنيا التى هى فى حس أصحابها فرصة واحدة، إذا انقضت لا تعود . فضلا عن كونها ليست مضمونة من حيث استمرار الصحة أو القوة أو الثروة أو التمكن 00 ومن ثم فكل فرصة تسنح للاستمتاع فلا ينبغي أن تفوت، وكل نوع من المتاع ينبغي أن يباح، فلا حلال ولا حرام، ولا امتناع عن المتاح :

فلولا ثلاث هن من شيمة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى!

فمنهن سبقى العاذلات بشربة كमित متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا - نبهته - المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بيهنكة تحت الطراف المعمد

¹ سورة التوبة : 24،23

² سورة آل عمران : 14

³ سورة النكاثر : 2،1

⁴ سورة البقرة : 212

فيذكر الشاعر⁽¹⁾ الخمر والحرب والنساء على أنها هي التي يحرص على الحياة من أجلها، ولولاها ما كان حريصا على الحياة ولا مباليا بالمرض أو الموت، وذلك بعد أن قال :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات، هل أنت مخلدى؟!!

فما دام أنه لا خلود، فدعني إذا أعب من هذه الشهوات!

ولكن الانقياد لهذه الشهوات لا بد أن ينشأ عنه الصراع والصدام بين البشر، ما لم يكن هناك ما يمنع الاحتكاك أو يلففه. وهنا تنقسم المجتمعات في الجاهلية إلى نوعين: نوع همجي متبربر، لا نظام فيه ولا ضوابط، تؤخذ فيه الأمور بقوة الذراع

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم⁽²⁾

ونوع (متحضر) تحكمه قوانين، تحدد الطريقة التي يتم بها استمتاع كل إنسان ((بحقوقه))، مع تقليل الصراع إلى أقصى حد مستطاع. وإن كانت اهتمامات الناس في تلك الحضارات الجاهلية هي ذات الاهتمامات التي عيشها الناس في المجتمعات الهمجية، وإن طليت بطلاء يزينها في أعين الناس! ثم إن التنظيم الذي يمنع التصادم أو يقلله محدود بمحدود ((القوم)) أو ((الوطن)) 00 أما في محيط البشرية الواسع فالقوة هي الوسيلة المعتمدة، وويل للمغلوب!

هذا في السلوك.. أما في التصورات فخذ هذا النموذج المعبر عن موقف الجاهلية 00 كل جاهلية:

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت

وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أو أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري!⁽³⁾

¹ هو طرفة بن العبد 0

² البيت لزهير بن أبي سلمى

³ هذه الأبيات للشاعر الجاهلي المعاصر ((إيليا أبو ماضي)) 0

لو أتيت لسائمة من السوائم أن تعبر بالغة التي نتحدث بها نحن، فماذا كانت تقول غير ما قالته
هذه الأبيات؟!

وذلك كله فضلا عن الضلال الروحي والفكري والسلوكي الذي ينشأ من عقيدة لا تؤمن بالله
الواحد، ولا تؤمن بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، فتنتهي الحياة في حسها عند الحياة الدنيا،
وتنحصر الأهداف في الغلبة والمتاع، وهي ذات الأهداف التي يعيش من أجلها الحيوان، وإن اختلفت
الصور، واختلفت الأدوات 0

ولا يحسن أحد أن الجاهلية المعاصرة ناجية من هذه الضلالة. بل هي غارقة فيها إلى الآذان، وإن
كان لديها من الأدوات ما تزيف به الواقع، وتزخره بشتى الزخارف، وتحدث به عن ((القيم العليا))
و((حقوق الإنسان)) و ((العدالة)) و((الروح الإنسانية)) و((حق تقرير المصير)) 00 وعشرات أخرى
من القيم الجميلة الخلافة التي لا رصيد لها في عالم الواقع 00 إنما يحكم الواقع قانون الغاب: القوى يأكل
الضعيف، أو يزيجه من الطريق. ومن كان في شك من هذا فلينظر إلى قضية واحدة من قضايا الحاضر،
قضية الأرض المغتصبة في فلسطين، ووقوف ((القوى العظمى)) مع المجرم المغتصب ضد صاحب الحق
المستضعف المأكول!

ولكننا معنيون هنا بالحدث عن الجاهلية العربية بالذات، التي عاشت آماداً من الزمن لا يعلمها إلا
الله، عاجزة عن تكوين ((أمة))، حتى آمنت بلا إله إلا الله، فتكون منها خيرة أمة أخرجت للناس 0

نريد أن نتعرف على نوع التغيير الذي حدث فيها، والكيفية التي حققت بها لا إله إلا الله ما
حققت من النتائج في عالم الواقع، لا في عالم الوهم، ولا في عالم الشعارات المطلقة في الهواء 0

لا إله إلا الله.. إذن فهو إله واحد، ومعبود واحد، ومتجه واحد محدد السمات 00

ويكفى هذا لتغيير كل شيء !

((أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار(39) ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))⁽¹⁾0

لا إله إلا الله00 فلا تشتت بعد الآن بين الآلهة المتعددة التي تشتت النفس وتمزق وحدتها، فتفقد طمأنينتها، فينشأ القلق والحيرة والاضطرابات النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة التي تعج بها الجاهليات0

((الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب))0()

لا إله إلا الله00 فمنهجه هو المنهج، وأمره هو الأمر، وشرعه هو الشرع: ما أحله هو الحلال، وما حرمه هو الحرام، وما أباحه هو المباح، وما منعه هو الممنوع0 وقوله هو الحق00

وهو يقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسوله، والقرآن هو الوحي الذي أنزل على رسوله، وإن هناك بعثاً ونشوراً، وحساباً وجزاء، وجنة وناراً00 فذلك كله حق وهو حق اليقين00

وإذن، كيف تصير الآن الأمور؟

فلننظر إلى صفحة((القيم))00 كيف كانت في الجاهلية؟

ماذا كان على رأسها؟

القبيلة00 وشرف القبيلة00 وأرض القبيلة، ومراعى القبيلة، ومنعة القبيلة00 ثم بالنسبة للكيان الفردي: الخمر والنساء، البيع والشراء، وما يقدر عليه الفرد من ألوان المتاع00

والحياة الدنيا هي مبلغ العلم، وغاية الهم، ومجال التطلع، ومسرح السعى، وغاية الغايات00

والآن فلننظر كيف صارت صفحة القيم على هدى لا إله إلا الله00

شواغل الحياة الدنيا ما تزال 00 ولكن بضوابط 00

ورابطة الدم ما تزال 00 ولكن بضوابط 00 والمال والبنون 00 والبيع والشراء 00 وقسط من المتاع 00 كل ذلك ما زال موجودا في الصفحة ولكن في حدود تلك الضوابط التي تحدد الحرام والحلال والممنوع والمباح 00

ولكن أين مكانها في الصفحة؟! على رأس القائمة؟! أم إن أمر آخر هو الذى أصبح اليوم يحتل رأس القائمة، ويلون بلونه كل ما عداه؟

هنا التحول الأكبر، الذى صنع كل التحولات 00

على رأس القائمة اليوم الإيمان بالله، ومن ثم التوجه إليه بالخوف والرجاء 00 بكل مشاعر القلب، وكل ألون السلوك 00

وعلى رأس القائمة بعد الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، وجنة ونار 00

وعلى رأس القائمة مع الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بمحمد ﷺ نبيا ورسولا ومعلما وقائدا

ومرشدا وهاديا إلى الصراط المستقيم 00

ثم يجيء كل شيء بعد ذلك 00 فهو موجود، ولكنه موجود بالضوابط التي يصنعها الإيمان بالله واليوم الآخر .. ثم إنه في وجوده لا هو مبلغ العلم، ولا غاية الهم، ولا غاية السعى، إنما هو متاع متاح — بضوابطه — تمارسه النفس المؤمنة ولكن لا تتعلق به، وتتخلى عنه في يسر إذا اقتضى ذلك أمر يتعلق بالقيم العليا، المسطورة في رأس الصفحة، وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله. الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ..

ما أعظم التغيير !

ثم أمر آخر 00

لا غيش اليوم ولا أوهام حول غاية الوجود الإنساني، التي قاتم عنها الشاعر الجاهلي المعاصر
لست أدري! والتي تفضى بها اللاأدرية إلى الشعور بعبثية الحياة، ومن ثم عبثية كل ((القيم)) الموجودة في
الحياة!

اليوم تملك النفس المؤمنة ((دليل الرحلة)) من أولها إلى آخرها، وتملك إجابة واضحة محددة
لأسئلة الفطرة التي ما تفتأ تلح - بوعى أو بغير وعى - تطلب إجابة محددة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟
وكيف؟ ومن أين جئنا؟ إلى أين نذهب بعد الموت؟ لماذا (لأى غاية) نعيش؟ كيف (بأى منهج) نعيش؟
القرآن يجوى دليل الرحلة..

من أين؟ من عند الله.. هو الخالق الذى يخلق كل شىء، ولا خالق غيره.

من أين؟ إلى الله مرة أخرى، ليحاسبنا على ما عملناه فى الحياة الدنيا.. ثم خلود فى الجنة أو النار

00

لماذا نعبد الله.. بشتى أنواع العبادة .. نعبده بالاعتقاد بوحدانيته، ونعبده بالشعائر، ونعبده
بتحكيم شريعته، ونعبده باتباع ما أنزل 00

كيف؟ باتباع منهج الله، المبين فى الكتاب والسنة بشتى أنواع البيان من تفصيل أو إجمال..

ومن ثم فلا عبثية فى الحياة، ولا هى مخلوقة بالباطل:

((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون))⁽¹⁾ 0

((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذليل كفروا من

النار))⁽²⁾ 0

والحياة الدنيا فترة ابتلاء، يترتب عليها فى النهاية الجزاء 00

ومادة الابتلاء هى متاع الأرض :

¹ سورة المؤمنون : 115

² سورة ص : 27

((إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا))⁽¹⁾0

وخلاصة القضية أن الأرض مزينة بألوان من المتاع، وفي النفس البشرية ميل إليه مركزوز في الفطرة :

((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا))⁽²⁾0

والله الخالق صاحب الأمر لم يحرم المتاع :

((قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة))⁽³⁾0

ولكنه وضع له ضوابط سماها ((حدود الله))، وقال عنها مرة: ((تلك حدود الله فلا تقربوها))⁽⁴⁾0 ومرة ((تلك حدود الله فلا تعتدوها))⁽⁵⁾000

ومن ثم كان الابتلاء - بمعنى الاختبار - هو في هذا الأمر: إلى أى مدى يستجيب الإنسان لرغبة المتاع؟ هل يقف عند الحدود التي فرضها الله أم يتجاوزها؟

ثم كان الجزاء في الحالتين متفقا مع سلوك الإنسان تجاه تلك الحدود:

((فأما من طغى (37) وآثر الحياة الدنيا (38) فإن الجحيم هي المأوى (39) وأما من خاف مقام

ربه ونهى النفس عن الهوى (40) فإن الجنة هي المأوى))⁽⁶⁾0

¹ سورة الكهف : 7

² سورة آل عمران : 14

³ سورة الأعراف : 32

⁴ سورة البقرة : 187

⁵ سورة البقرة : 229

⁶ سورة النازعات : 37-41

وتلك هى قصة الحياة00!

وتلك هى غاية الوجود الإنسانى كما حددها خالق الإنسان وخالق الحياة00

أى تحول فى داخل النفس يحدث حين تؤمن بلا إله إلا الله!؟

* * *

ولا يقف الأمر عند الإنسان الفرد00

فتلك اللبنة التى شكلتها لا إله إلا الله ذات خواص معينة، تتميز بها عن غيرها من اللبنة0

ومن خواصها- التى تشبه ظاهرة المغنطيس- التجاذب الذى يؤدى إلى الالتحام!

والتجاذب فى أصله موجود فى الفطرة0 فالنفس البشرية ذات نزعتين فى آن واحد: نزعة فردية ونزعة جماعية0 الأولى تهدف إلى تحقيق الذات، والثانية تهدف إلى الاجتماع بالآخرين⁽¹⁾، ولكنها فى الجاهلية لم تصل إلى حد الالتحام الحقيقى00 لأن الإنسان فى الجاهلية يصنع حول نفسه سياجا أكبر من حجمه الحقيقى، فمهما تجاذبت الوحدات، فهذا السياج الخارجى قد يسمح بالاقتراب ولكنه يمنع الالتحام! أما فى النفوس المؤمنة، التى تواضعت لله، وذهب عنها كبرياء الذات، فلا يوجد ذلك السياج الوهمى الذى يقيمه الفرد حول ذاته، ومن ثم تقترب القلوب- التى يجذبها كلها الحب لله ولرسوله- فتلتحم ذلك الالتحام الرائع الذى شهدنا نماذج رائعة منهفى ذلك الجيل الفريد الذى رباه رسول الله ﷺ، ولم يخل منه جيل من أجيال المسلمين0 وهو هو الذى أنشأ تلك((الأمّة)) لأول مرة فى تاريخها، ثم اتسع حتى شمل شعوبا وأجناسا لا يجمع بينها لون ولا لغة ولا مصالح قريبة00 ولكن تجمع بينها لا إله إلا الله00

وهكذا تنشئ لا إله إلا الله((الإنسان الصالح)) الذى يقيم الخلافة الراشدة فى الأرض فرداً وجماعة

- :

((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة))⁽²⁾0

¹ أنظر إن شئت كتاب ((دراسات فى النفس الإنسانية))

² سورة البقرة : 30

والإنسان الراشد ليس هو أى إنسان، وإنما هو شئ متميز لم تعرفه الأرض إلا على خط الإيمان الذى بثه الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى محمد ﷺ، ولكنه- بشهادة الله سبحانه وتعالى- لم يبلغ سمته الأعلى كما بلغه فى أمة محمد ﷺ التى شهد لها خالقها بكونها ((خير أمة أخرجت للناس))⁽¹⁾ 0

أما مواصفات ذلك الإنسان الراشد فهى مبثوثة فى كتاب الله، تكون فى مجموعها منهجا شاملا متكاملا لم يعرفه- فى شموله وتكامله- أى منهج من المناهج التى تعج بها الأرض، والتى تهدف- كما تنص صراحة- إلى إنشاء((المواطن الصالح))، و((الإنسان الصالح)) 00 فالروسى الذى يقتل الشيشانيين مواطن صالح فى عرف قومه! واليهودى الذى يقتل المسلمين ويغتصب أرضهم وديارهم وكرامتهم مواطن صالح فى عرف قومه! والهندي الذى يقتل أهالى كشمير ويحرم عليهم أن يقرروا مصيرهم لأنفسهم مواطن صالح فى عرف قومه! وما أبأسهم جميعا وما أبعدهم عن صفة الإنسانية فضلا عن صفة الإنسان الصالح!

* * *

وإذا عدنا إلى الإعجاز التربوى فى القرآن الكريم، ذلك الذى أخرج خير أمة أخرجت للناس، فنحن أمام بحر زاخر، من حيث وردته فهو زاخر، ومن حيث نظرت إليه بهرك ما يشتمل عليه من أعماق 0 إن الركيزة الكبرى فى هذا المنهج الربانى- كما أشرنا من قبل- هى الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر 00 وعلى قدر رسوخهما فى النفس يكون مدى تحقق الخيرية، وتحقيق الصلاح فى الإنسان 00 فإذا أدركنا ذلك، فإن الإعجاز التربوى فى القرآن لا ينحصر مجرد بث هذه العقيدة فى النفوس، وإنما فى تعميقها وترسيخها وتثبيتها، حتى تخالط بشاشتها القلوب فتصبح جزءا منها لا يفصل عنها 0 وهنا لابد أن يحضرنا الإعجاز البيانى، والإعجاز الدعوى اللذان تحدثنا عنهما من قبل 00 كل منهما هو فى ذاته إعجاز قائم بذاته، ولكنه فى الوقت ذاته أداة لإعجاز آخر!

كان الإعجاز البياني - كما بينا - أداة عظيمة في مسيرة الدعوة، جعلت العقيدة تنفذ إلى النفس من كل منافذها، وتصل إلى أعماقها، بالبيان الأخاذ، وبتنوع العرض، وباستخدام أساليب مختلفة تشمل البيان المباشر، والقصة، والمثل، وغيرها من أساليب البيان⁰⁰

ثم كان الإعجاز البياني والإعجاز الدعوى معاً أداة للإعجاز التربوي، الذي يرتكز أساساً تعميق الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر في نفس الإنسان، وصولاً إلى الإنسان الراشد الذي قال الله في وصفه :

((00) ولكن الله حيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون))⁽¹⁾

((إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون))⁽²⁾

* * *

ولنحاول هنا أن نعترف غرفة من البحر الزاخر⁰⁰

أشرنا من قبل إلى تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر على أنه الأداة العظيمة في المنهج الرباني. وأشرنا من قبل كذلك إلى تحديد أبعاد رحلة الإنسان في الوجود، منذ النشأة إلى المعاد، وما يقدمه هذا التحديد من إجابات واضحة محددة لأسئلة الفطرة التي تلح على النفس بوعى وبغير وعى: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا وكيف؟.. وأثر ذلك في وضوح الرؤية عند الإنسان لأبعاد الرحلة وأهدافها، ونوع الابتلاء (الاختبار) الذي يجري له فيها، مما يدعو إلى التناغم مع هذه الأهداف وعدم الخروج عليها، ويؤدي به في الوقت ذاته إلى الطمأنينة في أثناء المسيرة، والصبر على مصاعبها إيماناً منه بأن ((أمر المؤمن كله خير))⁽³⁾، وبأنه ((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب))⁽⁴⁾

¹ سورة الحجرات : 7

² سورة فصلت : 30

³ يقول عليه الصلاة والسلام ((عجى للمؤمن كل أمره خير، إذا أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإذا أصابته ضراء صبر فكان خيراً له))⁰

⁴ سورة الزمر : 10

ونشير هنا إلى التوازن الذى ينشئه المنهج الربانى فى النفس المؤمنة بين الرغبة والقييد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وأثر ذلك التوازن فى إنشاء ((الإنسان الصالح))⁰

فأما بين الرغبة والقييد، فالإسلام لا يكبت الرغبات الفطرية ولكنه يضبطها وفرق هائل بين الكبت والضبط. فالكبت هو استقذار الدافع الفطرى، وعده - فى ذاته - دنسا لا يليق بالإنسان أن يشتمل عليه، بينما الضبط هو اعتراف بالدافع الفطرى نظيفا فى ذاته، مع التحكم فى القدر الذى يستجيب به الإنسان إليه، والطريقة التى يستجيب بها⁰

الكبت عملية مفسدة للمشاعر، مفسدة للأعصاب، مدمرة للطاقة الحيوية⁰⁰ والضبط عملية صحية تكسب الإنسان قوة فى الشخصية، وقدرة على التحمل، ورفعته فى الأهداف⁰⁰

((قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة))⁰⁽¹⁾

فلا تحريم للطيبات⁰⁰

ولكن فى الوقت ذاته لا إسراف فى تناول :

((وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين))⁰⁽²⁾

وهكذا يتوازن الإنسان بين الرغبة والقييد⁰ فلا الرغبة تؤدى بالإنسان إلى الإسراف الذى يفسد الشخصية ويؤدى بها إلى الترهل أو إلى الطغيان وكلاهما من الأمراض⁰ ولا القيد يؤدى إلى الامتناع البتة الذى يؤدى إلى الاضطرابات النفسية والعصبية والقلق وغيرها من الأمراض⁰

وأما بين الدنيا والآخرة فالتوازن كذلك مطلوب :

((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا))⁰⁽³⁾

لا رهبانية فى الإسلام⁰⁰

¹ سورة الأعراف : 32

² سورة الأعراف : 31

³ سورة القصص : 77

الرهبانية تعطيل لدفع الحياة، وتعطيل لدور الإنسان في عمارة الأرض وترقيتها وتحميلها، وتحقيق ((التسخير)) الذى منحه الله للإنسان ليؤدى به دور الخلافة في الأرض:

((وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه))⁽¹⁾0

وذلك فضلاً عن كون أصحابها لا يستقيمون عليها، إنما تعتل نفوسهم ويفسدون:

((ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين

آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون))⁽²⁾0

وفي الوقت ذاته، فإن الاستغراق فى المتاع الأرضى ونسيان الآخرة فتنة ضخمة يتعرض لها الإنسان إذا ترك نفسه على هواها، فينتهى به الأمر إلى البوار، لأنه لا يقف فى إشباع رغباته وشهواته عند الحد المأمون، وإنما يتجاوزها بما يهلكه فى الدنيا، ويجعل نصيبه فى الآخرة هو النار!

والمنهج الربانى يقول للإنسان: لا تحرك نفسك من المتاع المتاح، ولكن التزم فيه بالحدود التى حددها الله، فكل شىء جعل الله له حدوداً يعلم اللطيف الخبير أنها تحقق الخير وتمنع الشر، فأباح الطيبات وحرّم الخبائث ودعا إلى عدم الإسراف حتى فى المباح.. وفى الوقت ذاته، يركز المنهج الربانى تركيزاً شديداً على اليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، لأن اللطيف الخبير يعلم أن ذكرى اليوم الآخر هى الأداة الكبرى التى تساعد الإنسان على ضبط شهواته ورغباته، والوقوف بها عند الحلال الذى أحله الله، والقدر الذى أباحه الله؛ لأن القضية فى حس المؤمن تصبح موازنة بين الإنسيق وراء الشهوات، ويقابلها فى الآخرة عذاب لا قبل للإنسان باحتماله، والقناعة بالقدر المباح من المتاع، ويقابلها فى الآخرة جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فيقع ويرضى، وتطمئن نفسه، ولا يشعر بالحرمان، فضلاً عن الشعور بالرفعة والطهارة والارتقاء0

((إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها

ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً)56) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى

من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً))⁽¹⁾0

¹ سورة الجاثية : 13

² سورة الحديد : 27

وأما التوازن بين الفرد والجماعة، فهو من أبرز ومن أجمل سمات المنهج الرباني⁰⁰

إن الجاهليات كلها في القديم والحديث تنحى إلى أحد طرفي الميزان فيختل الطرف الآخر.. تنحى إلى تكبير الفرد، وتعطيه من ((الحقوق)) ومن ((الحریات)) ما يجعله يأخذ حجما أكبر مما ينبغي له، فيختل المجتمع في المقابل وتنحل روابطه، ثم يفسد الفرد ذاته بالتدليل الزائد عن الحد، فلا يجد مجتمعا يردعه، أو يرده إلى الجادة .. وأبرز مثال على ذلك المجتمعات ((الليبرالية)) في الجاهلية المعاصرة، التي انحلت أخلاقها، وتعان الناس فيها بالفاحشة سوية وشاذة، بحجة ((الحرية الشخصية)) الممنوحة لكل فرد، يصنع بها ما تمليه عليه شهواته، ويحرم على المجتمع أن يتدخل في الأمر.. وثم جاهليات أخرى تركز على المجتمع فتسحق الفرد وتكتم أنفاسه بحجة أن المجتمع هو الأصل، ومهمة الفرد هي خدمة المجتمع والمحافظة على تماسكه وترابطه⁰⁰

كلتا النظرتين جانحة، والظلم واقع فيها على الناس بصورة من الصور، سواء بطغيان الفرد الذي يفتت المجتمع، أو بطغيان المجتمع الذي يسحق الفرد⁰⁰

والإسلام ليس كذلك⁰⁰

إنه يعطى الفرد حقوقا و ضمانات، تحقق له كرامته، وتحقق له مجالا معقولا لنشاطه، فيستطيع أن ينشط كما يشاء، في الحدود التي لا تؤذى غيره، ولا تؤدي إلى الانحلال والتفسخ، فيختار التعليم الذي يناسبه، ويختار العمل الذي يناسبه، ويختار الزوجة التي تناسبه، والعلاقات التي تناسبه في الحدود التي لا توقع ضررا على غيره حسب قاعدة ((لا ضرر ولا ضرار)). فلا يباح له التملك بالغصب أو السرقة أو أكل أموال الناس بالباطل، ولا الربا ولا الاحتكار لأن هذا كله يوقع الضرر بالآخرين. ولا يباح له الفاحشة ولا مقدماتها التي تفضي إليها، ولا يباح له الغيبة ولا النميمة ولا التجسس ولا تتبع عورات الناس أو اقتحام خصوصياتهم.. وفي الوقت ذاته، يعطى المجتمع حق ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) بل يجعله واجبا تكليفيا على المجتمع، لكي لا يخرج الأفراد عن حدودهم، ولا يتسببوا في إيذاء المجموع. ويوجب على المجتمع التكافل، والتعاون على البر والتقوى، وإزالة المظالم، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا .. وكلها أعمال جماعية يقوم بها المجتمع⁰

ويفصّل الرسول ﷺ طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع في هذه الصورة الرائعة :

((مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا يبرون على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في مكاننا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))⁽¹⁾

والإسلام يصل إلى هذا التوازن بين الفرد والجماعة بطريقة غاية في البساطة وغاية في الإبداع كذلك 00 فهو ابتداء لا يعد العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة صراع وتضاد كما تعدّها الجاهليات سواء منها ما يرتكز على الفرد وما يرتكز على المجتمع. فالأولى ترى الفرد هو الأساس، وترى المجتمع هو القيد الذي يسعى إلى التضييق على الفرد وخنقه وكبته، ومن ثم تحيط الفرد بالضمانات التي تمنع المجتمع قدر الطاقة من التدخل في شأنه، حتى لو أهدم، أو حتى لو فسق، ما دام فسقه ((قانونياً))! والثانية ترى المجتمع هو الأساس، والفرد هو المتربص أبداً للعدوان عليه، والخروج على طاعته، فتظل تضع حوله القيود، وتهدده بالعقوبات!

والإسلام دين الفطرة 00

والفطرة – كما أشرنا آنفاً – تشتمل على نزعتين أصيلتين: نزعة فردية ونزعة جماعية، إحداهما تسعى إلى إثبات الذات والأخرى تسعى إلى الاجتماع بالآخرين. والنزعات الفطرية لاعداء بينها في الأصل، كما تكون في الفطرة السوية، إنما ينشأ الخلل حين تزيد جرعتها أو تنقص عن الوضع السوي، فيحدث المرض، مثلها كمثل إفرازات الجسم. فالجسم يكون في وضعه الصحيح طالما كل جهاز فيه يقوم بوظيفته الطبيعية بصورة سوية، ولكنه يمرض حين تختل بعض وظائفه بالنقص أو الزيادة. والنفس كذلك هي في وضعها الصحيح طالما كل جهاز أجهزتها يقوم بعمله الفطري في صورته الطبيعية، ولكنها تمرض حين تختل بعض وظائفها بالنقص أو الزيادة. وعند بعض الناس تنشط النزعة الفردية أكثر من اللازم،

¹ أخرجه البخاري 0

فيصبح الشخص أنانياً، وميالا إلى العدوان على حقوق الآخرين، أو تنشط النزعة الجماعية أكثر من اللازم، فيخنع، وتنبهم شخصيته، ويصير إمعة لا كيان له⁽¹⁾

والإسلام يهدف إلى أن تكون النفس في وضعها الفطري السوي، فيصبح الإنسان (في أحسن تقويم)⁽²⁾ كما خلقه الله، كما يسعى إلى علاج الخلل حين يحدث، بتوجيهاته التي تعيد التوازن إلى النفس، وتدفع بها إلى الرشد.. وعندئذ يتوازن الفرد والمجتمع، ويقبل الصراع إلى أدنى حد مستطاع ويحل محله التكافل والتعاون والترابط والتحاب:

((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر))⁽³⁾

وبهذه الألوان من التوازن: بين الرغبة والقيود، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والمجتمع، ينشئ الإسلام ((الإنسان الصالح)) الذي تعمر به الأرض⁰⁰

* * *

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر⁰⁰

ما مواصفات الإنسان الصالح؟

إنها مبثوثة في تضاعيف الكتاب⁰⁰ لا تكاد تخلوا سورة من السور قصيرة أو متوسطة أو طويلة من إشارة إلى صفة - أو مجموعة صفات - للإنسان الصالح، أو - من الجانب الآخر - صفة أو مجموعة صفات للإنسان المنحرف الذي يجذر القرآن الناس من أن يكونوه⁰⁰

وهنا يجيء دور ((الترغيب والترهيب)) في منهج التربية القرآني⁽⁴⁾

¹ انظر إن شئت حديثاً عن هذه النقطة في كتاب ((دراسات في النفس الإنسانية))، فصل ((خطوط متقابلة في النفس الإنسانية)) وكذلك فصلاً بنفس العنوان في كتاب ((منهج التربية

الإسلامية))⁰

² سورة التين : 4

³ متفق عليه 0

⁴ وفي السنة كذلك 0

خذ أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ :

((اقرأ باسم ربك الذى خلق(1) خلق الإنسان من علق(2) اقرأ وربك الأكرم(3) الذى علم بالقلم(4) علم الإنسان ما لم يعلم(5) كلا إن الإنسان ليطغى(6) أن رآه استغنى(7) إن إلى ربك الرجعى(8) أرأيت الذى ينهى(9) عبدا إذا صلى(10) أرأيت إن كان على الهدى(11) أو أمر بالتقوى(12) أرأيت إن كذب وتولى(13) ألم يعلم بأن الله يرى (14) كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية(15) ناصية كاذبة خاطئة ..))(1)

فهنا يوصف الإنسان المنحرف ببعض صفاته: إنه يطغى لأنه يتوهم أنه غنى عن الله، ويروح ينهى عبدا عن الصلاة والعبادة لربه، وفي الأخير يكذب وتولى، والقرآن يذكره بأنه راجع إلى ربه وهو ما غفل عنه فلج في طغيانه، وينذره بالعذاب الأليم فى الآخرة. كما يوصف الإنسان الصالح ببعض صفاته فهو عابد مصل، وهو مهتد إلى ربه ، أمر بالتقوى .. فتقابل الصفات، وتحدث العظات 00

فإذا كانت هذه أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ، فقد توالى نزول القرآن حتى تم التتريل، وفى كل سورة إشارة أو إشارات 00

خذ بعض النماذج، وارجع إلى كتاب الله تجد المزيد والمزيد والمزيد 00

((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (63) والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما(64) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما(65) إنها ساءت مستقرا ومقاما(66) والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما(67) والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما(68) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا(69) إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما(70) ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا(71) والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما(72) والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا(73) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين

واجعلنا للمتقين إماما(74) أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما(75) خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً))⁽¹⁾0

وخذ على الجانب الآخر :

((ولا تطع كل حلاف مهين(10) هماز مشاء بنميم(11) مناع للخير معتد أثيم(12) عتل بعد ذلك زنيم(13) أن كان ذا مال وبنين(14) إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين(15) سنسمه على الخراطوم))⁽²⁾0

وخذ هذه التوجيهات :

((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً(23) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيراً(24) ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا(25) وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً(26) إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً(27) وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً(28) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً(29) إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً(30) ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئنا كبيراً(31) ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً(32) ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً(33) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً(34) وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً(35) ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً(36) ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً(37) كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً(38) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً))⁽³⁾0

¹ سورة الفرقان : 63-76

² سورة القلم : 10-16

³ سورة الإسراء : 23-39

وخذ توجيهات في مجالات معينة يطلب لفت النظر لها والتركيز عليها:

((قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم(263) يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين(264) ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير))¹0

((كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون))²0

((وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا))³0

((يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل))⁴

وعشرات وعشرات وعشرات من التوجيهات، يتخرج على هداها الإنسان الصالح في مدرسة

القرآن 0

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر 00

هناك ما نستطيع أن نطلق عليه اسم ((دروس تربوية في القرآن الكريم))

والقرآن كله توجيهات تربوية، هدفها هداية الإنسان إلى ربه، ليعبده العبادة الحققة، فيستقيم حاله

في الدنيا والآخرة ويكون من الفائزين 0

¹ سورة البقرة : 263-265

² سورة البقرة : 216

³ سورة النساء : 19

⁴ سورة التوبة : 38

ولكن هذه التوجيهات أنواع مختلفة. فمنها توجيهات مباشرة، أوامر ونواه واضحة محددة: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا. ومنها ما يؤثر عن طريق الترغيب والترهيب: الترغيب في الخصال الحميدة والأفعال الحميدة، والترهيب من الخصال السيئة والأفعال السيئة. ومنها ما هو ((درس)) يعرض للعبارة، ويحتاج إلى تدبر لاستخلاص العبرة المطلوبة، وهذا الذى نريد الآن أن نعرض بعض النماذج منه لا على سبيل الحصر، ولكن على سبيل المثال 0

خذ هذا الدرس من سورة آل عمران :

((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب(190) الذين يذكرون الله قياماً وقيوماً وعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار(191) ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيتنا وما للظالمين من أنصار(192) ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاعف لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار(193) ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد(194) فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب))⁽¹⁾0

فهؤلاء قوم يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ((أولو الألباب))، وهو فى الحقيقة وصف للصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا على الصورة التى يصفها سبحانه فى هذه الآيات 00

فماذا يقول أولو الألباب هؤلاء وماذا يفعلون!؟

إنهم بادئ ذى بدء يذكرون الله قياماً وقيوماً وعوداً وعلى جنوبهم، أى أنهم لا يكفون عن ذكر الله فى جميع أحوالهم. ثم إنهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض، فيهددهم تفكيرهم إلى أن السموات والأرض لم تخلقا باطلاً، وإنما خلقتنا بالحق. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هى نهاية المطاف. فكم من ظالم فى الحياة الدنيا ظل ظالماً حتى القطرة الأخيرة من حياته ومات وهو ظالم. وكم من مظلوم ظل مظلوماً فى الحياة الدنيا حتى أحرقت قطرة من حياته ومات وهو مظلوم. فلو كانت

الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، فهل حق الحق الذى خلقت به السموات والأرض؟ كلا! إنما يحق الحق حين تكتمل الحلقة. حين يجئ اليوم الآخر فيجازى كل بما اكتسب فى الحياة الدنيا، فيعاقب الظالم، على ظلمه ويعوض المظلوم على صبره فى الحياة الدنيا0

و حين يصل تفكيرهم إلى هذه النقطة، يسارعون إلى التضرع إلى ربهم أن يقيهم عذاب النار. وكأنا يتقدمون بمؤهلات تسوغ ما طلبوا من ربهم من الوقاية من النار، فيقولون إنهم سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فأمنوا.. والمنادى هو الرسول ﷺ، وقد سارعوا إلى إجابة النداء بما توحى به الفاء فى قوله ((فآمنوا)) فالفاء تفيد التعقيب السريع0

ومن ثم يدعون ربهم أن يكفر عنهم سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار، ولا يخزيهم يوم القيامة، ويحقق لهم ما وعدهم على لسان الرسل من إدخال الصالحين الجنة 00

((فاستجاب لهم ربهم))0

هؤلاء قوم يتذكرون، ويتفكرون، ويتدبرون، ويتضرعون.. فلأى من هذه استجاب لهم ربهم؟! هل استجاب للتذكر وهو مجرد تذكر؟ أو للتفكر وهو مجرد تفكر؟ أو للتدبر وهو مجرد تدبر؟ أو للتضرع وهو مجرد تضرع؟!0

هنا الدرس التربوى 00

((فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى..))0

فالاستجابة هي على العمل، الذى انبثق عن التذكر والتفكر والتدبر والتضرع0

وإذ كانت سورة آل عمران كلها مشغولة بمعركة لا إله إلا الله، فقد اختير من الأعمال ما يناسب تلك المعركة الهائلة: ((فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقتلوا وقتلوا)).. هؤلاء هم الذين يكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة التى وعدها إياهم00

وتلك هي العبرة من الدرس المعروض00

المطلوب أن تتحول المشاعر والأفكار إلى عمل مشهود في واقع الحياة.. وعندئذ يستجيب رب

العالمين⁰

* * *

وخذ هذا الدرس الذى يتجه ذات الوجهة وإن كان فى جو مختلف :

((ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون))⁽¹⁾0

التوجيه هو ذات التوجيه 00

ليس الإيمان مجرد مظاهر .. إنما هو صدق فى العمل نابع من صدق فى المشاعر، فالأصل هو الاعتقاد الصحيح، الذى يقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، والذى يترجم إلى عمل مشهود فى واقع الأرض، يذكر منه هنا إيتاء المال ذوى القربى واليتامى والمساكين وبنان السبيل والسائلين وفى الرقاب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس.. سلوك كامل شامل ينبثق من العقيدة الصادقة ويشمل مساحات واسعة من المشاعر والتصرفات⁰⁰

من هنا كان من أعجب العجب أن يتسرب الفكر الإرجائى إلى هذه الأمة، ذلك الفكر الذى يقول إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان⁽²⁾، والذى يقول: ((من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام!))⁰

قالوا: إن الله يخرج من النار قوما لم يعملوا خيرا قط.. ولا حرج على فضل الله. ولكن انظر إلى حال الأمة إن قال كل واحد فيها أنا مؤمن ما دمت مصدقا ومقرا، ولا على أن أعمل ! كيف يكون

¹ سورة البقرة : 177 0

² المسمى ليس هو الاسم، إنما هو الشيء أو الشخص الذى يحمل الاسم. ومنه قولهم: اسم على مسمى، أى شخص يتصف بالصفات التى يدل عليها الاسم. ولكن كثيرا من الناس

يستخدمون لفظ المسمى ويقصدون به الاسم⁰

حالتها؟ إنها تكون ذلك الغناء الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، الذي تتداعى عليه الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها⁽¹⁾ 00 فهل تكون عندئذ هي الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، والتي تكون شاهدة على كل البشرية؟!

تستطيع الشجرة أن تعيش وتثمر وتمد أفرعها في الفضاء، وهي تحمل من بين أوراقها بضع أوراق صفراء.. ولكن يوم تقول كل ورقة في نفسها: من حقى أن أكون صفراء ذابلة وإن جفت المياه في عروقي مادمت لم أسقط على الأرض بعد، فكم تعيش هذه الشجرة على ظهر الأرض؟! وهل تكون حينئذ هي الشجرة الطيبة الموصوفة في كتاب الله: ((كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء(24) تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها))⁽²⁾، أم تكون شجرة متهاككة لا تؤتى أكلاً ولا تظل أحدا؟!

وإن كان ((مرجئة الفقهاء)) قد قالوا إن العمل ليس داخلا في مسمى ايمان ((يقصدون الاسم)) ولكنه مطلوب كالإيمان، فالخلاف معهم هين. وإنما المرجئة الذين أسقطوا العمل إسقاطا من الحساب وقالوا يكفى التصديق والإقرار ليكون الإنسان مؤمنا كإيمان جبريل (!) هؤلاء قدموا للأمة مرضا هو اليوم مستعص على العلاج.. إلا أن ترجع الأمة رجوعا صحيحا إلى كتاب الله، لتستوعب ما فيه من الدروس 0

* * *

وخذ هذا الدرس في مجال آخر في ذات الاتجاه :

((هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين(62) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم(63) يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين(64) يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال00))⁽³⁾ 0

النصر من عند الله :

((وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم))⁽¹⁾ 0

¹ قال عليه الصلاة والسلام: ((يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء السيل)). رواه أحمد وأبو داود 0

² سورة إبراهيم : 24،25

³ سورة الأنفال : 62-65

((إن ينصركم الله فلا غالب لكم))⁽²⁾ 0

ولكن عل من يتزل النصر من عند الله؟

إن هذه الآيات الأربع المتتالية من سورة الأنفال تحدث عن أربعة شروط أساسية للنصر 0

أو هذه الشروط أن يكون هناك مؤمنون.. والله لا يعجزه أن يقهر الأعداء بغير مؤمنين، وهو الذى يقول للشىء كن فيكون، ويقول سبحانه: ((وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض))⁽³⁾ ولكن هكذا اقتضت سنته: أن يكون هناك مؤمنون فى الأرض يدفع الله بهم الكفار، ويكونون ستاراً لقدراً لله، فقد قال سبحانه: ((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))⁽⁴⁾. وقال ((ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض))⁽⁵⁾ 0

وقال كذلك: ((فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم))⁽⁶⁾ 0

والشرط الثانى أن يكون هؤلاء المؤمنون متآلفة قلوبهم. فقال قال سبحانه: ((ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم))⁽⁷⁾ فتآلف القلوب شرط لتزل النصر من عند الله 0 وفى الآية الكريمة إشارة إلى نوع التآلف المطلوب، فليس هو التآلف على مصالح الأرض القريبة - حتى إن حدث ذلك التآلف فى واقع الأرض - إنا هو التآلف على العقيدة ((ولكن الله ألفت بينهم)). لا المال ولا غيره من مصالح الأرض 0

والشرط الثالث هو التجرد لله والتوكل الصادق عليه ((حسبك الله)). وعلى أحد التفسيرين يكون المعنى، حسبك الله ومن معك من المؤمنين، فإن التوكل الصادق لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب. ووجود المؤمنين مع الرسول ﷺ هو من الأسباب التى لا بد من اتخاذها مع التوكل على الله. وعلى التفسير

¹ سورة آل عمران : 126

² سورة آل عمران : 160

³ سورة فاطر : 44

⁴ سورة البقرة : 251

⁵ سورة محمد : 4

⁶ سورة الأنفال : 17

⁷ سورة الأنفال : 46

الآخر: حسبك الله، ومن معك من المؤمنين حسبهم الله كذلك. وعلى أى التفسيرين، فالتجرد لله مطلوب من أجل تنزل النصر⁰

والشرط الرابع هو الاستعداد للقتال حين يدعو الداعى إليه : ((يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال))⁽¹⁾0

وفي آيات أخرى فى كتاب الله ترد شروط أخرى تؤهل لتنزل النصر من عند الله، ولكن هذه الشروط الأربعة المذكورة فى سورة الأنفال أساسية فى جميع الأحوال⁰

وفى ذلك درس تربوى لهذه الأمة، وبالذات للذين لا يأبهون لهذه الشروط ولا يحققونها فى ذات أنفسهم، ثم يقولون: ما بال النصر لا يتزل علينا؟!.. ألسنا مؤمنين؟!!

* * *

وهذا الدرس فى مجال آخر، فى اتجاه آخر

((أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير(165) وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين(166) وليعلم الذين نافقوا))⁽²⁾0

الإشارة فى الآيات هى لهزيمة المسلمين فى أحد.. وقد كان فى وقعة أحد دروس كثيرة للمؤمنين، أبرزتها سورة آل عمران، ومنها هذا الدرس.. فقد بدأت المعركة بنصر المسلمين، ولكن الرماة الذين أمرهم رسول الله ﷺ ألا يغادروا أماكنهم بأى حال من الأحوال ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير، أباحوا لأنفسهم التصرف فى الأمر حين ظنوا أن المعركة قد انتهت، وخافوا أن يضيع نصيبهم من الغنائم، فحالفوا أمر الرسول ﷺ ونزلوا من فوق الجبل، فاعتنم الفرصة خالد بن الوليد- وكان يقاتل فى صفوف الكفار إذ لم يكن قد أسلم بعد - فكر بخيله من وراء الجبل وعاد يهاجم جيش المسلمين وهم بغير حماية، إذ كانت الحماية التى خطط لها القائد ﷺ هى الرماة من فوق جبل الرماة.. فوقع الهزيمة المرة التى قتل فيها سبعون من الصحابة فيهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وشج وجه الرسول ﷺ

¹ سورة الأنفال : 65

² سورة آل عمران : 165-167

وكسرت رباعيته.. فأصاب المؤمنين غم كبير وقالوا: أبن هذا؟! كيف وقع هذا؟ كيف هزمننا ونحن المؤمنون وهم الكفار؟!

وتترل القرآن يعطيهم الدرس، أو مجموعة الدروس 00

((ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة))⁽¹⁾ 0

فالتنازع، والاختلاف، وعصيان أمر القائد كان السبب في الهزيمة: ((قل هو من عند أنفسكم)) 0

ولكن الدرس لا ينتهي هنا 00

إن الله يقول لهم إن ما أصابهم يوم التقى الجمعان هو بإذن الله! وإن له حكمته عند اله: كى يتميز الصف، ويعلم المؤمنون، ويعلم المنافقون 00

وهذا فى ذاته درس هائل 00 فقدّر الله لا ينفى مسؤولية الإنسان عن عمله حين يخطئ! بل يظل مسؤولاً عن خطئه، وعن نتائج خطئه، ولا ينفى المسؤولية عنه أنه قدر مقدر من عند الله 0

درس ضد الاحتجاج بقدر الله لنفى مسؤولية الإنسان عن أخطائه.. ودعوة للإنسان أن يقوم بالعمل على وجهه الصحيح، فإذا جاء قدر الله على غير ما يرغب، فعندئذ يقول إنه قدر مقدور لا حيلة له فيه، ولكن يعلم فى الوقت ذاته أنه قدر له حكمته عند الله، سواء أدرك الحكمة فى لحظتها أم غابت عنه 00

وإذا تتبعنا السورة فسنجد درسا آخر :

((الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم(172) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل(173) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم))⁽²⁾ 0

¹ سورة آل عمران : 152

² سورة آل عمران : 172 - 174

إن وقع قدر الله على غير ما يرغب الإنسان ليس معناه القعود والاستكانة بحجة التسليم بقدر الله! إنما التسليم بقدر الله معناه ألا يتفطر قلب الإنسان ولا تذهب نفسه حسرات ويتوقف عن العمل، بل يعمل، متطلعا إلى قدر من الله جديد، يغير الله به من حال إلى حال. فهؤلاء الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى معاودة القتال، فذهبوا بجراحاتهم، من الله عليهم بأن جعل الأعداء ينكلون عن القتال، ويكتفون من الغنيمة بالإياب!

ومن قبل جاء في سياق السورة درس آخر :

((ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين))⁽¹⁾

فليست الهزيمة العسكرية مسوغا للانكسار النفسى ولا الهزيمة الداخلية، فاستعلاء المؤمن لا ينخدش بالظروف العارضة التي تعرض له، لأنه يعتز قبل كل شىء بالإيمان:

((وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين(146) وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين(147) فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين))⁽²⁾

وخذ هذا الدرس عن طبيعة العلاقة بين قدر الله وواجب الإنسان من زاوية أخرى:

((ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون(59) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون))⁽³⁾

¹ سورة آل عمران : 139

² سورة آل عمران : 146-148

³ سورة الأنفال : 59،60

فقد الله هنا في صالح المؤمنين. فهو يتوعد الذين كفروا بالهزيمة، لأنهم لا يسبقون قدر الله مهما كان لديهم من القوة، ولأن قوتهم لا تعجز الله. وقد قدر الله التمكين لهذا الدين، وللمؤمنين، حيث قال سبحانه: ((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً))⁽¹⁾0

فماذا يكون من أمر المؤمنين وقد أعلن الله لهم قدره المقدر :

((هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون))⁽²⁾0

أيتواكلون .. ويقولون : قد تكفل الله بهزيمة الكفار، فلنقعد ولننتظر وعد الله، والله لا يخلف الوعد :

((وعد الله لا يخلف الله وعده))⁽³⁾0

كلا! إن الآية التالية مباشرة للآية التالية مباشرة للآية التي أخبر الله فيها بهزيمة الكفار هي أمر للمؤمنين أن يعدوا القوة بكل ما يستطيعون من وسائل الإعداد 00

وقد يسأل سائل: وهل الله في حاجة لجهد المؤمنين لينفذ قدره بالقضاء على الكفار؟

كلا! ولكن - كما قلنا - هكذا اقتضت سنته .. أن يكون هناك مؤمنون مجاهدون يدفع الله بهم أهل الباطل، ويبيدهم الله البلاء الحسن على جهادهم، وإن كان هو الذى ينصرهم على أعدائهم..

وقد يسأل سائل: ولنفترض أن الناس تقاعسوا عن الجهاد، فهل يعجز الله عن إنفاذ وعده بسبب تقاعس الناس؟!

كلا ! ولكنه يجرى سنة أخرى من سنته :

((وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم))⁽¹⁾0

¹ سورة النور : 55

² سورة الصف : 9

³ سورة الروم : 6

((يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم))⁽²⁾0

وفي جميع الأحوال ينفذ الله قدره، ولكن من خلال سننه التي لا تتبدل:

((إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً))⁽³⁾0

وهذا درس في مجال مختلف 00

((وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين(44) ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين(45) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح))⁽⁴⁾0

لقد كان نوح قد تلقى وعداً من ربه أن أهله سينجون من الغرق إلا من سبق عليه القول:

((حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول))⁽⁵⁾0

ولقد نادى ابنه - وكان في معزل - فلم يصح للنداء وقال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء!

((ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين(42) قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين))⁽⁶⁾0

¹ سورة محمد : 38

² سورة المائدة : 54

³ سورة الطلاق : 3

⁴ سورة هود : 44-46

⁵ سورة هود : 40

⁶ سورة هود : 42 ، 43

ونجا نوح ومن معه، واستقروا على اليابسة. ولكن الفجيعة في ولده كانت ما تزال تثير لواعجه، فتوجه إلى ربه بهذا التساؤل الحزين: لقد وعدتني يارب أن ينجو أهلي، وها هو ذا ولدى قد غرق 00 ووعدك حق لا يخلف 00 فكيف حدث ما حدث؟!

ويجيئه الجواب الحاسم : ((يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح))⁽¹⁾ 0

يا لله! ما أعظم المفاجأة!

لم يقل له إنه ليس ولدك! فهو ولده من صلبه.. ولكن قال له : ((إنه ليس من أهلك)).. وعلل انقطاع الرابطة بينهما تعليلا واضحا: ((إنه عمل غير صالح)) 0

إن الرابطة التي يعدها الله سبحانه وتعالى ليست رابطة الدم 00 وإنما هي رابطة العقيدة. هي الرباط الأول والأقوى، هي العروة الوثقى.. هي التي تحكم الروابط جميعا.. فإذا انقطعت فلا باط!

((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون) (23) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين))⁽²⁾ 0

ورابطة الدم ليست ساقطة من الحساب، فالله يقول: ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله))(). ولكن متى؟ حين تتحقق الرابطة الأولى التي لا رابطة قبلها.. فإن اجتمع الكل على الإيمان، فأولو الأرحام – بحكم الفطرة – بعضهم أولى ببعض وأقرب لبعض 0 أما إذا افترق الطريق فلا يعود هناك رباط يربط على الإطلاق، بل يصير الرباط خروجاً على أمر الله، محرماً في دين الله 0

والعجب كل العجب لهذه الأمة حين دخلت في التيه، فنادت بالقومية والوطنية رباطاً يلغى رباط العقيدة، فخرجت عن أمرها ((ويحسبون أنهم مهتدون))⁽³⁾ 0 ولم تدرك أنه كان من كيد أعدائها لها للتخلي عن منبع قوتها الحقيقي وتصبح غثاء كثغاء بالسيل.. والدرس موجود في كتاب الله!

¹ سورة هود ك 46

² سورة التوبة : 23 ، 24

³ سورة الأنفال : 75

* * *

وهذا درس آخر في المجال نفسه، ولكن من مدخل مختلف:

((ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى

المصير))⁽¹⁾0

فهناك بادئ ذي بدء إشارة خاصة إلى دور الأم ومقامها واستحقاقاتها على أولادها. فالوصية هي للوالدين، ولكن الذى يذكر في السياق ذكرا مفصلا هو الأم، بما يوحى بأن حقها على أبنائها أكبر من حق أبيهم. وذلك ما فصله حديث الرسول ﷺ حين سأله سائل: من أولى الناس بحسن صحابتي قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك؟ قال: ثم من؟ قال أمك! قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك!

ولكن الدرس الذى نحن بصدده هو في مجال آخر من مجالات التربية الإسلامية.

فالوصية هي للوالدين: ((ووصينا الإنسان بوالديه))0

ولكن انظر موضوع الوصية: ((أن اشكر لي ولوالديك))0

درس هائل في الحقيقة 00

إن العلاقات كلها، بما فيها علاقات الأولاد بوالديهم، ليست مباشرة بين بعضهم وبعض! إن هناك علاقة سابقة، علاقة أقوى وأشمل، تندرج تحتها كل العلاقات، حتى العلاقات التى تنشئها رابطة الدم ورابطة الرحم 00 إنها العلاقة مع الله! ومن خلال تلك العلاقة الكبرى - وفى ظلها - تأتى كل علاقات البشر بعضهم ببعض 0

ويتضح من ذلك - ضمنا - أن أى علاقة تقوم بين إنسان وإنسان، لا تتصل ولا تنبع من تلك

العلاقة الكبرى فلا وزن لها فى المنهج الربانى، وهى ساقطة من الحساب!

ويتضح كذلك - ضمنا - 0 أن كل العلاقات بين البشر، التى يجب أن تكون متصلة بالعلاقة

الكبرى ونابعة منها، يجب أن تكون مصطبغة بصبغتها غير مناقضة لها ولا حائدة عنها:

((صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون))⁽¹⁾0

((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضی الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون))⁽²⁾0

وليس معنى ذلك أن علاقة المسلمين بغيرهم هي دائماً علاقة العداة والحرب:

((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين))⁽³⁾0

فالمعاملة الحسنة للآخرين - غير المحاربين - خلق إسلامي أصيل. ولكن البر والقسط شئ والموالة شئ آخر!

بر وقسط ، نعم ، ولكن لا ولاء!

((إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون))⁽⁴⁾0

وهذا درس فريد في مجال الإيمان :

((يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً))⁽⁵⁾0

¹ سورة لقمان : 14

² سورة البقرة : 138

³ سورة المجادلة : 22

⁴ سورة المائدة : 55

⁵ سورة النساء : 136

والذى يلفت النظر فى هذا الدرس أن المخاطبين الذين يطلب منهم الإيمان هم مؤمنون بالفعل! وهم مؤمنون بكل ما يطلب منهم الإيمان به، والدليل من الآية ذاتها أنهم يخاطبون بلقب الإيمان ((يا أيها الذين آمنوا)).. ولا يكونون مؤمنين – ولا يخاطبهم الله بلقب الإيمان – حتى يكونوا قد آمنوا بالفعل بالله ورسوله، والكتاب الذى نزل على رسوله، والكتاب الذى أنزل من قبل، والملائكة والنبين واليوم الآخر 00

فما دلالة التوجيه الرباني؟!

لو كان الخطاب لغير المؤمنين لكان بلا شك دعوة لهم إلى الإيمان . أما وهو خطاب للمؤمنين بالفعل، فالخطاب له معنى آخر 00

إنه دعوة لترسيخ الإيمان وتثبيته فى قلب المؤمن. وتذكير له بأن الإيمان ليس درسا يلقى ثم ينتقل منه إلى غيره. إنما هو درس يستوعب ثم ينتقل معه إلى غيره. درس دائم فى حياة المؤمن. درس لا ينبغى أن يغفل عنه ولا عن مقتضياته، ولا أن يفرط فيه، أو يتغافل عنه، أو يتقاعس عن تكاليفه الدائمة فى القلب والجوارح. فى الفكر والسلوك. فى الوجدان وفى واقع الحياة 0

وهذا يلفتنا إلى أمر له أهمية خاصة بالنسبة لهذه الأمة بالذات 00

إنها ليست مجرد أمة من الأمم. ولكن الله أخرجها لتكون ((خير أمة))، وليست مهمتها أن تهتدى فى ذات نفسها فحسب كغيرها من الأمم السابقة، بل أن تكون شاهدة على كل البشرية 0

((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))⁽¹⁾ 0

وذلك لأنها أمة خاتم النبين، الذى لن يجئ نبي بعده، والذى أرسل إلى البشرية كافة. وهى المكلفة بحمل رسالته من بعده. وأداتها الأولى فى حمل هذه الرسالة والقيام بتكاليفها هى صدق الإيمان، ورسوخ الإيمان، والحفاظة الدائمة على الإيمان 0

لذلك يخاطبهم – وهم مؤمنون – فيقول لهم ((آمنوا بالله ورسوله..)) 0

وبهذه المناسبة نقول إن عالمية الدعوة منصوص عليها نصاً صريحاً في الايات المكية ذاتها، ولم تكن ((تطوراً)) في فكر الرسول ﷺ بعد أن دانت له الجزيرة ودخل الناس أفواجا في دين الله كما يزعم المستشرقون في أباطيلهم. ففي السور المكية الأولى التي نزلت والمسلمون في مكة مشردون مضطهدون، والرسول ﷺ لا يجد من قريش أذنا صاغية، نزل قوله تعالى: ((وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون (51) وما هو إلا ذكر للعالمين))⁽¹⁾ وقوله تعالى: ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين))⁽²⁾ 0

كما يتوجه الخطاب في القرآن في أكثر من موضع إلى ((الإنسان)) لا إلى قوم بعينهم من بني الإنسان:

((يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم(6) الذي خلقك فسواك فعدلك(7) في أي صورة ما شاء ركبك))⁽³⁾ 0

((يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه))⁽⁴⁾ 0

فالمخاطبون المباشرون بهذه الآيات هم قريش، أو هم العرب، ولكنهم لا يخاطبون بوصفهم قريشاً بالذات، ولا بوصفهم عرباً، ولكن بوصفهم من بني ((الإنسان)) الذين توجه إليهم الدعوة جميعاً، فيسمعها منهم من يتاح له أن يسمع!

وكذلك يأتي الحديث عن ((الإنسان)) عامة في مثل قوله تعالى:

((وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض))⁽⁵⁾ 0

((إن الإنسان خلق هلوعاً(19) إذا مسه الشر جزوعاً(20) وإذا مسه الخير منوعاً(21) إلا

المصلين))⁽⁶⁾ 0

¹ سورة القلم : 51-52

² سورة الأنبياء : 107

³ سورة الأنفطار : 6-8

⁴ سورة الانشقاق : 6

⁵ سورة فصلت : 51

⁶ سورة المعارج : 19-22

((هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً⁽¹⁾) إنا خلقنا الإنسان نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً⁽¹⁾) 0⁽¹⁾

((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم⁽⁴⁾) ثم رددناه أسفل سافلين⁽⁵⁾) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون⁽²⁾) 0⁽²⁾

((والعصر⁽¹⁾) إن الإنسان لفي خسر⁽²⁾) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر⁽³⁾) 0⁽³⁾

ولكن ربما كانت أطف إشارة إلى أن المخاطب بهذا القرآن هو البشرية كلها- على سبيل القطع- وليس قوما معينين منها، هي التي وردت في موضعين اثنين، بصورتين مختلفتين، في آيتين مكيتين:

((وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون⁽⁴⁾) 0⁽⁴⁾

((إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية⁽⁵⁾) 0⁽⁵⁾

فالذين حملوا في الفلك المشحون لم يكونوا - قطعا - ذرية المخاطبين بهذا القرآن! سواء كانوا قريشا، أو من يتاح له من العرب أو يسمع، أو كل من استمع بعد ذلك! إنما كانوا ذرية البشرية الأولى على عهد نوح. والمحمولون في الجارية لم يكونوا كذلك هم العرب المخاطبين بالقرآن أول مرة، ولا غيرهم ممن جاء بعدهم. ولكن الله يقول لهم: ((حملناكم))! حملناكم يا بني الإنسان! فالخطاب موجه إلى البشرية كافة، من خلال كل من يستمع إلى الخطاب!

وهكذا تتأكد عالمية الدعوة، وعالمية الخطاب، وعالمية الرسالة، سواء بالنصوص المباشرة الصريحة، أو بالإشارة الصريحة، أو بالإشارة المتضمنة للمعنى، أو بالأوصاف التي تصف النوع الإنساني كله، ويدخل المخاطبون المباشرون فيها من بين المعنيين بالخطاب!

¹ سورة الإنسان : 2، 1

² سورة التين : 4-6

³ سورة العصر : 1-3

⁴ سورة يس : 41

⁵ سورة الحاقة : 11

ولقد كانت هذه التوجيهات كلها لونا من التربية لهذه الأمة، لتوسيع آفاقها، وإعدادها لرسالتها، لكيلا تنحصر في ذاتها، فضلا عن أن تنحصر في قبيلة أو عرق أو لون أو جنس أو لغة أو أرض - وإنما تتعامل مع ((الإنسان)) من حيث هو إنسان ملتزمة في الوقت ذاته بالمعيار الرباني. ((إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير))⁽¹⁾

* * *

وهناك دروس أخرى تأتي من خلال التقديم والتأخير في السياق نضرب لها الأمثلة الآتية:

(1) ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))⁽²⁾

يلاحظ في سياق الآية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدم - لفظاً - عن الإيمان بالله. والإيمان بالله لا يتقدم عليه شيء. تلك بديهية من بدهيات العقيدة. والمتدبر لكتاب الله يدرك التركيز الشديد في القرآن كله على هذه القضية، وأنها محور العقيدة، ومحور الدعوة، ومحور الرسالة التي أرسل بها الرسل جميعاً إلى أقوامهم. فما معنى تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - لفظاً - في الآية على الإيمان بالله؟

معناه أولاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء مهم في ذاته. يبلغ من أهميته أن يقدم -

لفظاً - على الإيمان بالله⁰

ومعناه كذلك أن حقيقة هذا الدين لا ترسخ في الأرض إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

حتى إن خيرية هذه الأمة تتقرر - أول ما تقرر - بكونها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر⁰

ويؤكد هذه الأهمية أن الأمة التي تقاعست عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنت في كتاب

الله : ((لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا

يعتدون(78) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون))⁽³⁾

¹ سورة الحجرات : 13

² سورة آل عمران : 110

³ سورة المائدة : 78 ، 79

فإذا كانت الخيرية هنا تركز على قيام الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واللعنة هناك سببها - أو من أسبابها - عدم قيام الأمة بتلك المهمة، فإن هذا يبين لنا مدى أهمية هذا الأمر في حياة الأمة. ذلك أن التفلت من التكاليف طبع موجود في البشر، فإن لم يعالج بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الفساد ((يظهر)) - أي يستشرى - في الأرض :

((ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس))⁽¹⁾0

والطريقة الوحيدة لمنع الفساد من الأرض هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدرجاته المختلفة، وباختلاف المكلفين بكل درجة من درجاته⁰⁰

وهذا هو الدرس الذي تبرزه الآية عن طريق تقديم لفظ على لفظ في السياق⁰

(2) ((قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من

المشركين))⁽²⁾0

هنا أيضاً قدم شيء في السياق على الإيمان.. فقوله تعالى: ((وسبحان الله وما أنا من المشركين)) هو الأمر المختص بالعقيدة. أي المختص بالإيمان. ولكننا نجد في السياق أن البصيرة قدمت - لفظاً - على الإيمان الذي لا يتقدم عليه شيء. فما معنى التقديم؟

معناه أولاً أن البصيرة أمر مهم في الدعوة، يبلغ من أهميته أن يقدم في السياق على قضية الإيمان

التي لا يتقدم عليها شيء⁰⁰ وتلك إشارة واضحة إلى أهميتها⁰

ومعناه ثانياً أن الدعوة إن لم تكن على بصيرة، فإنها لا تؤدي مهمتها المرجوة. وهذا أمر نلاحظه جيداً في وقتنا الحاضر، حيث يذهب كثير من الجهد الذي يبذله بعض الدعاة بلا مردود حقيقي، برغم إخلاصهم في الدعوة، لنقص عندهم في البصيرة، يجعلهم لا يسلكون بدعوتهم المسلك الذي يؤثر في النفوس، بل قد يؤدي أحياناً إلى انصراف الناس عنهم، وعدم الاستفادة من المادة الدعوية التي يقدمونها، وفي ذلك من الخسارة ما فيه .

¹ سورة الروم : 41

² سورة يوسف : 108

(3) ((من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فنحنينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون))⁽¹⁾0

((ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً))⁽²⁾0

((فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون))⁽³⁾0

((ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً))⁽⁴⁾0

((ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب))⁽⁵⁾0

في هذه الآيات كلها يتقدم العمل الصالح على الإيمان - لفظاً - في الآية. وقد قدمنا أن الإيمان لا يتقدم عليه شيء. فتقدم العمل هنا له دلالة.. بل دلالات!

الدلالة الأولى أنه ذو أهمية بالغة، حتى إنه يقدم على الإيمان لا في آية واحدة بل في آيات متعددة في كتاب الله 0

والدلالة الثالثة أنه لا يمكن أن يخرج العمل من مسمى الإيمان كما يزعم المرجئة، طالما كانت له هذه الأهمية الواضحة التي تجعله يتقدم على الإيمان في تلك الآيات 0

والدلالة الرابعة أنه لا يمكن أن يكون ((مغائراً)) لحقيقة الإيمان كما يزعم المرجئة كذلك، ويستدلون استدلالاً خاطئاً بأن واو العطف تقتضى المغايرة لأن الشيء لا يعطف على ذاته! مخالفين بذلك ما يعرفه البلاغيون وأهل اللغة من جواز عطف الخاص على العام، والعام على الخاص، كقوله تعالى :

¹ سورة النحل : 97

² سورة طه : 11

³ سورة الأنبياء : 94

⁴ سورة النساء : 124

⁵ سورة غافر : 40

((من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكايل فإن الله عدو للكافرين))⁽¹⁾. فجبريل وميكايل هما من الملائكة دون شك، وهما معطوفان في الآية على كلمة ((ملائكته))⁰

ثم إنه وردت في كتاب الله آيات تحدد المؤمنين الذين يدخلون الجنة بأنهم هم الذين يعملون الصالحات بغير فصل بين الأمرين ولا عطف، كقوله تعالى: ((ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً))⁽²⁾. وقوله تعالى: ((إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً))⁽³⁾. بما يؤكد أن العمل لا ينفصل عن الإيمان!

(4) ((الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به))⁽⁴⁾ 0

في هذه الآية تقدم ذكر التسييح على ذكر الإيمان. والدلالة الواضحة لذلك هي إبراز أهمية التسييح بالنسبة للمؤمن. فالؤمن لا بد أن يسبح الله. والتسييح بالسنة له هو نوع من العبادة التي يؤديها لله، بل هو عنوان العبادة ومقتضاها؛ فلا إيمان بغير تسييح. كما أن التسييح هو التعبير التلقائي عن الإيمان، وهو الأداة التي يتقرب بها العبد من ربه، فيقربه إليه، فيكون من الصالحين⁰

(5) ((إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي))⁽⁵⁾ 0

هذا موسى عليه السلام يكلمه ربه، فيشتاق إلى رؤية ربه، ويتوجه بهذه الرغبة إلى مولاه:

((ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين))⁽⁶⁾ 0

إنها تجربة هائلة تلك التي خاضها موسى عليه السلام، لا يطيقها إلا أولو العزم من الرسل. ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يقول له ((لن تراني)) وكفى، فذلك يحسم القضية لأن الله لا يراه أحد في الحياة الدنيا. ولكن الله أراد أن تمتلي روح موسى عليه السلام بمشاعر الرهبة تجاه ربه، ويعلم سبحانه أن

¹ سورة البقرة : 98

² سورة الكهف : 2

³ سورة الإسراء : 9

⁴ سورة غافر : 7

⁵ سورة الأعراف : 144

⁶ سورة الأعراف : 143

ذلك معين له في مهمة الدعوة التي أرسل من أجلها، فهي تعمق إيمانه، وتعمق طاقته في الدعوة، وتعيّنه على تحمل الجهد الذي تقتضيه الدعوة من الدعاة⁰⁰

ولما أفاق من الهول الذي غشيه حين اندك به الجبل وهو واقف يتربص برؤية ربه، كلمه ربه مرة أخرى ليطمئنه، ويزيل عنه آثار الهول الذي غشيه، ويتوقع الإنسان أن يقول له ربه إنه اصطفاه على الناس بتكليمه إياه.. وأي اجتناء أكبر من تكليم الله له؟ وأي رفع لدرجاته؟ وأي قربى إلى الله أعظم من هذه القرى؟! هذه القرى!؟

ولكننا نجد في السياق أن أمراً آخر قد قدم على هذا الشرف العظيم الذي تفضل الله به على موسى ! إنه الرسالة!

((إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي))⁰

الرسالة إذن هي المقدمة .. هي التشريف الأعظم، وهي التكريم الأعظم⁰⁰

نعم .. إن تكليم الله لموسى هو تكريم عظيم له، ولكن الأهمية الكبرى هي للرسالة. هي التي فيها الهدى للناس، لجمهور كبير من الناس..

التكليم أمر يعتز به موسى عليه السلام، ولكنه أمر يخصه وحده. أما الرسالة فلا تخصه وحده، وإنما يعم خيرها محيطاً واسعاً من البشر .. ولهذا تقدم في السياق!

(6) ((وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله))⁽¹⁾⁰

في الآية السابقة على هذه في السياق يحذر الله المؤمنين من الاستماع إلى الخبثاء من أهل الكتاب، الذين يسعون إلى إغواء المسلمين عن دينهم، حسداً وحقداً:

((يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين))⁽²⁾⁰

وقد تكرر هذا التحذير في أكثر من آية :

¹ سورة آل عمران : 101

² سورة آل عمران : 100

((ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم))⁽¹⁾ 0

((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد

ما تبين لهم الحق))⁽²⁾ 0

ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم - تنبيها وتحذيرا - كيف تكفرون ورسول الله بين ظهرانيكم؟! فلا شك في أن وجود الرسول ﷺ بشخصه بين المؤمنين كان له أعظم الأثر في تنشئة ذلك الجيل الفريد - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - الذى رباه الرسول ﷺ على عينه، والذى بلغ الذروة في قوة ايمان ورسوخه، اقتداء بالرسول ﷺ، وتأثرا بالمثل الحى أمامهم، الذى تجسد في شخصه الكريم كل ما في القرآن من توجيهات وتعليمات، حتى لتقول عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق الرسول ﷺ : ((كان خلقه القرآن))⁽³⁾ 0

ولكن السياق يظهر لنا أن هناك أمرا آخر تقدم على وجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم بين المؤمنين.. إنه آيات الله التى تتلى عليهم!

آيات الله المتلوة عليهم هى ركيزة الإيمان الأولى، ووجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ركيزة إضافية، ولكنها ليست هى الأصل!

والرسول ﷺ ذاهب إلى ربه ذات يوم :

((إنك ميت وإنهم ميتون))⁽⁴⁾ 0

ولكن العنصر الدائم المصاحب لهذه الأمة فى مسيرتها هو آيات الله.. هو القرآن المتزل عليهم. ومن ثم يقول الله لهم: ((وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله)) ثم يقول لهم : ((وفىكم رسوله)) 0

¹ سورة البقرة : 120

² سورة البقرة : 109

³ أخرجه أحمد 0

⁴ سورة الزمر : 0 30

آيات الله هي منبع الإيمان. وهى الحصن الحصين الذى يحمى المسلمين من كيد الأعداء حين يتمسكون بها ويعملون بمقتضاها :

((إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط))⁽¹⁾0

(7) ((لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم))⁽²⁾0

هؤلاء قوم من الكفار الذين حل بهم عقاب من الله فى الدنيا يقول الله عنهم :

((وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين(11) فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون))⁽³⁾0

أى أنهم تركوا مساكنهم خوفاً وهلعاً من مصيبة حلت بهم: رجفة أو صيحة أو زلزال عنيف، أو ما يكون من الوسائل التى يرسلها الله على الكفار عقاباً لهم على كفرهم.. والله يوجه لهم القول، فيقول لهم: ((لا تركضوا)) ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم: ارجعوا إلى مساكنكم التى ركضتم منها خوفاً وهلعاً، فسوف تسألون عن كفركم وجرائمكم..

ولكن السياق يخبرنا بشيء آخر غير المساكن.. قبل المساكن.. يطلب منهم الرجوع إليه من باب السخرية بهم والتبكييت لهم: إنه ((ما أترفتم فيه))!

((وارجعوا إلى ما أترفتم فيه))، فذلك هو الذى جعل الله يسلط عليكم عقابه، وهو الذى يؤدى

بكم إلى الهلاك 0

تلك نماذج من نوع خاص من التوجيهات 00

دروس تربوية، يبرز الدرس فيها من خلال تقديم كلمة واحدة فى السياق 0

¹ سورة آل عمران : 120

² سورة الأنبياء : 13

³ سورة الأنبياء : 11، 12

وتعالوا نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر 00

إن القرآن حافل بقصص الأنبياء .. ترد في سور شتى ولأغراض شتى. ولنأخذ نموذجاً منها ما جاء في سورة الأعراف :

((لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (59) قال الملائ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين(60) قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين(61) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون(62) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون(63) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إهم كانوا قوماً عمين(64) وإلى عاد أحاهم هودا قال يا قوم من اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون(65) قال الملائ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين(66) قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين(67) أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين(68) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون(69) قالوا أجبثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين(70) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين(71) فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين(72) وإلى ثمود أحاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم(73) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين(74) قال الملائ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون(75) قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون(76) فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين(77) فأخذهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين(78) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين(79) ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين(80) إنكم

لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون(81) وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون(82) فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين(83) وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين(84) وإلى مدين أحاهم شعبياً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين(85) ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين(86) وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين(87) قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودون في ملتنا قال أو لو كنا كارهين(88) قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين(89) وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون(90) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين(91) الذين كذبوا شعبياً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين(92) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين))⁽¹⁾0

واضح من السياق جملة أمور 00

فالرسل جميعا أرسلوا إلى أقوامهم بكلمة واحدة، وقضية واحدة: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره

00

هذه هي قضية الرسل جميعا، وهذه هي قضية الوجود كله.. قضية الإله الواحد الذى لا إله غيره،

والذى لا ينبغي أن يعبد غيره 00

وقد أسلفنا أن الرسل لم يرسلوا ليقولوا للناس إن هناك إلهاً، فالفطرة تدرك ذلك من غير إرسال

رسول :

((وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا))⁽¹⁾ 0

ولا أرسل الرسل ليقولوا للناس اعبدوا إلهكم .. فالفطرة تتجه إلى عبادة الإله الذى تؤمن به من غير إرسال رسول، لأن الدين فطرة، والعبادة للإله مركوزة فى الفطرة 0

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا : ((ابعدوا الله ما لكم من إله غيره)) 00

إنها قضية التوحيد 00 وليست قضية الإقرار بوجود إله 0

والضلالة الكبرى التى وقعت فيها البشرية فى تاريخها الطويل هى ضلالة الشرك، وليست ضلالة إنكار وجود الله، باستثناء الجاهلية المعاصرة التى أغواها ((شعب الله المختار))⁽²⁾!

ثم كان مع تلك الضلالة الكبرى ضلالات موازية، سواء فى تصور الإله على غير حقيقته، أو إنكار الوحي المنزل من الله على رسله، أو إنكار البعث والحساب، أو اتباع غير ما أنزل الله 00

وكلها ضلالات يقع فيها البشر فى جاهليتهم، فيرسل الله لهم الرسل ليهدوا إلى الحق، ويعبدوا الله وحده، ويصدقوا ما جاءت به رسلمهم، ويتبعوا ما أنزل الله 00

كما يتضح من السياق أن الأقوام كلهم كذبوا رسلمهم، وأبوا أن ينقادوا لهم، وطالبوهم ببينة تثبت دعواهم أنهم رسل من عند الله، فلما جاءهم البينات أصروا على كفرهم وتكذيبهم وأبو الانقياد !

إنها إذن ليست مرة عارضة فى تاريخ البشرية.. إنها قصة مكرورة منتظمة الحدوث :

((كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون(52) أتواصوا به بل هم قوم طاغون))⁽³⁾ 0

((يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزون))⁽⁴⁾ 0

¹ سورة الأعراف : 172

² اقرأ إن شئت فصل ((دور اليهود فى إفساد أوربا)) من كتاب ((مذاهب فكرية معاصرة)) 0

³ سورة الذاريات : 52 ، 53

⁴ سورة يس : 30

((ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل
كذلك نطبع على قلوب المعتدين))⁽¹⁾0

الدروس التي تحملها قصص الأنبياء هي دروس موجهة للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ولكنها
موجهة إلى الدعاة خاصة، الذين هم ورثة الأنبياء، فإن لهم فيها عبراً قد لا يدركها غيرهم، أولاً يعيرها
التفاتاً00

الدرس الأول أن أهم ما تقوم عليه حياة الناس هو العقيدة 00

إن الطعام والشراب وغيره من ألوان النشاط الحسى لهى أمور يشترك فيها الإنسان والحيوان، وإن
كان الإنسان ينبغى أن يمارسها على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان⁽²⁾!

ولكن الإنسان - الذى كرمه ربه - لم يكن قط مجرد قبضة الطين. إنما هو صار إنساناً بالنفخة
العلوية فيه :

((إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين(71) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا
له ساجدين))⁽³⁾0

فالنفخة العلوية من روح الله هى التى جعلته إنساناً، وهى التى منحتة الوعى والإرادة والحريية -
عناصر الإنسان الأصيلة - وهى التى جعلته موضع التكريم الإلهى، وأسجدت له الملائكة:

((ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن
خلقنا تفضيلاً))⁽⁴⁾0

((وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين))⁽⁵⁾0

¹ سورة يونس : 74

² راجع إن شئت كتاب ((دراسات فى النفس الإنسانية))

³ سورة ص : 72، 71

⁴ سورة الإسراء : 70

⁵ سورة البقرة : 34

وأول مقتضياتها عبادة الله على بصيرة ووعى وإرادة.. وذلك هو الدين القيم المركز في الفطرة .. الفطرة السوية:

((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))⁽¹⁾ 0

ولكن قوما من البشر تفسد فطرتهم، فينطفئ في أرواحهم ذلك النور الذى تبعثه النفخة العلوية في روح الإنسان، فيفقدون إنسانيتهم، ويصبحون كالأنعام، بل هم أضل:

((ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))⁽²⁾ 0

ومن ثم ينقسم الناس تجاه الحقيقة الكبرى، حقيقة الألوهية، إلى قسمين اثنين:

((هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن 00))⁽³⁾ 0

منهم من يعبد الله، ومنهم من يعبد الشيطان.. وكل عبادة لغير الله هى من عبادة الشيطان؛ لأنه هو الذى يوحى بها للناس:

((ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين(60) وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم))⁽⁴⁾ 0

ويرسل الله الرسل لهداية الناس إلى ربهم، فيستجيب الذين يسمعون يستجيب أصحاب الفطر السليمة، ويقف مطموسو البصيرة الذين انتكست فطرتهم يعاندون الدين ويعادون المرسلين.

ذلك هو الدرس الأول ..

¹ سورة الروم : 30

² سورة الأعراف : 179

³ سورة التغابن : 2

⁴ سورة يس : 61، 60

والدرس الثاني أن أول من يتصدى لدعوة الرسل هم ((الملائكة)).. ثم تتبعهم ((الجماهير)) الضالة المضللة!

ولم تتخلف هذه الظاهرة مع أى رسول أرسل إلى الناس!

((لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم(59) قال الملائكة من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين))⁽¹⁾ 0

((وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون(65) قال الملائكة الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين))⁽²⁾ 0

((وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم..))⁽³⁾. ((قال الملائكة الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون(75) قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون))⁽⁴⁾

((وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم..))⁽⁵⁾. ((قال الملائكة الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا))⁽⁶⁾ 0

إن الملائكة لا يصددهم عن الهدى مجرى انطماس البصيرة، ولا مجرد اتباع عرف الآباء والأجداد، ولا مجرد النفور من شىء لم يألفوه.. فهذه كلها قد تفعل فعلها مع ((الجماهير)) فتصددها عن الهدى بآدى ذى بدء إلا من فتح الله بصيرته. أما الملائكة فقد يشاركون الجماهير فى ضلالهم، ولكن لهم سبباً خاصاً بهم، يجعلهم يقفون ضد دعوة لا إله إلا الله، ويتصدون لها أول المتصددين.. إنها قضية الولاء.. قضية السلطان! فهم يريدون الولاء والسلطة لهم، بينما لا إله إلا الله تجعل الولاء والسلطان لله.. ودون ذلك وتندق الأعناق! إن لهم سلطة على ((الجماهير)) - على الذين استضعفوا - يوجهونهم كما شاءوا،

¹ سورة الأعراف: 59،60

² سورة الأعراف: 65،66

³ سورة الأعراف: 73

⁴ سورة الأعراف: 75،76

⁵ سورة الأعراف: 85

⁶ سورة الأعراف: 88

ويشعرون لهم ما شاءوا، وتطيعهم هذه الجماهير المستضعفة فيتألمون عليها، ويشعرون بنشوة السلطان بنشوة السلطان القاهر عليها، فتجئ دعوة لا إله إلا الله، فتد الألوهية لله وحده، والسلطان له وحده، والطاعة المطلقة له وحده، وهم لا طاعة لهم إلا فيما يطيعون هم ربهم فيه:

((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً))⁽¹⁾0

ومعنى ذلك سلبهم أعز ما يعتزون به، وأشد ما يبعث الكبرياء في نفوسهم، وتنتشى له أحاسيسهم.. فيقفون للدعوة أول الواقفين، ويصرون ويعاندون..

والدرس الثالث أن طلبهم الآية التي تثبت صدق ما يدعيه الرسول من كونه مرسلًا من عند الله، لا ينبع في الحقيقة من الرغبة في التثبيت والاستيثاق قبل اتخاذ القرار.. فلو أنه كان كذلك لكان المسلك الطبيعي والسوى أن يؤمنوا حين تجيئهم الآية.. إنما هو مجرد تكأة للصد وعدم الانقياد.. فإذا جاءت الآية التي علقوا إيمانهم عليها زادوا عنادا وإصراراً واستكباراً ليغطوا على الحرج الذي يحسونه في دخيلة أنفسهم من وضوح الحق وانكشاف الباطل وأنه لا يستند على شئ حقيقى⁰⁰

والدرس الرابع أن الملاء لا يكتفون تجاه دعوة لا إله إلا الله بالصد والتكذيب، والتشهير والتشويه، إنما يتعدون ذلك إلى الإيذاء! ويشدد الإيذاء كلما استجاب للدعوة نفر من ((المستضعفين)).. لأن معنى استجابتهم أنهم خرجوا على ألوهيتهم المزعومة، واستقلوا بكيانهم عن سلطانهم، أى لم يعودوا خاضعين - نفسياً على الأقل - لسيطرتهم! وأى شئ يمكن أن يتقبل إلا هذا! حتى وإن أعلن الدعاة المسالمة، وطلبوا المهادنة :

((وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين(87) قال الملاء الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا 00))⁽²⁾0

¹ سورة النساء : 59

² سورة الأعراف : 87، 88

والدرس الخامس أن الرسل وأتباعهم الذين آمنوا لا يتخلون عن الحق بسبب ما يتعرضون له من الإيذاء، لأن الحق أغلى عليهم حتى من أنفسهم؛ وتعلقهم برهم، حبا وخشية، أقوى من كل عوامل الضغط والإرهاب الذي يواجههم، ولأنهم - بعمق إيمانهم - يدركون أن الأمر بيد الله وليس بيد البشر، مهما بدا في ظاهر الأمر من جبروتهم، فيتوكلون عليه وحده، ويتوجهون إليه وحده بطلب النجاة من قبضة الأعداء :

((وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فيتوكل المتوكلون))⁽¹⁾ 0

((ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين))⁽²⁾ 0

والدرس السادس أن الباطل ينتفش فترة من الوقت - بقدر من الله - ثم يأتي نصر الله، فيزهق الباطل، وينتصر الحق ويثبت ويتمكن:

((فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض))⁽³⁾ 0

والدرس السابع أن الفترة التي ينتفش فيها الباطل - بقدر من الله - هي فترة التمحيص للمؤمنين، التي تسبق محق الكافرين، ولها حكمتها عند الله :

((وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين))⁽⁴⁾ 0

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))⁽⁵⁾ 0

¹ سورة إبراهيم : 12

² سورة الأنعام : 34

³ سورة الرعد : 17

⁴ سورة آل عمران : 141

⁵ سورة العنكبوت : 2،3

وليس عن قلى من الله للذين آمنوا به يتركهم يبتلون ويعذبون ويضطهدون على يد الكفار.. ولكن حتى تصفو نفوسهم من كدرها، وتعلق بالله وحده، وتتوكل عليه وحده، وتتجرد له. فإذا علم الله من نفوسهم أنها خلصت له، ولم يعد حب الدنيا يشغلهم عن ربهم وعبادتهم وآخرتهم، مكن لهم وهم مهيتون نفسيا للتمكين، بمعنى أن التمكين لا يطغيهم في الأرض لأنهم باعوا الحياة الدنيا، ولا يفسد مشاعرهم لأنهم تجردوا لله، وتعلقوا به حبا ورهبة: ((ويرجون رحمته ويخافون عذابه))⁽¹⁾.. فينشرون العدل والسلام في الأرض، ويقومون بحراسة الحق: ((الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور))⁽²⁾

والدروس لا تحصى 00

ولكننا نختار درسا معيننا نختم به حديثنا في هذه الفقرة 00

إنه قصة فرعون 00

وربما كانت قصة فرعون أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم، فقد ذكر في القرآن أربعاً وسبعين مرة⁽³⁾. وفرعون من أشد الطغاة طغيانا في التاريخ.. ويكفى أن نعرف من جبروته أن موسى عليه السلام حين أمره ربه أن يذهب إلى فرعون ليطلب منه إطلاق سراح بني إسرائيل، أدركه الخوف، وطلب من ربه أن يعينه بأخيه هارون، فآتاه الله ما سأل، وأرسل معه أخاه هارون، وأمرهما أن يذهبا إلى فرعون، فأعلنا - معاً - خوفهما من المواجهة!

((اذهب إلى فرعون إنه طغى(24) قال رب اشرح لي صدري (25) ويسر لي أمري(26) واحلل عقدة من لساني(27) يفقهوا قولي (28) واجعل لي وزيرا من أهلي(29) هرون أخى (30) اشدد به أزرى(31) واشركه في أمري(32) كى نسبحك كثيرا(33) ونذكرك كثيرا(34) إنك كنت بنا بصيرا(35) قال قد أوتيت سؤالك يا موسى))⁽⁴⁾ 000

¹ سورة الإسراء : 57

² سورة الحج : 41

³ انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم محمد فواد عبد الباقي 0

⁴ سورة طه : 24 - 36

ذكرى (42) اذهبا إلى فرعون إنه طغى (43) فقولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى (44) قالا ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (45) قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى))⁽¹⁾ 0

فماذا كان من أمر السحرة حين آمنوا، فهددهم فرعون بأنه سيقتلهم ويصلبهم في جذوع

النخل:

((00 فلاقطعن أيديكم من خلاف ولأصلبكنم في جذوع النخل ولتعلمن أينما أشد عذاباً

وأبقى))⁽²⁾ 0

كيف استعلى الإيمان في قلوبهم على كل متاع الأرض، وكل مخاوف الأرض!؟

((قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه

الحياة الدنيا (72) إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى))⁽³⁾

إنها الروعة التي تجل عن التعبير!

وبهذه المناسبة، نقول إن هناك درساً للدعاة خاصة في قصة سحرة فرعون، وأصحاب الأعداء،

وأصحاب الكهف 00 فهؤلاء آمنوا، ثم ذهبوا ضحايا الظلم والطغيان، ولم يمكنوا في الأض 00

والقصص في القرآن لا يرد لمجرد تسجيل الوقائع التاريخية، وإنما للعبارة 00

فما العبرة من إيراد هذه القصص الثلاث في وسط الحشد الضخم من قصص الأنبياء الذين مكن

الله لهم، وأنجاهم من أعدائهم، ودمر على الطغاة بشتى الوسائل:

((فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا

به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون))⁽⁴⁾ 0

¹ سورة طه : 42-46

² سورة طه : 71

³ سورة طه : 72 ، 73

⁴ سورة العنكبوت : 40

العبرة – للدعاة خاصة – أنه ليس من الضروري في كل مرة أن يمكن الله لأشخاص المؤمنين في أعمارهم الدنيوية المحدودة .. ولكنه – في كل مرة – يمكن للدعوة!

إن هؤلاء الذين قضى عليهم الطغيان فلم يمكنوا في الأرض، ولم يروا النصر متحققاً لأشخاصهم في عمرهم المحدود .. هؤلاء لم يذهبوا .. إنهم زاد ضخماً لدعوة الحق.. زاد باق في الذكر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. زاد يملأ قلوباً من قلوب المؤمنين جيلاً وراء جيل، فيستصغرون الحياة الدنيا، ويرتفعون بإيمانهم على كل متاع الأرض، وعلى كل مخاوف الأرض، فيقفون بشجاعة وصبر وإيمان في وجه الباطل، ويضحون بأنفسهم لتكون كلمة الله هي العليا00

كلا! لم يذهبوا! حتى في الأرض لم يذهبوا .. فضلاً عن جنات الخلد في الآخرة :

((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون))⁽¹⁾0

((إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق))⁽¹⁰⁾ إن

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير))⁽²⁾0

((وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين))⁽³⁾0

يلفت النظر في قصص الأقسام السابقين في كتاب الله ذلك الحديث المطول المفصل عن بنى

إسرائيل 0

وفي قصصهم دروس وعبر 00

((لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه

وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون))⁽⁴⁾0

¹ سورة آل عمران : 169

² سورة البروج : 10، 11

³ سورة آل عمران : 140

⁴ سورة يوسف : 111

إن بنى إسرائيل أمة اختارها الله، وأنزل إليها كتاباً مفصلاً، ومكن لها - بكتابتها - فترة من الزمن في الأرض، فقام لها ملك، وامتد لها سلطان، وأفاض الله عليها من نعمه 00 ثم 00؟

ثم كفرت بأنعم الله، وعتت عن أمر ربها، وأفسدت في الأرض، وضلت وأضلت، فترع الله منها العهد، ومنحه لأمة أخرى 00

وهذه الأمة - أمة محمد ﷺ - اختارها الله، وأنزل إليها كتاباً مفصلاً، ومكن لها - بكتابتها - فترة من الزمن في الأرض 00 فهي تحذر - من خلال قصة بنى إسرائيل المعروضة في الكتاب المتزل عليها - من أن تفعل مثلما فعلت الأمة الأولى فيترع منها العهد 00 وسنة الله لا تحابي 00

ومما يؤسف له أن الأمة الثانية انخرفت - رغم التحذير - وإن لم تصل قط إلى ما وصلت إليه الأمة الأولى، وتحقق فيها ما أخبر عنه رسولها ﷺ : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟! قال: فمن؟!))⁽¹⁾ 0

ونأخذ بالذات ذلك الوصف الذي أشرنا إليه من قبل في فل ((الإعجاز البياني)):

((فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأثم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون))⁽²⁾ 0

فماذا فعلت الأمة الثانية بكتابتها الذي مكنها الله به قرونا ممتدة في التاريخ؟

لقد تحول في حس كثير من أبنائها في جيل الغناء هذا إلى تراث 00

تراث من عهد الآباء والأجداد - كانوا - يطبقونه في واقع حياتهم ويلتزمون به، فخلف من بعدهم خلف يحفظونه تراثا ولكن لا يعملون به، ولا يطبقونه في واقع حياتهم، ولا يعدونه مصدر التلقى ولا منهج الحياة. إنما مصدر التلقى عندهم هو ((الحضارة الغربية)) ومنهج الحياة هو ما يسير عليه الغرب

¹ أخرجه مسلم

² سورة الأعراف : 169 0

في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر 00 وليتهم يجيدون تقليد الغرب في إيجابياته .. لكنهم يقلدونه في سلبياته، ويدخلون مثله في جحر الضب!

وتشغلهم الحياة الدنيا فيأخذون عرض هذا الأدب، ثم يقولون: سيغفر لنا! ((أمة محمد بخير))!!
((يا بختنا بالنبي))!!

وعلى أى أساس يتوقعون الغفران؟ على أساس ما لديهم من ((التراث))! فهم ((أمة القرآن))، وهم ((حفاظ القرآن)) وهم قراؤه!

أما العمل بمقتضاه، ففضية أخرى .. وربك غفور رحيم!

نعم .. إن الله لا يترك هذه الأمة تنفلت من دينها كما تفلتت أمم سابقة:

((يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها))⁽¹⁾0

ولكن أين هي اليوم من رسالتها التي أخرجها الله لتؤديها؟ :

((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))⁽²⁾0

منا أحوج الأمة إلى أن تعي الدرس 00 والدروس كلها في كتاب الله 00

ولنعترف غرفة أخرى من البحر الزاخر 00

ولنتأمل حديث القرآن على السنن الربانية التي يجربها الله في حياة البشر، والتي قال عنها سبحانه

إنها لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحدا من البشر :

((00 فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا))⁽³⁾0

¹ رواه أبو داود والحاكم في المستدرک

² سورة البقرة : 143

³ سورة فاطر : 43

((وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين))⁽¹⁾0

((ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً))⁽²⁾0

((وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير))⁽³⁾0

ونسأل بادئ ذى بدء : ما علاقة الحديث عن السنن الربانية بمنهج التربية القرآني، وبالإعجاز التربوي في القرآن؟

إن الله لا يورد الحديث عن السنن في كتابه المتزل مجرد إثبات الحقائق، وإنما لهدف تربوي وراء ذلك . ولقد تحدثنا من قبل عن إجابة القرآن الكريم عن أسئلة الفطرة التي تلح عليها بوعى أو بغير وعى: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ تلك الأسئلة التي إن لم تتلق إجابة واضحة محددة بعثت القلق والاضطراب والحيرة في النفوس، وأدت - في كثير من جاهليات الأرض - إلى ضلال كبير .. أوضحه ما تعانيه الجاهلية المعاصرة من القلق والأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار، وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة 00

وهنا نقول إن القرآن لم يكتف بإعطاء ((رعوس المسائل)) في ((دليل الرحلة)) التي يقوم بها البشر على الأرض، بإعطاء إجابة واضحة عن أسئلة الفطرة، بل مضى شوطاً آخر في ((البيان)) فبين للبشر خطوطاً أدق في ذلك الدليل، فبين لهم الطرق والمسالك، وبين لهم ما يؤدي إليه كل طريق يسلكه السالكون، حتى يعرفوا من مبدأ الطريق ما الذي تنتهي إليه نهايته، وماذا يجدون في أثناءه فيختاروا لأنفسهم على بصيرة، ولا يكون أمرهم عليهم غمة وهم يختارون الطريق، ويتحملوا مسئوليتهم كاملة عن اختياره :

¹ سورة البقرة : 124

² سورة النساء : 123

³ سورة المائدة : 18

((بل الإنسان على نفسه بصيرة(14) ولو ألقى معاذيره))⁽¹⁾0

((رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل))⁽²⁾0

و((السنن) هي تلك الطرق.. التي يؤدي كل منها إلى نهاية محددة في الحياة الدنيا، تترتب عليها

نتيجة محددة في الآخرة 0

ومن رحمة الله بالبشر أن ثبت لهم هذه السنن، وإلا فلو كانت غير ثابتة فأى ارتباك يمكن أن يصيب البشر في رحلتهم، حين يسلكون طريقاً قبيحاً لهم إنه يؤدي إلى غاية معينة، فيجدون أنفسهم إزاء غاية أخرى غير التي اختاروا الطريق من أجلها؟

ومشيئة الله طليقة لا قيد عليها، يرتب ما شاء من النتائج على ما شاء من الأسباب، ولكنه رحمة منه بعباده، وتيسيراً لهم في رحلتهم في الحياة الدنيا، قد ثبت لهم سننهم ليسلكوها على بصيرة، وليحملوا مسئوليتهم كذلك كاملة يوم القيامة 0

ومن رحمته كذلك، أن بين لهم هذه السنن في كتابه المتزل، فلم يرد لهم أن يضيعوا الجهد في التعرف على تلك السنن، حتى إذا عرفوها كان جهدهم قد أنهك في المحاولة والخطأ، ويكون الأوان قد فات! بل أراد لهم أن يكون جهدهم مبدولاً في الحركة المثمرة في الطرق التي وضحها لهم وبين لهم عواقبها، حتى يفوزوا بأفضل النتائج في عمرهم المحدود 0

ولم يخف الله عنهم مشقة الطريق، حين تكون هناك مشقة في الطريق! بل بينها لهم كاملة من أول الطريق! بل بين لهم أكثر من ذلك أن طريق الإيمان طريق مخوف بالمخاطر والمتاعب والتضحيات، وأن الطريق الآخر حافل بالمغريات! ولكنه وضح لهم نهاية هذا الطريق وذاك! ودعاهم إلى اقتحام الطريق الأول، والصبر على عقباته وتضحياته، وحذرهم من سلوك الطريق الآخر الملىء بالمغريات. وقال لهم إن أمامهم طريقين: طريقاً وعراً شاقاً ينتهي بجنة الخلد، وطريقاً مخوفاً بالمغريات واللذائذ ينتهي إلى النار.. ثم تركهم يختارون!

¹ سورة القيامة : 15+14

² سورة النساء : 165

وليست القضية قضية فرد يسلك هنا أو يسلك هناك⁰⁰ إنما هي قضية الجموع البشرية.. فالسنن المعروضة لا تخص الفرد وحده، إنما تشمل الجميع⁰⁰ وتبين مصائر الأمم كما تبين مصائر الأفراد. ومن ثم، فهي مناهج تربوية تربي كل فرد على حدة، وفي الوقت ذاته تربي الجموع، فتكون جموعاً مهتدية إذا التزمت، أو جموعاً ضالة إذا تنكبت الصراط المستقيم⁰

((ولكن درجات مما عملوا))⁽¹⁾0

بل إن الله - رحمة منه بعباده - لم يكتب بيان ((رعوس المسائل)) في كتابه المنزل، ولا بيان السنن التي يجري قدره من خلالها، بل عرض عليهم مصداق هذه السنن من خلال التاريخ، ووجههم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف انطبقت تلك السنن في عالم الواقع خلال التاريخ⁰

والقصص في القرآن يؤدي هذه المهمة⁰

ففضلاً عن الجانب الجمالي في السرد القصصي، الذي أشرنا إلى بعض معالنه في فصل الإعجاز البياني، وما له من تأثير في الوجدان، فإن له هدفاً تربوياً واضحاً، هو بيان التطبيق الواقعي للسنن الربانية في واقع الحياة البشرية. وكثير من هذه السنن لا يستوعبها عمر الفرد المحدود، فقد تستغرق أجيالاً عدة من حياة البشر حتى تتحقق بتمامها. لذلك يجيء ذكرها مفصلاً في كتاب الله، وتعرض وقائعها ليرى الناس أنها سنن حقيقية فاعلة في عالم الواقع، وليعلموا أنها متواترة لا تتخلف ولا تتغير ولا تبدل، وليعتبروا بها فلا يسيروا في اتجاه مضاد لها⁰

وهذا ينطبق على كل القصص الواردة في كتاب الله بدءاً من قصة خلق آدم، وقصة آدم مع الشيطان، التي يقول عنها رب العالمين إنها ((نبأ عظيم))، لأنها هي رأس القضية كلها بالنسبة للإنسان:

((قل هو نبأ عظيم(67) أنتم عنه معرضون(68) ما كان لي من علم بالأعلى إذ يختصمون(69) إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين(70) إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين(71) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين(72) فسجد الملائكة كلهم أجمعون(73) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين(74) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت

بيدى استكبرت أم كنت من العالين(75) قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين(76) قال فاخرج منها فإنك رجيم(77) وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين(78) قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون(79) قال فإنك من المنظرين(80) إلى يوم الوقت المعلوم(81) قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين(82) إلا عبادك منهم المخلصين(83) قال فالحق والحق أقول(84) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين))⁰⁽¹⁾

كما ينطبق على قصص الأنبياء مع أقوامهم، التي هى مصداق ما قدره وقرره رب العالمين فى عباده، والتي وقعت أحداثها بالفعل فى واقع الأرض، والتي هى سارية المفعول إلى يوم القيامة: الفائزون فى الدنيا والآخرة هم الذين اعتبروا بالدرس ووعوه، وعملوا بمقتضاه، والخاسرون هم الذين غرهم الأمانى، وغرهم الحياة الدنيا، فاستمعوا لغواية الشيطان، فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، كما جاء وصفهم فى الآية الثانية عشرة من سورة ((محمد))⁰

والآن فلنأخذ فى الحديث عن بعض السنن الواردة فى كتاب الله⁰

هناك سنن تتعلق بالتمكين فى الأرض، ويبين الله لنا منذ البدء أن التمكين ليس خاصا بفئة دون فئة، فالمؤمنون يمكنون، والكفار يمكنون:

((كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً))²⁽²⁾

ولكن هؤلاء أو هؤلاء لا يمكنون بغير جهد يبذلونه، فقد كتب لعى الإنسان أن يكدح لينال ما

يريد :

((يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه))³⁽³⁾

((لقد خلقنا الإنسان فى كبد))⁴⁽⁴⁾

فالسباب التي لا بد من اتخاذها للحصول على التمكين واحدة بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء⁰⁰

¹ سورة ص : 67 - 85

² سورة الإسراء : 20

³ سورة الانشقاق : 6

⁴ سورة البلد : 4

ولكن تفترق بعد ذلك الطريق.. فهناك نوعان من التمكين: تمكين الرضا، وتمكين الاستدراج، الأول للمؤمنين والآخر للكفار، ولكن منهما سمات في واقع الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فهما على طرفي نقيض⁰

يقول تعالى عن تمكين الاستدراج :

((والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون(182) وأملئ لهم إن كيدى متين))⁰⁽¹⁾

((ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيراً لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين))⁰⁽²⁾

((ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون(15) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون))⁰⁽³⁾

بل إن الله قد يزيد لهم في التمكين - استدراجاً لهم - إذا أوغلوا في الكفر، ولكن إلى حين:

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون(44) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين))⁰⁽⁴⁾

أبواب كل شيء من زينة الحياة الدنيا وزخرفها الحسى والمادى.. ولكن هناك باين من أبواب التمكين لا يعطيها الله للكفار، وإنما يختص بهما المؤمنين، وهما الفارق الرئيسى بين تمكين الرضا وتمكين الاستدراج:

((ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض(00))⁰⁽⁵⁾

((الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب))⁰⁽¹⁾

¹ سورة الأعراف : 182 ، 183

² سورة آل عمران : 178

³ سورة هود : 16، 15

⁴ سورة الأنعام : 45، 44

⁵ سورة الأعراف : 96

البركة والطمأنينة بابان من أبواب التمكين لا يحصل عليهما الكفار في الحياة الدنيا، برغم كل الأبواب المفتحة عليهم، من القوة السياسية والحربية والتكنولوجية والرخاء المادى.. ومن كان في شك من ذلك فليُنظر إلى واقع الغرب اليوم، الذى وصل فى قوته المادية إلى مستوى لم يسبق للبشرية أن وصلت إليه، ومع ذلك فهو يعج بالشقاء والكآبة التى توصل بعض الناس إلى الانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية وتسلم بعضهم إلى الخمر والمخدرات، وتدفع آخرين إلى الجريمة⁰⁰

كلا! لا بركة ولا طمأنينة⁰⁰

بينما تمكين الرضا فيه كل أبواب القوة، مضافاً إليها الطمأنينة الروحية المنبثقة من ذكر الله، والبركة التى تحيط المجتمع المسلم من فيض الرحمن :

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً))⁰⁽²⁾

فقد تكفل الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين، فضلاً عن البركة والطمأنينة، حين يعبدونه حق عبادته، ويقومون بمقتضيات دينهم وتكاليفه على الوجه الصحيح⁰⁰

ومن ثم، فإن الذين ينبذون دينهم ويقولون إنهم ينبذونه ليحصلوا على القوة والتمكين واهمون فى دعواهم وموهون. فقد جرفتهم أهواؤهم وشهواتهم، ولكنهم يتظاهرون بالعقلانية، وبأن عقلايتهم هى التى تدفعهم إلى نبذ الدين! كلا! لقد كرهوا ما أنزل الله، ثم زينوا كفرهم بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان⁰

إذا كان الغرب قد نبذ دينه – لأسباب كامنة فى ذلك الدين وفى رجاله وكنيسته – ثم حصل على القوة والتمكين، فذلك تحقيق للسنة التى يعامل بها الكفار :

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء))⁰⁽³⁾

¹ سورة الرعد : 28

² سورة النور : 55

³ سورة الأنعام : 44

أما المؤمنون فلا يمكنهم وهم عصاة! لا يمكنهم حتى يعودوا إليه، ويستقيموا على طريقه..
وتاريخهم كله هو مصداق هذه الحقيقة: كلما تمسكوا بدينهم تمكنوا في الأرض.. وكلما تخلخلت
قبضتهم من حبل الله المتين جاءهم الأعداء، وعجزوا عن صدهم، وأدركهم الوهن، فذلوا 00

((فألا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها))؟! (1)

وهناك سنن لزوال التمكين 00

((ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها لى قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (2)

((وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)) (3)

الترف هو الحمض الأكال الذى يأكل الأفراد والشعوب.. والشعوب بصفة خاصة 0

ولأن السنن الاجتماعية بطيئة فى تحققها، وقد تستغرق مئات السنين حتى يتكامل مفعولها، فإن
كثيرا من الطغاة لا يدركونها حين لا تتحقق فى أعمارهم المحدودة، فيحسبون أنهم ناجون من آثارها، أو
يقولون من جانب آخر: ((أنا ومن بعدى الطوفان!)) فيستغرقون فى الترف غير ناظرين إلى النتائج.
فيقول الله لهم: سيروا فى الأرض فانظروا! انظروا كيف كانت مصاير من كان قبلكم. فالتاريخ هو
معرض تحقق السنن الاجتماعية الطويلة الأمد، التى تتجاوز أعمار الأفراد.. ولكن الطغاة - خلال
التاريخ - لا يعتبرون! وكل واحد منهم يظن أنه حالة فريدة غير مسبقة، لا تنطبق عليها أحوال
السابقين :

((وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم

الأمثال (45) وقد مكروا مكروهم)) (4) 0

لذلك يعج التاريخ بأخبار الطغاة!

¹ سورة محمد : 24

² سورة الأنفال : 53

³ سورة الإسراء : 16

⁴ سورة إبراهيم : 45، 46

* * *

ويلحق بسنن زوال التمكين سنة التداول :

((وتلك الأيام نداولها بين الناس))⁽¹⁾0

لم تدم قوة فى الأرض مهما طال بقاؤها.. وإنما يحدث التغيير دائماً، وتنتقل القوة من مكان إلى مكان، ومن شعب إلى شعب، ومن جنس من أجناس البشر إلى جنس آخر 0

وعلى الرغم من أنها سنة من سنن الله، لها حكمته عنده، فإن لها أسبابها.. فهى لا تحدث اعتباراً. إن الأمم فى نشأتها واضمحلالها تمر بأطوار 00

فى نشأتها تكون مستوفزة الطاقات، فهى تصارع القوى القائمة لتثبت وجودها، ثم لتثبت وجودها. والصراع دائماً يحفز القوى الكامنة، فتعمل بكل طاقتها 00

ثم تجئ فترة تكون الأمة ممكنة ولكنها خائفة من أعدائها، فتظل يقظة لنفسها وما حولها، فيستمر تمكينها 0

ثم تجئ فترة أخرى تطمئن فيها إلى أنها قد أصبحت فى مأمن من أعدائها، لأنها بلغت مبلغاً من القوة يرهب أعداءها فلا يفكرون فى العدوان عليها 00

وفى هذه الفترة يبدأ التراخى، ويبدأ الترهل، ويبدأ الترف، ويبدأ الانحلال الذى يؤدى إلى الضعف، فيطمع الأعداء 00

وحين يصل الترف إلى حب الحياة وكرهية الموت، وكرهية تكاليف الجهاد فى الأنفس والأموال، يبدأ الاضمحلال الذى يؤدى إلى الزوال! وتنتقل القوة إلى مولود جديد، يشب ثم يترعرع، حتى تدركه السنة فى نهاية المطاف 00

وقد التفت ابن خلدون إلى هذه السنة وركز عليها كثيرا، وعنه أخذ تويني، وشبه الأمة بالشجرة ، تبدأ صغيرة نابتة، ثم تقوى وتتمكن، ثم تشيخ فتموت، وقال إن تاريخ الأمم كتاريخ الأفراد يبدأ بالمبلاد وينتهي بالموت⁰⁰

ولكننا حتى لو افترضنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون، وتابعه تويني، فنحن نتساءل: هل الشيخوخة التي تؤدي إلى الموت هي السنة، أم هي الترف الذي يؤدي إلى الانحلال؟

ونسأل سؤالا آخر: هل الأمة الإسلامية تنطبق عليها تلك السنة المفترضة: سنة الشيخوخة التي تؤدي إلى الموت؟

نحسب - والله أعلم - أن الله لم يكتب هذه السنة - إن كانت سنة حقا - على الأمة الإسلامية في مجموعها. فقد شاخت الدولة الأموية وذهبت، وشاخت الدولة العباسية وذهبت، وشاخت دولة المسلمين في الأندلس وذهبت، وشاخت الدولة العثمانية وذهبت حين أصيبت كلها بالداء القاتل، داء الترف، ولكن الأمة الإسلامية لم تذهب!

والصحة الحالية دليل 00

والمستقبل مفعم بآمال العودة إلى التمكين، وخاصة حين تقع المعركة التي أخبر عنها الرسول ﷺ، التي يقول فيها الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا من خلفي يهودى فتعال فاقتله⁰⁰

وقد يكون مفتاح الأمر هو قول الرسول ﷺ: ((يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها))⁰⁽¹⁾

وإذا تجدد الدين تجددت القوة وعاد التمكين تحقيقا لوعده الله :

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا))⁰⁽²⁾

¹ سبقت الإشارة إليه 0

² سورة النور: 55

* * *

من السنن التي يرد ذكرها كثيرا في كتاب الله سنة الابتلاء :

((إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبليه فجعلناه سميعاً بصيراً))⁽¹⁾0

((إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً))⁽²⁾0

((ونبلوكم بالبشر والخير فتنة وإلينا ترجعون))⁽³⁾0

والابتلاء أنواع 00 بعضها عام يشمل البشر جميعا، وبعضها يختص بفئة معينة من الناس 0

والابتلاء العام الذي يشمل البشر جميعا قد أشرنا إليه من قبل، ولا بأس بالتذكير به هنا مرة

أخرى 0

في فطرة الإنسان رغبة عميقة في الاستمتاع، والأرض مزينة بألوان مختلفة من المتاع، ولكن الله سبحانه وتعالى - وهو الحكيم الخبير - رسم حدوداً أباح المتاع في داخلها وحرمه خارجها، وله حكمته في التحليل والتحریم. فهو يجل الطيبات ويحرك الخبائث، فأباح ما يعلم سبحانه في صالح الإنسان، وحرّم ما يعلم أنه يضره. ولكن الرغبات في نفس الإنسان حادة وعميقة :

((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل

المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب))⁽⁴⁾

والاختبار الذي يوضع الإنسان فيه في كل لحظة من لحظات حياته الواعية المريدة المختارة هو

هذا: هل يلتزم في تناوله للمتاع الأرضي بالحدود التي رسمها الله، أم تغلبه شهوته فيتجاوز الحدود؟ وفي

كل لحظة تسجل له نقطة في الاختبار، وفي النهاية تعلن النتيجة، فإما إلى الجنة وإما إلى النار 0

¹ سورة الإنسان : 2

² سورة الكهف : 7

³ سورة الأنبياء : 35

⁴ سورة آل عمران : 14

ذلك هو الاختبار الأكبر الذى خلق الإنسان من أجله، وهو وثيق الصلة بالعبادة التى قال الله إنه لم يخلق الإنسان إلا لها:

((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون))⁽¹⁾0

فالعبادة معناها - أو مؤداها - طاعة الله فيما أمر به وما نهى عنه. أى - بعبارة أخرى - الالتزام بالحدود التى حددها الله للمتاع. ومادة الاختبار هى نفس الأمر: هل يعبد الإنسان ربه - فيطيعه - أم يعبد الشيطان؟

وأداة الشيطان التى يفتن بها الناس عن عبادة ربه هى تزيين المتاع الزائد عن الحد: ((قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين(39) إلا عبادك منهم المخلصين))⁽²⁾0

((قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم(16) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين))⁽³⁾0

((قال اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً(63) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً))⁽⁴⁾0

((وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً(118) ولأضلنهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم(00))⁽⁵⁾0

ويلاحظ فى الآية الخيرة وصف دقيق للخطوات التى يتبعها الشيطان فى غواية الناس، فهو ابتداء يضلهم، فيقودهم إلى الطريق الذى قال لهم الله لا تسلكوه، ويمنيهم أنهم سيجدون بغيتهم (من المتاع) فى هذا الطريق، فإذا استسلموا له أخذ يأمرهم أمراً بمخالفة أمر الله فيطيعونه00

¹ سورة الذاريات : 56

² سورة الحجر : 39،40

³ سورة الأعراف : 16،17

⁴ سورة الإسراء : 63-64

⁵ سورة النساء : 118-119

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يخرجهم من رحمته بمجرد هفوة يستجيبون فيها لوسوسات الشيطان

:

((والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون(135) أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين))⁽¹⁾0

ومتى مرتكب الكبيرة لا يخلده في النار، إنما المخلدون في النار هم الذين يكفرون بآيات الله، والذين يشركون به، والذين يستحلون ما حرم الله، ويشرعون بغير ما أنزل الله⁰

إذا كان هذا هو الاختبار العام الذى يدخل فيه الناس جميعاً، فينجح من هداه الله، ويرسب من وقع في الضلال، فهناك أنواع أخرى من الاختبار - أو الابتلاء- لا تقع لكل الناس، إنما فئات وفئات⁰⁰

فبعض الناس يتلون ببسط الرزق، وبعضهم يتلون بقدر أرزاقهم:

((فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرم من(15) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهان من(16) كلا⁰⁰))⁽²⁾0

كلا! ليست القضية كذلك! ليست ببسط الرزق أو تقديره.. إنها قضية الابتلاء ببسط الرزق، أو الابتلاء بتقديره! أى اختبار سلوك الإنسان حين يبسط له الله فى الرزق.. كيف يتصرف؟ وحين يقدر له رزقه كيف يتصرف؟! وهو فى الحالين موضع اختبار⁰⁰

فأما الذى ببسط الله له فى الرزق، فإن شكر النعمة، وأعطى حق المال فلم يبخل به، ولم يسرف فى إنفاقه، ولم ينفقه فى سرف ولا ترف ولا مخيلة، فقد نجح فى الاختبار، وأما غير ذلك:

((كلا بل لا تكرمون اليتيم(17) ولا تحاضون على طعام المسكين(18) وتأكلون التراث أكلا لما(19) وتحبون المال حباً جماً))⁽¹⁾. أولئك راسبون!

¹ سورة آل عمران : 135-136

² سورة الفجر : 15-17

وأما الذى قدر الله عليه رزقه فإن صبر وحمد الله على ما أعطى، وسأل الله من فضله، ولم يلجأ إلى وسيلة حرام يزيد بها ماله، فقد نجح فى الاختبار.. وأما إن سخط، وقال ((ربى أهانن)) ولم يكرمنى كما أكرم غيرى وأنا أحق بفضل الله من غيرى.. فهذا من الراسيين!

وهناك ابتلاء بفضل خاص يعطيه الله فرداً أو جماعة أو أمة، لينظر كيف يفعلون. كما قال سليمان عليه السلام: ((قال هذا من فضل ربى ليلونى أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم))⁽²⁾

وكما قال موسى عليه السلام لبنى إسرائيل: ((عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون))⁽³⁾. وكما قال الله عن بنى إسرائيل: ((وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين))⁽⁴⁾

وهناك ابتلاء لكشف المؤمن من المنافق، وتصفية الصف من المنافقين:

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))⁽⁵⁾

((ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أودى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين(10) وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين))⁽⁶⁾

((ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم))⁽⁷⁾

واختبار الصبر هو أشد درجات الاختبار، وهو فى الوقت ذاته أعلى درجات الاختبار:

¹ سورة الفجر : 17 - 20

² سورة النمل : 40

³ سورة الأعراف : 129

⁴ سورة الدخان : 33

⁵ سورة العنكبوت : 2،3

⁶ سورة العنكبوت : 10،11

⁷ سورة محمد : 31

((ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين(155) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون(156) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون))⁽¹⁾0

((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين))⁽²⁾0

((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب))⁽³⁾0

والأجر على الصبر أعلى الأجر :

((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب))⁽⁴⁾0

أشرنا من قبل إلى بعض الشروط التي اشترطها الله على المؤمنين لكي يستحقوا تنزل النصر عليهم

:

((هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (62) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما

ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم(63) يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من

المؤمنين(64) يا أيها النبي حرص المؤمنين على القتال))⁽⁵⁾0

لا بد من وجود مؤمنين متآلفة قلوبهم، متجردين لله، مستعدين للقتال.. وثمة شروط أخرى:

((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة))⁽⁶⁾0

((يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون))⁽⁷⁾0

¹ سورة البقرة : 155 - 157

² سورة آل عمران : 142

³ سورة البقرة : 214

⁴ سورة الزمر : 10

⁵ سورة الأنفال : 62 - 65

⁶ سورة الأنفال : 60

((يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار))0()

((وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما

استكانوا والله يحب الصابرين))0()

وهناك سنن غالبية - أى ليست حتمية- يتحقق فيها انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة

الكافرة :

((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين))0()

بينما الفئة الكثيرة قد تغلب إذا أعجبتها كثرتها، ونسيت التوكل على الله :

((ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاحت عليكم الأرض بما رحبت ثم

وليتم مدبرين(25) ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين

كفروا وذلك جزاء الكافرين))0()

وأخيراً نتحدث عن سنة التدافع :

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))0()

وبعض الناس يخلط بين هذه السنة وبين ما يسمى ((صراع البقاء)) الذى أشار إليه دارون، وقال

فيه ((البقاء للأنسى)) "Survival for the fittest" فحرفها من حرفها إلى ((البقاء للأصلح)).

ثم زعم الزاعمون من الغرب أنهم هم الأولى بالبقاء، لأنهم هم الأصلح!

فدارون أولاً لم يتحدث قط عن((القيم))! ولم يذكر الصلاح بالمعنى المعروف عليه0 وإنما قال حين

تحدث تغيرات جيولوجية فإن الكائنات التى لا يتناسب تركيبها مع الأحوال الحادثة تنقرض(كما انقرض

الديناصور) وتبقى الكائنات التى يتناسب تركيبها- أو لا تتأثر- مع الأحوال الحادثة، ولا صلة برقى

الكائن أو عدم رقيه فى سلم التطور0 فإن الديناصور الذى انقرض كان أرقى بما لا يقاس من الصرصار،

ومع ذلك انقرض الديناصور الأرقى وبقي الصرصار! والأمر أولاً وأخيراً فى عرف دارون لا صلة له

بالصلاح النفسى أو الخلقى، فذلك موضوع لم يتطرق له دارون قط، وهو من عيوب نظريته، حين زعم أن الإنسان قد انحدر عن أحد القرود العليا، وأهمل تماما الجانب النفسى والأخلاقى والروحي الذى يفرق بين الحيوانات جميعا وبين الإنسان، والتفت إلى التركيب الجسدى وحده00

ولكن بصرف النظر عن كل ذلك، فالسنة التى يتحدث عنها القرآن الكريم ليست هى ((صراع البقاء)) الذى يتحدث عنه الغرب، والذى هو غارق فيه إلى الأذان، والذى يحسبه هو الغاية القصوى من الوجود!

إن صراع البقاء لمجرد البقاء، أو من أجل الغلبة والسيطرة، بغير قيم ولا أخلاق، وهو السائد فى عالم اليوم، لهو صراع مدمر، لأنه هو الذى جعل شريعة الغاب هى العملة المتداولة بين الشعوب، القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق0

بينما التدافع الذى قرره الله وجعله من سننه هو تدافع الخير والشر، الذى ينتهى بغلبة الخير والقضاء على الشر. والله يمن على عباده بأنه جعل من سننه أن يوجد فى الأرض أهل حق وأهل إيمان وأهل صلاح يدفع الله بهم أهل الباطل، فيزهق الباطل ويتنصر الحق، وتخلو الأرض من الفساد أو فى القليل ينحسر الفساد فلا يصبح هو المسيطر. وتلك كانت مهمة الأمة التى أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، والأمة الوسط التى تكون شاهدة وقائدة ورائدة لكل البشرية.. وإن غياب هذه الأمة عن الساحة لهو الكارثة الكبرى التى أصابت البشرية بما أصابها من فشو الفساد فى الأرض، وفشو الظلم والاستبداد و صنوف الانحراف، ويكفى منه السيطرة العالمية لليهود، والعولمة التى تريد أن تفرض الظلم الاقتصادى والانحلال الخلقى فى الأرض00

كلا! ما أبعد سنة الله التى تهدف إلى حفظ الأرض من الفساد، عن أعراف البشر الضالة فى عصر عبادة الشيطان، التى تجعل الفساد هو الغالب فى الأرض!

ولعل خير ما نختتم به حديثنا عن الإعجاز التربوى فى كتاب الله الكريم، هو أسماء الله الحسنى0

إن تكرار ورود الأسماء والصفات في القرآن الكريم هو ظاهرة تلفت النظر 00 ولقد تحدثنا عن هذه الظاهرة من قبل في الحديث عن الإعجاز الدعوى بوصفها وسيلة مثلى لتعريف الناس برهم، وترسيخ الإيمان في نفوس المؤمنين، وأشرنا إلى أنها كثيراً ما ترد في ختام الآيات القرآنية بما يناسب المعنى الذى تشمله الآية 0

والآن نتكلم عن الظاهرة ذاتها كفى مجال الإعجاز التربوى. وإن أثرها في المجال التربوى لا يقل بحال عن أثرها في المجال العقدى. ولا عجب، فالعقيدة هى الركيزة الأولى والكبرى في منهج التربية الإسلامى. فغذا رسخت العقيدة - في صورتها الصحيحة - فقد أصبحت النفس مهياًة للتلقى من عند الله، والالتزام بما جاء من عند الله، والتخلق بأخلاق الله. وهذه هى التربية الحقة، التى تنشئ ((الإنسان الصالح)) 0

ومن هنا كانت الحكمة في التركيز على الأسماء والصفات، وترديدها في كل مناسبة، سواء كانت المناسبة قصة تروى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، أو توجيهها روحياً، أو توجيهها أخلاقياً، أو توجيهها عقلياً، أو توجيهها اجتماعياً أو سياسياً أو حريباً أو اقتصادياً.. إلى آخر هذه التوجيهات التى يزخر بها القرآن 0

خذ مثلاً من سورة الشعراء، حيث ترد قصص مجموعة من الأنبياء مع أقوامهم. ففى نهاية كل قصة يرد قوله تعالى : ((إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)) (103) وإن ربك لهو العزيز الرحيم)) (1) 0

وأحياناً يكون ورود الأسماء والصفات في افتتاح القصة لا في عقبها كما جاء في سورة الحجر : ((نبى عبادى أبى أنا الغفور الرحيم)) (49) وأن عذابى هو العذاب الأليم)) (50) ونبئهم عن ضيف إبراهيم 00)) (2)

وأحياناً يكون في أثناء القصة كما جاء في سورة القصص في أثناء قصة موسى عليه السلام: ((قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم)) (3) 0 وكما جاء في سورة النمل:

¹ سورة الشعراء : 103 ، 104

² سورة الحجر : 49 - 51

³ سورة القصص : 16

((إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون(76) وإنه هدى للمؤمنين(77) إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم))⁽¹⁾0

وخذ هذا التوجيه : ((لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير))⁽²⁾0

وهذا التوجيه : ((إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير(29) يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد))⁽³⁾0

وهذا التوجيه : ((وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً(30) يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً))⁽⁴⁾0

وهذا التوجيه : ((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم))⁽⁵⁾0

وهذا التوجيه : ((يا أيها الذين آمنوا من یرتد منكم عن دينه فسوف یأتى الله بقوم یحبونه أذلة على المؤمنین أعزة على الكافرين یجاهدون فى سبیل الله ولا یخافون لومة لائم ذلك فضل الله یؤتیه من یشاء والله واسع عليم))⁽⁶⁾0

وهذه التوجيهات : ((ما یفعل الله بعذابکم إن شکرتم وآمنتُم وكان الله شاکراً علیماً(147) لا یحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سمیعاً علیماً(148) إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً))⁽⁷⁾0

¹ سورة النمل : 76 - 78

² سورة البقرة : 284

³ سورة آل عمران : 29 ، 30

⁴ سورة الإنسان : 30 ، 31

⁵ سورة المائدة : 38

⁶ سورة المائدة : 54

⁷ سورة النساء : 147 ، 149

وهكذا 00 وهكذا 00 وهكذا عشرات التوجيهات أو مئتها تنتهى بذكر اسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته العلا 00 فما المقصود؟

هل أنزلت هذه الأسماء والصفات لنحوها إلى جدل ذهني أو قضايا فلسفية كما فعلت الفرق الضالة بتأثير الغزو الفكرى اليونانى أو غير من التأثيرات؟!

إن أسوأ ما فعلته هذه الفرق الناشزة أنها أفرغتن الأسماء والصفات من شحنتها التربوية الهائلة، وحولتها قضايا ذهنية باردة لا حيوية فيها ولا حرارة ولا تأثير 00

إنما كانت هذه الإشارات المتكررة المتعددة المتنوعة إلى أسماء الله وصفاته لتحيط بالقلب البشرى فى جميع أحواله، وتربطه بالله برباط وثيق 0

فأيا تكن حالة الإنسان، وأيا تكن الظروف التى يمر بها، أو المشاعر التى يعانيتها فتم الله. الله هو المدبر. الله هو الفعال لما يريد. الله هو الرزاق. الله هو الفتاح. الله هو مفرج الكرب. الله هو منزل الغيث. الله هو الباسط القابض. الله هو المحيى المميت. الله هو الضار النافع. الله هو مالك الملك. الله هو مقدر المقادير 00

فماذا يفعل الإنسان فى أى ظرف يمر به؟ أو أى شعور يلم به؟ أو أى رغبة يرغبها؟ أو أى مخافة يخافها؟ لمن يتوجه؟ ممن يطلب؟ من يستغيث؟ من يرجو؟ من يخاف؟ من يستعين؟ لمن يركن؟ على من يتوكل؟

إنه الله 000

ذلك هو الأثر التربوى المطلوب :

((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب(190) الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم))⁽¹⁾ 0 أى فى جميع أحوالهم 0

يريد مالا وغنى وسلامة وعافية؟ فمن المغنى؟

يريد نصراً على الأعداء؟ فمن الناصر؟

يريد النجاة من شىء يخافه؟ فمن المنجى؟

يريد بنين وحفدة؟ فمن المعطى؟

أينما توجه 00 فعند من حاجته؟

وإن الإنسان لينسى 00

يغرق أحياناً بين الأسباب فيظنها هى الفاعلة، فيركن إليها وينسى من وراء الأسباب 0

يغرق أحياناً فى خوف من طاغوت يفزعه، فيحسب أن بيده الضر والنفع، فيتزلف إليه، على حساب دينه أو كرامته، ينتغى النجاة من طغيان، وينسى أن البلاء حين يقع فهو مقدر له من عند الله، ((وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم))⁽¹⁾ 0

يغرق أحياناً فى تطلع إلى أمل يرجوه أو رغبة يريد تحقيقها، فينسى.. ينسى عند من هى؟ وما الطريق السليم إليها؟ فيندفع، فيعصى ربه، ويغفل عن رقابة الرقيب سبحانه، فيقع فى الضلال 00

وحين يعيش مع القرآن لا ينسى!

لا فرصة له إلى النسيان!

فالتذكير قائم أمامه لا ينقطع، ولا يفتر، يحيط به من كل جانب، فلا يدع له فرصة للتفلسف أو

النسيان:

((إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد))⁽²⁾ 0

¹ سورة البقرة: 49

² سورة ق: 37

وتلك هى المهمة العظمى التى تؤديها الأسماء والصفات فى كتاب الله، والتى أفسدتها الفرق الضالة بما أثارته حولها من جدل ذهنى عقيم، لا يسمن ولا يغنى من جوع!

* * *

بهذه الوسائل كلها التى ذكرناها تتم التربية فى رحاب القرآن.

وبهذه الوسائل كلها أخرجن الله ((خير أمة أخرجت للناس)) من تلك القبائل المتناحرة التى لم تكن لتتهدى لولا أن هداها الله، ولا لتألف قلوبها أن ألف بين قلوبها الله.

وبهذه الوسائل كلها تكون تربية الأجيال حين يراد حقاً تربية الأجيال على الإسلام 0

فأى إعجاز أعظم من هذا الإعجاز؟

لقد كان الإعجاز البيباى هدفاً مقصوداً فى ذاته لتحدى المكذبين المنكرين من العرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، وكل مكذب يأتى بعدهم فى التاريخ 00

ولكنه كان فى الوقت ذاته أداة للإعجاز الدعوى، لتجلية عقيدة لا إله إلا الله، وتثبيتها فى القلوب 0

ولقد كان الإعجاز الدعوى، المشتمل على الإعجاز البيباى، هدفاً مقصوداً فى ذاته، لتعريف الناس برهم الحق، ليعبدوه وحده بلا شريك 0

ولكنه كان فى الوقت ذاته أداة للإعجاز التربوى لإنشاء ((الإنسان الصالح))

وهكذا تلتقى كل مجالات الإعجاز، متعانقة متآلفة لتحقيق الهدف المنشود 0

وإن هذا ذاته هو إعجاز !

من الإعجاز التشريعي

كل رسالة جاءت من عند الله كانت عقيدة وشريعة ومنهاجا للحياة 00

فأما العقيدة، فهي واحدة في الرسائل جميعاً ولم تتغير ولم تتطور كما يزعم علم مقارنة الأديان الجاهلي.. فقد كانت منذ أول رسالة إلى آخر رسالة هي ((لا إله إلا الله)) ((اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)) 0 إنما الذي تغير وتطور هو عقائد الجاهلية، لأنها صناعة بشرية، تتأثر بأحوال البشر الذين يصنعونها، وتتغير معهم من حال إلى حال. ويجوز أن تكون قد تطورت كما يزعم علم مقارنة الأديان الجاهلي من عبادة الأب، إلى عبادة الطوطم، إلى عبادة قوى الطبيعة، إلى عبادة الأفلاك إلى عبادة الأصنام.. أما العقيدة الصحيحة منذ آدم إلى محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فهي عقيدة التوحيد، تفى إليها البشرية حينما مع بعثة رسول أو نبي، ثم تنحرف عنها لونا من الانحراف، حتى يأتي رسول آخر يعيد الناس إلى العقيدة الصحيحة، فيعود من اهتدى، ويضل من يضل:

((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة))⁽¹⁾ 0

ثم جاء خاتم الرسل ﷺ ليبلغ الكلمة ذاتها ((لا إله إلا الله)) ((اعبدوا الله ما لكم من إله غيره))، ولكن لا لقوم معينين، بل للبشرية جمعاء :

((قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون))⁽²⁾ 0

هذا أمر العقيدة 00

أما أمر الشريعة فهو مختلف 00

((لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا 00))⁽³⁾ 0

¹ سورة النحل : 36

² سورة الأعراف : 158

³ سورة المائدة : 48

ثم كانت الشريعة الخاتمة التي تمت بها النعمة واكتمل الدين :

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً))⁽¹⁾0

وقبل أن نتحدث عن بعض جوانب الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، نشير إلى قضية مهمة من القضايا التي تنحرف فيها الجاهلية المعاصرة، التي تدعو إلى دين يتمثل في عقيدة بلا شريعة.. أى علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، فذلك - زعموا - من شأن البشر، وهم الذين يفتون فيه من عند أنفسهم، دون الرجوع إلى ما أنزل الله. ويسمون الحكم بما أنزل الله، أو المطالبة بتحكيم شريعة الله ((تسييساً للدين)) تحرمه الدساتير!!

وأوربا صنعت ذلك في دينها وشريعتها لظروف خاصة أملت بها، تحدثنا عنها في أكثر من كتاب، خلاصتها أن أوربا لم تعرف الدين المتزل على حقيقته قط، إنما عرفت ديناً محرفاً، حرفه آباء الكنيسة، وهم لم يطبقوا شريعة الله قط (إلا في الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق وشئون الأسرة))، وإنما طبقوا من عند أنفسهم - باسم الدين - طغياناً بشعا نفر الناس من الدين، فثاروا عليه ونحوه من حياتهم، وحجموه في تلك العلاقة الخاصة بين العبد والرب، التي محلها القلب، ولا صلة لها بالواقع السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، إنما تحكم هذا الواقع قوانين البشر0

وأوربا حرة تفعل بدينها ما تشاء، ويوم تلقى ربها يحاسبها بما شاء سبحانه00

أما المسلمون، فهذه الدعوى غريبة كل الغربة عليهم، مبعثها الغزو الفكرى والانبهار بما عند الغرب، ورفض التلقى من عند الله، واتخاذ ما تفعله أوربا وحياً لا بد من اتباعه!

إن الدين - كما تمثل في الرسائل السماوية كلها، والرسالة الأخيرة بصفة خاصة - يتزل ((مسيساً)) من عند الله سبحانه وتعالى، وليس البشر هم الذين يسيسونه من عند أنفسهم! كما أن البشر لا يحق لهم أن يقولوا برأيهم في أمر قضى الله فيه سبحانه وتعالى بحكمه :

((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص

الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً))⁽¹⁾0

والذى قضى به الله سبحانه هو قوله :

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون))⁰⁽²⁾

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون))⁰⁽³⁾

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون))⁰⁽⁴⁾

((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت

ويسلموا تسليماً))⁰⁽⁵⁾

وبصرف النظر عن الجدل الذى يثار أحياناً، فإن إجماع الأمة الذى لم يخرج عليه عالم واحد فى

تاريخ الأمة أن التشريع بغير ما أنزل الله كفر مخرج من الملة، وليس كفراً دون كفر كما يزعم المرجئة المحدثون!

إنه مسألة تتعلق مباشرة بعقيدة لا إله إلا الله 00 فالإله وحده - سبحانه وتعالى - هو الذى يحق

له أن يقول: هذا حلال وهذا حرام 0 هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح (وهذا هو

التشريع: منع وإباحة، وتحليل وتحريم، وتحسين وتقبيح) والله وحده هو صاحب الحق فى ذلك، بكل

صفات الألوهية والربوبية التى يتصف بها وحده - سبحانه وتعالى - والتى لا يشاركه فيها أحد من

خلقه، وبصفة خاصة هذه الصفات: أنه هو الخالق، وأنه هو العليم الحكيم، وأنه هو اللطيف الخبير:

((ألا له الخلق والأمر))⁰⁽⁶⁾

((إن الله كان عليماً حكيماً))⁰⁽⁷⁾

((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))⁰⁽¹⁾

¹ سورة الأحزاب : 36

² سورة المائدة : 44

³ سورة المائدة : 45

⁴ سورة المائدة : 47

⁵ سورة النساء : 65

⁶ سورة الأعراف : 54

⁷ سورة النساء : 11

فيما أنه هو الخالق سبحانه فهو صاحب الأمر، وبما أنه هو العليم الحكيم، اللطيف الخبير، فهو الذى يضع بعلمه وحكمته ما يصلح لأمر هذا الإنسان الذى خلقه، ويعلم كل خصائصه ودقائقه ومساربه نفسه :

((ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد))⁽²⁾ 0

هذه هى القضية فى جوهرها، وهى قضية القضايا منذ وجد الإنسان على الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها 00 قضية من الإله؟ الله أم غيره من الآلهة المزعومة؟ وهى فى الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة تأخذ صورة خاصة : الله أم الإنسان؟

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الله، ويرتبون على علمهم هذا أن يعبدوه وحده بلا شريك، ويطيعوا أمره، ويتبعوا ما أنزل إليهم. وأما الذين استكبروا عن عبادته فهم يجادلون، ويستنكفون:

((فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً))⁽³⁾ 0

تلك إشارة لا بد منها لمواجهة الجاهلية المعاصرة التى تدعو إلى عدم تحكيم شريعة الله، وإلى محاربة ما يطلقون عليه اسم ((الإسلام السياسى)) واتخاذ العلمانية ديناً بدلاً من الدين الإلهى 0 ومن هذه الإشارة نعرج على بعض نواحي الإعجاز فى الشريعة الربانية، التى أنزلها الله لتحكم حياة البشر إلى قيام الساعة 00

* * *

يتردد على لسان العلمانيين دائماً هذا السؤال: أنى للشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرناً أن تحكم الواقع الموجود اليوم، وهو واقع يختلف أشد الاختلاف عن الواقع الذى نزلت فيه تلك الشريعة، فضلاً عن الزعم بأنها صالحة للمستقبل كذلك؟

¹ سورة الملك : 14

² سورة ق : 16

³ سورة النساء : 173

ونقول نحن إن هذا أحد أوجه الإعجاز في الشريعة التي أنزلها الله، وأمر باتباعها، ولم يجعل لاتباعها حداً زمنياً معيناً يجوز للبشر بعده أن يتخلوا عنها، ولم يحدد أحوالاً بيئية أو سياسية أو اقتصادية معينة يكف البشر فيها عن تطبيق الشريعة⁰

وإن مجرد القول بأن الظروف تغيرت معناه الشك في علم الله وحكمته. فكأنما علمه - نستغفر الله - كان ناقصاً وقت تنزيل الشريعة، فلم يكن يعلم سبحانه أن الظروف ستتغير، وتأتي ظروف غير الظروف! وكأنما حكمته - نستغفر الله - كانت ناقصة، فلم يقدر سبحانه أثر تغير الظروف في صلاحية هذه الشريعة التي أنزلها وأمر باتباعها اتباعاً مطلقاً بغير تحديد!

وقد لا يدرك الذين يرفعون لافتة تغير الظروف أنهم بذلك يطعنون في علم الله وحكمته، ولكن هذا هو لازم قولهم، ولازم اعتقادهم، وعوا ذلك أو لم يعوه، وقصدوه أو لم يقصدوه. فلو أنهم آمنوا حقاً بأن الله عليم حكيم لم تجرؤ تلك الخواطر الفاسدة أن تخطر على قلوبهم، وتفسد مشاعرهم تجاه الله ودينه وشريعته⁰

ولا عيب في أن يكون الإنسان جاهلاً لأمر من الأمور التي تتعلق بدينه، ولكن عليه عندئذ أن يبحث عن الحق حتى يزيل جهالته، وأن يقول: ((رب زدني علماً))⁽¹⁾ أما أن يكون جاهلاً ويصر على جهله، ثم يزيد فيزعم أنه هو العالم، وأن الذين يخالفونه هم الجهال المتأخرون المتخلفون أعداء العلم وأعداء العقلانية وأعداء التقدم⁰⁰ فهذا من مصائب الجاهلية.. كل الجاهلية.. والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة التي ترفع لافتة ((العلم)) و((التنوير))، وتضعها فوق ما أسماه ((ألكسيس كاريل)) بالجهل المطبق في كتابه الشيق ((الإنسان، ذلك المجهول))!⁽²⁾

* * *

في الحياة البشرية ما هو ثابت وما هو متغير⁰⁰ وتلك من الحقائق التي لم تتمد إليها أوروبا في جاهليتها: جاهلية القرون الوسطى، والجاهلية المعاصرة⁰

¹ سورة طه : 114 0

² يقول ألكسيس كاريل في كتابه هذا: إن جهلنا بحقيقة الإنسان جهل مطبق. وإنما - بهذا الجهل - نضع حضارة لا تصلح للإنسان، لذلك يزداد الإنسان اندثار كلما زاد توغله في تلك الحضارة!

فأما في جاهلية القرون الوسطى - المظلمة عندهم¹ - فقد كان الفكر الأوربي الذى ثبته الكنيسة وتشرف عليه، يرى الثبات فى كل شئ، وينظر إلى أى تغيير على أنه خروج على نواميس الكون، وخروج على طاعة الله، ومن ثم فهو ضلال وهرطقة، ومصيرهما البوار!

وأما فى الجاهلية المعاصرة، التى اتخذت نظرية التطور الداروينية عمادا لكل تصوراتها، فإن الفكر الأوربي يرى أنه لا ثبات لشيء على الإطلاق فى هذا الوجود، وأن الثبات على أى شئ مخالف لنواميس الكون، و((قوانين الطبيعة))، ومن ثم فالدعوة إلى الثبات على أى شئ هو جهالة وجمود ورجعية، مصيرها البوار!

وفى كلتا حالتها كانت أوربا واقعة فى الضلالة!

فليس فى الكون الذى خلقه الله ثبات مطلق لا يتغير، وليس فيه كذلك تغير لا ثبات فيه لشيء على الإطلاق! وإنما فيه تغير دائم فى الأشكال تحكمه قوانين ثابتة هى سنن الله فى الكون، سواء فى ذلك الكون المادى، أو الحياة البشرية⁰⁰ وهذه هى النظرية العلمية التى فاء إليها العلم أخيراً بعد البحث والدراسة والتجريب⁰

كيان الذرة ثابت، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لا تتغير⁰⁰ ولكن الذرات يمكن أن تتخذ أشكالاً شتى، لا يحددها إلا خالقها سبحانه، ولكنها فى جميع أشكالها ذات كيان ثابت، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لا تتغير⁰

والحياة الإنسانية كذلك⁰

فطرة الإنسان ثابتة، ولكن حياته الواقعية يمكن أن تأخذ أشكالاً شتى، فى الزمن الواحد، وفى الأزمنة المختلفة⁰ ولكنها فى جميع أشكالها، تدور حول المحاور الثابتة فى كيان الإنسان⁰

مع فارق أساسى بين الكون المادى وبين الإنسان: أن الكون المادى ليس له إلا طريق واحد، لا يغيره، ولا يملك تغييره، لأنه لا إرادة له فيه:

¹ كانت هذه الفترة ذاتها من أزهى العصور الإسلامية وأكثرها نورا!

((ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين))⁽¹⁾ 0

أما الإنسان فإن له طريقين، طريق الهدى وطريق الضلال، وله القدرة على التمييز بين الطريقين، والقدرة على اختيار أحدهما:

((وهديناه النجدين))⁽²⁾ 0

((إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً))⁽³⁾ 0

((ونفس وما سواها (7) فألمها فجورها وتقواها (8) قد أفلح من زكاها (9) وقد خاب من دساها))⁽⁴⁾ 0

وهذا من التكريم الذى كرم الله به الإنسان، فليس مقهوراً على الطاعة كالسماوات والأرض، ولكنه يطيع باختياره وإرادته⁰⁰ ويعصى إذا شاء، باختياره وإرادته:

((ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم))⁽⁵⁾ 0

بعبارة أخرى إن الكون كله - بما فيه الإنسان - مفطور على العبادة:

((فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))⁽⁶⁾ 0

ولكن الإنسان من بين الكائنات له حالتان: حالة يكون فيها على فطرته السوية، فيعبد الله حق عبادته، وحالة تفسد فيها فطرته وبمرض قلبه، فيعبد آلهة أخرى غير الله، معه أو من دونه، بأى لون من

¹ سورة فصلت: 11 0

² سورة البلد: 10 0

³ سورة الإنسان: 3 0

⁴ سورة الشمس: 7-10 0

⁵ سورة الحج: 18 0

⁶ سورة الروم: 30 0

ألوان العبادة التي يزينها الشيطان، فيصبح عبدا للشيطان بدلا من أن يكون كبقية الكون كله عبدا لله 00

ومن ثم تفترق طريق البشر شعبتين لا التقاء بينهما: الشعبة التي يعبد فيها الله، والشعبة التي يعبد فيها الشيطان؛ وجيلا وراء جيل، يسلك فريق من البشر هذا الطريق ويسلك فريق آخر الطريق الآخر 00 وتلك قضية البشرية الأساسية 0

أما قضية الثبات والتطور، التي يلو كها ((التطوريون))، فهي ذات منحى مختلف 0

يزعمون أن الإنسان ليس له كيان ثابت 0 ليس له ((فطرة)) إنما هو نتاج ظروفه وبيئته؛ وحيث إن الظروف دائمة التغيير، وأشكال البيئة لا تثبت على حال، فلا يمكن أن يكون هناك شئ ثابت في حياة البشر 0 ولا يمكن أن تحكمه شريعة- ولو كانت متزلة من عند الله، ولو كانت مناسبة لوقتها تمام المناسبة- لأن الظروف تتغير، فيتغير تبعاً لها ((الإنسان))، فيصبح إنسانا جديدا غير الإنسان الذي أنزلت له الشريعة في حينها، وكانت في وقتها مناسبة لأحواله 0

وهذه هي اللوثة التي أصابت الفكر الأوربي ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى هذه اللحظة، وما تزال تعيث فسادا في الأرض 00

ونظرة موضوعية بسيطة تدحض هذه اللوثة وتفندها 00 وخذ هذه ((الحقائق)) على سبيل المثال:

في فطرة الإنسان أن يحب الحياة، ويجب لو طالت حياته على الأرض، ويجب أن يستمتع بحياته 00 هل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين صعد الإنسان إلى القمر، وحين صار يضغط على زر فينطلق في الفضاء؟

في فطرة الإنسان أن يحب التملك.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين تقدم علمه وامتد إلى الآفاق؟

في فطرة الإنسان أن يحب أن يأوى إلى مسكن يقيه البرد والحر، ويشعر فيه بالخصوصية، ويشعر فيه بأنه آمن من أن يطلع أحد على حياته الخاصة أو ينفذ إليها بصورة من الصور.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة كل جنس أن يميل إلى الجنس الآخر ويشتاق إلى الاجتماع به .. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة الإنسان أنه لا يكتفى بما في ((المعرفة)) .. يتعرف على بيئته، ثم يتوسع في المعرفة ويجب لو أنه يعرف كل شيء عن كل شيء.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة الإنسان أنه لا يكتفى بما في يديه من الأدوات بالصورة التي هي عليها، إنما يجب أن يحسنها ويحملها على الدوام .. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

وعشرات أخرى من ((النوازع الفطرية))، التابعة من لفطرة التي فطر الله الناس عليها .. هل تغير منها شيء حين دخل الإنسان ((الألفية الثالثة)) التي يطنطن بها ((التطوريون))؟

نعم .. بعض هذه النوازع - وليس كلها - تغيرت وسائل الاستجابة إليها، وتغيرت صور الاستجابة .. فهل تغيرت أصولها ومنابتها؟!

يسكن الإنسان في كوخ.. ويسكن في خيمة .. ويسكن في بيت من الطين .. ويسكن في قصر مزين بكل أنواع الزينة .. ما الذي تغير؟ الصورة أم الجوهر؟

ولا أحد ينكر أن تغير الصورة يحدث تغيرات في المشاعر والأفكار وأنماط السلوك، ولكن من السذاجة أن نظن أن التغير يتجاوز القشرة، ويصل إلى المنابت والمنابع، فيغير التزعة الفطرية من أساسها، فيلغيها مسارها في داخل النفس.. وذلك فضلا عن حقيقة نفسية أخرى، هي أن الحس البشري يتبلد بعد فترة على ((الصورة)) التي تتكرر أمامه، فلا تعود تحركه كما حركته أول مرة، ولا يعود يتأثر بها كما تأثر حين كانت جديدة عليه، بل يخفت تأثيرها رويدا رويدا.. بينما يبقى المؤثر الحقيقي الدائم هو ((الجذر)) الذي تنبت منه التزعة الفطرية .. وهو الذي لا يتغير، ولا يفتر، ولا يكف عن إعطاء دفعته طالما كان الإنسان باقيا على حيويته ووعيه، حتى وإن فقد بعض قدراته.. لأنه هناك في عمق الفطرة، وليس شحنة عارضة تذهب نبعده حين! 0

ومن جانب آخر ينبغي أن نسأل: لماذا يخترع الإنسان مخترعات جديدة، ولا يكف عن الاختراع؟

إن نزعة الاختراع هي ذاتها نزعة فطرية، ناشئة من الرغبة الدائمة في التحسين والتجميل، وقد أودعها الله في الفطرة من أجل أن يسعى الإنسان دائماً إلى الارتقاء بحياته إلى مستوى الإحسان، ولا يقف عند مستوى الضرورة، لا في المشاعر ولا في المحسوسات:

((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته))! (1)

فمن أجل تحسين الحياة وتجميلها ليصل إلى درجة الإحسان يخترع الإنسان على الدوام أدوات جديدة ووسائل جديدة .. فهل يخترعها عبثاً أم لتلبية دافع في داخل النفس؟

لماذا اخترع الإنسان السيارة والقطار والطائرة والصاروخ؟ أليس لأن في داخله رغبة في الانتقال السريع من مكان إلى مكان 00 بل رغبة أن لو استطاع أن يغمض عينيه ويفتحهما فإذا هو في المكان الذي يريد أن ينتقل إليه؟

نعم 00 إن كل اختراع حين وجد أحدث تغييرات في صورة الحياة وأشكالها ربما لم تكن تخطر على البال بنفس الصورة قبل أن تتحقق، ولكنه ما لم يلب رغبة أصيلة في النفس، فلن يقدر له أن يعيش! فالذى يحرك الحياة إذن ليس هو المخترعات في ذاتها، إنما هو الدوافع الفطرية الكامنة)) التي أدت إلى الاختراع 00

وتلك الدوافع هي ((الفطرة)) التي يستوى فيها راكب الجمل وراكب الصاروخ، وإن اختلفت صورة التلبية بين راكب الجمل وراكب الصاروخ!

ولكن الاختلاف الجذري الذي يفرق بين إنسان وإنسان ليس هو اختلاف الوسيلة المادية التي يلبى بها دوافعه الفطرية بقدر ما هو نوعية الدوافع ذاتها في داخل النفس، وترتيب أهميتها في القائمة، أيها أكبر قيمة من الأخرى 0

¹ اقرأ إن شئت فصلاً بعنوان ((فليرح ذبيحته)) في كتاب ((قياسات من الرسول)) يشرح أبعاد هذا الحديث من أحاديث الرسول ﷺ

ومن هنا لا ينقسم الناس في ميزان القيم إلى راكب صاروخ! إنما ينقسمون إلى راكب جمل مؤمن وراكب جمل كافر، وراكب صاروخ مؤمن وراكب صاروخ كافر.. وهكذا، في كل مجال من مجالات الحياة 0

((هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن))¹0

والمؤمنون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة، وإن اختلفت صور حياتهم، والكافرون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة وإن اختلفت صور حياتهم 0

وهذا الاختلاف الرئيسى بين الفريقين لا يلغى الفروق الجزئية الكائنة بين أفراد كل فريق، الناتجة عن اختلاف صور حياتهم، ولكنه يفقدها كثيرا من وزنها المبالغ في تقديره عند التطورين 0

لقد وضع التطوريون كل الثقل في الفروق الجزئية الناشئة عن اختلاف الصور المعاشة، وركزوا عليها وقسموا التاريخ البشرى على أساسها، فهذا العهد الرعوى، وهذا العهد الزراعى، وهذا العهد الصناعى، وهذا العد الذرى.. وكان هدفهم من ذلك نزع الثقل من ((القيم)) التى تحكم حياة الناس، لأنهم لا يؤمنون بتلك القيم، ويعملون على تحطيمها، لغايات خبيثة في نفوسهم، لا لأن هذا هو الحق، ولا لأن النظرة الموضوعية تؤدى إلى ما زعموه 0

ومحك القضية على أى حال هو الصورة التى آلت إليها حياة الناس حين فقدوا القيم أو أهملوها، وعنوا بأشكال الحياة الظاهرة، وجعلوها هى القيم البديلة 0

وأوربا - فى جاهليتها المعاصرة - يمكن أن تقول نأى شىء ويمكن أن تفعل أى شىء، ولو أدى إلى تدمير حياتها من أساسها 00 أما التطوريون الذين يحملون أسماء إسلامية، فما خطبهم؟!

ألا يراجعون ضمائرهم؟

نسألهم سؤالا واحدا، نطلب منهم أن يكونوا أمناء مع أنفسهم فى الإجابة عنه : أيهما أفضل وأعلى وأرفع وأقوم: جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أم هذا الجيل النكد الذى يعيشون فيه؟

¹ سورة التغابن : 2

ثم نرتب على السؤال سؤالاً آخر : هل الفارق الحقيقي بين جيل من البشر وجيل كامن في القيم التي يتمسكون بها ويعيشون على هداها، أم في ثورة التكنولوجيا وثورة المعلومات؟!

ولا يحسن أحد أننا نريد بقولنا هذا أن نلغى قيمة التقدم المادى والعلمى والتكنولوجى الذى أحرزته البشرية بجهاها الطويل 00

كلا 00 على الإطلاق!

فالمختلف عن الركب في هذه الشئون كلها مخطئ في الميزان الربانى . فقد خلق الله الإنسان لعمارة الأرض :

((هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها))⁽¹⁾ 0

وأعطاه من الأدوات ما يعينه على هذا الأمر :

((والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون))⁽²⁾ 0

ثم سخر للإنسان طاقات السموات والأرض

((وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه))⁽³⁾ 0

فإذا قصر فى استخدام الأدوات التى وهبها له الله، وقصر فى عمارة الأرض، وقصر فى تحقيق ما سخر الله له من طاقات السموات والأرض، فهو مخطئ ومقصر بكل تأكيد 00

ولكن دعنا نعقد مقارنة بين رجلين، أحدهما متخلف عمرانياً وتكنولوجياً ومادياً، ولكنه عفيف، لا يفكر فى العدوان على غيره، عفيف فى تناوله لطيبات الحياة لا يسطو على عرض، ولا يسطو على حق إنسان آخر فى الحياة، والثانى متقدم مادياً، ينبع التقدم المادى من بين أظافره، ولكنه يبيح لنفسه - أو

¹ سورة هود : 61

² سورة النحل : 78

³ سورة الجاثية : 13

لشعبه - أن يقتل ويسفك الدماء في سبيل السيطرة والعلو، ويبيح لنفسه - أو لشعبه - أن يتحكم في
أقدار الناس والشعوب 00

كلاهما مخطئ ولا شك، ولكن أيهما خطؤه أكبر واطغر، وأيهما جرمه أكبر وأخطر 0

ونعود الآن بعد هذه الجولة إلى قضية الشريعة الربانية المتزلة قبل أربعة عشر قرناً، وموقفها من
(الإنسان)) وموقف الإنسان منها، على ضوء قضية الثبات والتغير))⁽¹⁾ 0

إذا تبين لنا من البحث الموضوعي أن في الحياة البشرية أصولاً دائمة لا تتغير، هي الركوزة في
أصل الفطرة، وصوراً متغيرة من الممارسة لبعض النوازع الفطرية ((وليس كلها)) مع ثبات أصولها
ومنابعها في الفطرة، فما الطريقة المثلى لتنظيم الحياة البشرية على أسس سليمة تتجاوب مع تلك الفطرة
في ثوابتها ومتغيراتها: تثبيت الشريعة في مجالات الحياة كافة بصرف النظر عما يجد في حياة البشر؟ أم
تركها تتغير في جميع مجالاتها كلما عن للبشر أن يغيروا؟ أم تثبت ما من شأنه الثبات، وإتاحة المجال
للمتغيرات أن تتغير مع تثبيت الأصول التي تحكمها في تغييرها؟

هنا - في هذا المجال بالذات - يتجلى لنا عنصر من عناصر الإعجاز في التشريع الرباني 0

في الحياة البشرية ثوابت ليس من شأنها أن تتغير لأن تغييرها يفسد حياة الناس.

وهذه نصت عليها الشريعة نصاً صريحاً ملزماً . وهناك متغيرات ليس من شأنها أن تثبت على
صورة معينة لأن تثبيتها يجمد الحياة ويعوقها عن النمو السوي، وهذه - في الشريعة الربانية - مفتوح
فيها باب الاجتهاد، مع تثبيت الأصول التي تحكمها، بحيث لا تحل حراماً، ولا تحرم حلالاً، ولا تصادم
مقاصد الشريعة 0

وبهذا تواكب الشريعة حركة البشرية في جميع خطواتها، وتضبط منطلقها في ذات الوقت، فلا
تأسن من الجمود، ولا تنح إلى الانحراف 0

¹ اقرأ إن شئت حول هذه القضية في كتاب ((التطور والثبات في حياة البشرية))

هناك الضرورات الخمس: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال. هذه ثوابت لا تخضع للتغير، لا من حيث الجوهر ولا من حيث الصورة، لأن أى تغيير فيها يفسد الحياة 0

ومن حفظ الدين تحكيم الشريعة، وتحريم الردة 0

ومن حفظ العقل تحريم المسكر والمخدر 0

ومن حفظ النفس تحريم القتل والعدوان 0

ومن حفظ العرض تحريم الفاحشة وما يقرب منها أو يؤدي إليها.

ومن حفظ المال تحريم السرقة والغش وأكل أموال الناس بالباطل 0

وتتعلق بهذه جميعا حدود لا تتغير فيها، ولا استبدال لغيرها بما 0

ثم هناك ثوابت أخرى ناشئة من ثبات أركانها وعدم قابليتها للتغيير، كعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين، وعلاقات المجتمع الإسلامى بعبئه ببعض، وعلاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم 0

وتلك كلها تحكمها قواعد ثابتة ونصوص تفصيلية غير قابلة للتغيير 0

وهناك بعد ذلك أمور كثيرة تتغير صورتها على الدوام، نتيجة تفاعل العقل البشرى مع الكون المادى، واكتساب الإنسان خبرات جديدة من خلال هذا التفاعل.. فتتغير الصورة السياسية، والصورة الاقتصادية، والصورة الاجتماعية، ولكنها فى تغييرها الدائم لا ينبغى لها أن تخرج على القواعد العامة التى تحكمها، والمنصوص عليها فى كتاب الله (والسنة مكملة وشارحة، وهى من الوحي الربانى) 0

وهكذا تنمو المجتمعات نمو سويا، وتتغير بعض الصور فى حياتها من جيل إلى جيل، ومن طور إلى طور، ولكن أصولها لا تتغير.. فتظل الشريعة عاملة فى حياتها، لا تحتاج إلى تبديل ولا تغيير ولا تعديل، بينما يظل باب الاجتهاد مفتوحاً لتغطية ما يجد من أمور فى حياة الناس بغطاء الشريعة الدائم الذى لا يتغير، وتظل الأمة محافظة على إسلامها. بمحافظتها على عقيدتها وشريعتها، ومحافظة فى الوقت ذاته على رضوان الله، الذى أنزل غضبه على من لم يحكم بما أنزل الله :

((أفحکم الجاهلیة ییغون ومن أحسن من الله حکماً لقوم یوقنون))⁽¹⁾0

((أفلا وربک لا یؤمنون حتی یحکموک فیما شجر بینهم ثم لا یجدوا فی أنفسهم حرجاً مما قضیت

ویسلموا تسلیماً))⁽²⁾0

ثم ننتقل إلى مجالين آخرين من مجالات الإعجاز في الشريعة الربانية، أحدهما يتعلق بقضية الفرد والمجتمع، والآخر يتعلق بقضية الجريمة والعقاب، وهما قضيتان تتداخلان في بعض شؤنهما، وإن كان كل منهما له مجاله الخاص 0

وقد تكلمنا من قبل عن قضية الفرد والمجتمع في أثناء الحديث عن الإعجاز التربوي في القرآن. ولكننا هنا نتحدث عن الجانب التشريعي، وهما متكاملان في منهج الله، إذ الشريعة ذاتها جزء من منهج التربية الإسلامية 0

الفرد في ظل الشريعة يستمتع بما يكفل له الحياة السوية النظيفة المتوازنة 0

كرامته محفوظة بالتكريم الرباني :

((ولقد کرمننا بنی آدم وحملناهم فی البر والبحر ورزقناهم من الطیبات وفضلناهم علی کثیر ممن

خلقنا تفضیلاً))⁽³⁾0

فلا یتجسس علیه، ولا یؤخذ بالظنة، ولا یؤخذ بجریره غیره، ولا یقتحم علیه مسکنه، ولا تنتهک حرماته، وهو برئ حتی تثبت إدانته، ولا یضرب ولا یعذب ولا تقید حریته بغير موجب، ولا بد عند اتهامه من قرائن تؤید الاتهام، ولكن لا تؤخذ منه الاعترافات قسراً بالتعذيب ولا بالإغراء، ويحاكم — حين يحاكم — بمقتضى الشريعة الربانية لا على هوى من يحاكمه 0

¹ سورة المائدة : 50

² سورة النساء : 65

³ سورة الإسراء : 70

وله نشاطه المشروع: يعمل، ويتكسب كسبا حلالا، ويمتلك، ويبيع ويشترى، ويرث، ويورث، ويهب ويتصدق من ما له كما يشاء، لا قيد عليه في شيء من ذلك إلا ما تقتضيه الشريعة⁰

أما ما يسمى اليوم ((الحقوق السياسية))، فهي في الإسلام واجبات⁰⁰

فالاهتمام بالشئون العامة واجب: ((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم))⁽¹⁾

والنصح للحاكم والمحكوم واجب: ((الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم))⁽²⁾

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب: ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))⁽³⁾. ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان))⁽⁴⁾

وله حقه في بيت المال إذا احتاج: ((إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم))⁽⁵⁾

وهكذا تكون الحياة الكريمة مكفولة له من كل جوانبها⁰⁰

ولكنه ليس متروكاً على هواه يفعل ما يشاء تحت مظلة ((الحرية الشخصية)) كما تفعل النظم الليبرالية، التي تدخل في تلك الحرية الشخصية حرية الإلحاد، وحرية التحلل الخلقي، وحرية اكتساب المال الحرام بالربا، وبنشر اللهو والفساد والفجور الذي يدر المال على ناشريه!!

إن تلك ((الحرية الشخصية)) على هذا النحو كانت جزءا من مخطط إفساد البشرية على يد ((شعب الله المختار))، دسوه على الثورة الفرنسية حتى صار جزءا من ((الديمقراطية)) تحت شعار Laissez Passer, Laissez Faire دعه يعمل (ما يشاء) دعه يمر ((من حيث يشاء))، ولم

¹ رواه الطبراني والحاكم

² متفق عليه

³ سورة آل عمران : 104

⁴ رواه الشيخان⁰

⁵ سورة التوبة : 60

يكن القصد منه الخير للبشرية وإن بدا في أعين الناس يومئذ أنه ((تحرير)) من القيود الضغوط التي كانت تجثم على صدور الشعوب وتكتم أنفاسها، ولكن المخططين الشريرين كانوا يعرفون أبعاده، فلم يقفوا به عند إزالة الظلم، بل تجاوزوها إلى الإفساد المقصود :

((ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين))⁽¹⁾0

وفي الوقت الذي تكفل الشريعة للفرد كرامته، وتعطيه حقوقه المعقولة، فإنها تحفظ للجماعة كيائها كذلك. فللجماعة حق التقويم للفرد الذي يتجاوز حدوده المشروعة، فيتعدى على حرمان الله، أو يعيث في الأرض فسادا، أو يؤذى غيره، أو يأتي بمنكر لا تقره الأعراف المستمدة من الشريعة، وليس له أن يحتج على الناس بأنه حر يفعل ما يشاء 00

وليس هنا مجال تفصيل ما يحق للحاكم وما يحق لأفراد الأمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد المعتدى، ومرتكب المنكر، فتلك مباحث متخصصة تطلب في كتب الفقه، إنما نتحدث هنا عن الخطوط العريضة التي تثبت حق الجماعة على الفرد. بما يمنعه من الطغيان، وإيقاع الضرر والأذى على الآخرين، ويمنعه من الخروج على العرف، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وتزيين المنكر بالقول أو العمل، وتزيين الخروج على أوامر الله، والدعوة إلى الفساد من أى نوع فكرياً كان أو اجتماعياً أو أخلاقياً أو اقتصادياً أو سياسياً.. فمن حق الجماعة أن تحمي نفسها من ذلك الشر كله، وحقها في ذلك مقدس كحق الفرد 00

ولكن مزية المنهج الرباني أنه لا يصنعكما تصنع النظم الشمولية، التي تسحق الفرد تحت ثقلها، فتحرم عليه أن يفتح فمه بكلمة نقد للحاكم. أو حاشيته، وتراقبه حتى في خلوته، وتعد عليه أنفاسه، وتتجسس نعليه، وتتعامل معه دائما على أنه مجرم يتوقع منه عمل الشر في كل لحظة، وعليه هو أن يثبت براءته في كل لحظة!

((إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم))⁽²⁾0

¹ سورة المائدة : 64

² رواه أحمد وأبو داود والحاكم 0

ولقد كان عمر رضى الله عنه، وهو من هو في هيبته التي أضفاها الله عليه، يقبل النقد، ويقول لمن أراد أن يمنع أحد الرعية من قولة ينتقد فيها الخليفة: دعه! فلا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نسمعها منهم! ويقبل من سلمان الفارسي رضى الله عنه أن يقول له: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين! ويقبل من امرأة أن تناقشه في أمر المغالاة في المهور ثم يقول: أخطأ عمر وأصابت امرأة 0

إنما هو التوازن الذي يمنع طغيان الفرد على الجماعة على الفرد، ويؤدى إلى استقرار تحفه البركة، وتجري فيه الأمور بالقسط :

((لقد أرسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط))⁽¹⁾ 0

* * *

أما قضية الجريمة والعقاب فللشريعة فيها توازن مماثل 00

إنها لا تقسو على الفرد لحساب الجماعة (وإن ظن بعض الجهال ذلك بالنسبة للعقوبات الإسلامية)، ولا تدلل المجرم كذلك حتى تجعله مجنيا عليه من المجتمع كما تفعل النظم التي تأثرت بمباحث علم النفس التحليلي، الذي يحسن أن نسميه ((علم تبرير الجريمة)) لأن هذا ما يؤدى إليه بالفعل!

إنما تنظر الشريعة إلى الجريمة والعقاب بعين الفرد وعين الجماعة معاً في ذات الوقت 0

إن الإسلام لا يبدأ بفرض العقوبات الرادعة كما يظن الذين يقرعون النصوص القرآنية بغير تدبر، فيجدون فيها مثلاً : ((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله))⁽²⁾ 0 ويجدون فيها : ((الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين))⁽³⁾ 0 ويجدون فيها: ((إنما جزاء الذين

¹ سورة الحديد : 25

² سورة المائدة : 38

³ سورة النور : 2

يجاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم))⁽¹⁾ 0

إنما يعمل الإسلام أولاً لمنع الأسباب التي تؤدي إلى الجريمة، بأن يكفل للفرد كل الضمانات المعقولة التي من شأنها أن تجعل الفرد السوي لا يفكر في الجريمة أصلاً، ولا يجد مسوغاً لها. فإذا ارتكب الجريمة بعد ذلك، فهو غير معذور. ثم إن العقوبة الرادعة التي تقرها الشريعة هي ذاتها وسيلة لأن تجعل الجاني يفكر مرات قبل أن يقدم على الجريمة، فإذا أقدم بعد ذلك، وليس له عذر ولا مسوغ معقول، وفيه استهتار وعدم مبالاة، فالإشفاق عليه، وتخفيف العقوبة عنه، يعدان نشر للجريمة في الواقع وتشجيعاً عليها، ولا يعتبر علاجاً ناجحاً لحماية المجتمع من الجريمة. والواقع الذي يعيشه الغرب، الذي يأخذ بنظريات علم النفس التحليلي، والدراسات الاجتماعية التي تنظر بعين الفرد ضد الجماعة، يشهد بصدق ما نقول. فالجرائم هناك من الكثرة والشبوع بحيث تعد بالثانية، لا باليوم ولا بالساعة ولا بالدقيقة، فيقال: تحدث في كل ثانية كذا جريمة قتل، وكذا جريمة سرقة، وكذا جريمة اغتصاب، وكذا .. وكذا، من صنوف الجرائم!

إن الإسلام ينظر في دوافع الجريمة عند الفرد فيعمل على تلافيتها قبل وقوعها، أو جعل مرتكبها غير معذور في ارتكابها، فإن وجد أنه معذور فعلاً فالشريعة تقول: ((ادرعوا الحدود بالشبهات))⁽²⁾!

دافع السرقة هو الجوع 00 والإسلام يسعى - بوسائله المختلفة - ألا يكون في المجتمع جائع يضطره الجوع إلى السرقة، فإن وجد الجوع فإنه يدرأ الحد، كما فعل عمر رضی الله عنه، في عام الرمادة، حين جاع الناس، فأوقف تطبيق حد السرقة لوجود الشبهة، ولم يكن ذلك منه إبطاً للشريعة كما يرجف المرجفون، إنما كان هو التطبيق الواعي الصحيح لشريعة الله 0

ودافع الزنا فورة الغريزة .. والإسلام يسعى - بوسائله المختلفة - لإتاحة المنطلق الطبيعي النظيف لفورة الغريزة بتيسير الزواج والحث عليه والتبكير نفيه، وبتوجيه طاقات الشباب إلى ميادين للعمل والنشاط تستوعب جزءاً من الطاقة وتخفف الحمل على الأعصاب، ثم بتحريم التبرج في المجتمع، الذي هو المحرض الأكبر على الفاحشة.. وكذلك بتربية الناس على مخافة الله، والتوجه إليه بالعبادة،

¹ سورة المائدة : 33

² رواه أبو يعلى والبيهقي وابن ماجه، وعبد الرازق والطبراني وابن أبي شيبة 0

وتربيتهم كذلك على الصبر على المكاره حتى يأتى الفرج من عند الله .. وعندئذ لا عذر لمن يعتدى على
أعراض الناس 0

وكذلك الجرائم الأخرى، لكل منها دوافع، والإسلام يسعى أولاً لسد الذرائع، حتى لا يكون
لمرتكب الجريمة عذر في ارتكابها، فإذا ارتكبها وهو غير معذور أقيم عليه الحد، وإن كانت له شبهة
فالشبهة تدرأ الحد 00

نظام دقيق .. يأخذ الأمر من جميع زواياه في آن واحد؛ فلا ينكل بالجاني لمجرد التنكيل، ولا يبدل
كذلك فيشجعه على الاستهتار بأرواح الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وأمنهم ومصالحهم 0
وفي المجتمع الإسلامى الذى يطبق الشريعة تقل الجرائم بصورة ملحوظة، ويسود الأمن والاستقرار
والطمأنينة، وتحف البركة حياة الناس تحقيقاً لوعده الله:

((ولو أن أهل القرى آمنوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض))⁽¹⁾ 0

ولا يفوتنا أن نذكر فى باب الإعجاز التشريعى ذلك الشمول الذى تتميز به الشريعة الربانية، مع
خاصية التوازن التى أشرنا إليها من قبل 0

من مجال من مجالات الحياة إلا للشريعة مدخل فيه .. فهو - بالضرورة - واقع فى واحد من هذه
الأبواب الخمسة: حرام أو حلال أو مباح أو مندوب أو مكروه .. سواء أكان مجالاً اقتصادياً أم سياسياً
أم اجتماعياً أم أخلاقياً أم فكرياً، أم ما يكون من ألوان النشاط البشرى فى الأرض 00

وذلك من الإعجاز !

((قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين(162) لا شريك له))⁽²⁾ 0

إن النظم البشرية - بحكم قصور البشر عن الإحاطة - تهتم ببعض الجوانب على حساب جوانب
أخرى، وترتكز على مجالات وتهمل مجالات 00

¹ سورة الأعراف : 96

² سورة الأنعام : 162 ، 163

في الديمقراطيات الليبرالية، هناك تركيز كبير على ((الحقوق السياسية)) 00 يقابله إهمال ملحوظ في الجوانب الأخلاقية يصل إلى حد التسبب الذي يهدد تلك المجتمعات في النهاية بالانهيار 0

في النظم الرأسمالية تركيز شديد على حرية رأس المال في العمل والحركة، ورفع الحواجز من طريقه *Laissez Passer* ! دون النظر إلى العواقب المحلية والعالمية التي تنجم عن هذه الحرية، التي عبر عنها أحد كتّابهم وهو يتحدث عن عواقب الربا، والمعاملات الربوية، بأن نتيجتها النهائية هي ((تزايد الثروة في يد فئة يتناقص عددها باستمرار، وتزايد الفقر في أعداد من الناس يتزايد عددهم باستمرار!))⁽¹⁾، وذلك فضلا عن الحروب والصراعات العالمية التي تطحن الناس طحنا وتفسد عليهم أمنهم وطمأنينتهم.. والعولمة الحاضرة نموذج!

في النظم الدكتاتورية تركيز شديد على سيادة ((السيد)) الذي يحكم، وإحاطته بكل وسائل السيطرة، وكبت حريات الناس في المقابل، لأنها تحد من سلطان ((السيد))، ولا حقوق للناس إلا ما يتكرم به السيد على الناس تكرما، وعليهم أن يرضوا صاغرين. وفي الوقت ذاته تباح الملهيات، ليغرق الناس فيها وينسوا همومهم، كما كانت الشيوعية تفعل بشعوبها، وتفخر بأن أعلى الرواتب فيها هي رواتب الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات!

النظرة الشاملة التي تضع كل شيء في مكانه ليست من شأن البشر! فالبشر تحركهم أهواؤهم أكثر مما تحركهم عقولهم 00 ((إلا عباد الله المخلصين))⁽²⁾ لا لأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر، ولكن لأنهم يلتزمون بشريعة الله، فتمنع عنهم الجنوح في جانب والإهمال في جانب 00 وتوازن حياتهم فينعمون بالأمن والطمأنينة والاستقرار 0

تلك بعض جوانب الإعجاز في الشريعة الربانية. وإن تعجب بعد ذلك، فاعجب للذين ينادون بتنحية الشريعة عن الحكم، وتحكيم القوانين الوضعية بدلا منها، بحجة أن البشر أعلم بمصالحهم من ربهم الذي خلقهم، والله يقول :

¹ انظر تقرير شاخت عن الربا 0

² سورة الصافات : 160 0

((قل أنتم أعلم أم الله))¹0

((وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون))²0

من الإعجاز العلمي

ليس القرآن كتاب علوم! فلا هو كتاب في الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو علم الحياة!

ولكنه مع ذلك يحوى إشارات في كل تلك العلوم!

وموضع هذه الإشارات في كتاب الله هو تعريف الناس بقدرة ربهم التي لا تحد، وبآيات قدرته في هذا الكون، ليعرفوا أنه لا إله غيره، ولا مدبر غيره، ولا رازق غيره، ولا مهيمن غيره، وأنه هو الفعال لما يريد، فيعبدوه وحده بلا شريك، ويتبعوا ما أنزل إليهم 00

وبعض هذه الإشارات كان معلوماً مشاهداً بالنسبة للعرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، فكان ذكرها لهم، وتذكيرهم بها، مقصوداً به إزالة الغشاوة التي تغشى على بصائرهم فتجعلهم لا يدركون الدلالة الواضحة التي يجب أن تستمد منها، وهى أنه ما دام الله هو الذى يقدر، وهو على كل شىء قدير، ولا أحد يقدر قدرته، ولا يدبر تدبيره، ولا يهيمن هيمنته، فالعبادة ينبغى أن توجه إليه وحده، دون تلك الآلهة المزعومة التي لا تخلق، ولا تقدر، ولا تدبر، ولا تهيمن 00

ولكن بعض هذه الإشارات كان جديداً على أولئك المخاطبين بالقرآن أول مرة، لا يعرفون أسرارها، أو لا يعرفون تفصيلاتها.. وقال لهم الله في كتابه المنزل إنهم سيعرفونها ذات يوم :

((سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق))³0

((وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها))⁴00

¹ سورة البقرة : 140 0

² سورة البقرة : 216 0

³ سورة فصلت : 53

⁴ سورة النمل : 93

((ولتعلمن نبأه بعد حين))⁽¹⁾ 0

فأما الذين آمنوا فقد أخذوا هذه الإشارات بالتسليم، وإن كانوا لا يعرفون كل شيء عنها، ما دامت من عند ربهم الذى آمنوا به وصدقوه :

((فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم))⁽²⁾ 0

((يقولون آمنا به كل من عند ربنا))⁽³⁾ 0

ولكن أجيالاً وراء أجيال كانت تتعرف رويداً رويداً على بعض أسرار هذه الإشارات، فتزيدها المعرفة إيماناً، وإن كانوا قد كانوا مؤمنين ومصديقين من قبل 00

وفي عصرنا الحديث هذا الذى اتسعت فيه دائرة العلوم، وانكشفت فيه كثير من أسرار الكون، تبينت للناس حقائق كثيرة تتعلق بالإشارات القرآنية، لم تكن معلومة من قبل، فازداد الناس تعلقاً بتلك الإشارات، وقامت بشأنها أبحاث متخصصة يقوم بها علماء مسلمون فى شتى فروع المعرفة، وقامت دعوة تهدف إلى الإكثار من هذه الأبحاث، من أجل إقناع غير المسلمين بالإسلام، عن طريق إثبات صدق القرآن، وأنه وحى منزل من عند الله، إذ لم تكن المعلومات الواردة فيه معروفة للبشرية كلها من قبل، فيستحيل أن يكون محمد ﷺ هو مؤلف القرآن من عند نفسه كما يزعم المستشرقون وغيرهم من أعداء الإسلام. وهو اتجاه سليم فى ذاته، وقد أسلم على هداية بعض الناس بالفعل، كذلك الطبيب التايلندى الذى قرأ بحثاً من هذه الأبحاث عن أطوار الجنين، يدور حول الآية الكريمة :

((ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه

خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين))⁽⁴⁾ 0

فذهل الرجل .. وقال إن هذا الطور من أطوار الجنين، الذى يكون فيه كالمضغة لم يكن معروفاً للبشرية كلها قبل عشر سنوات فحسب، وإنما عرف بعد اختراع أجهزة تراقب تطور الجنين فى داخل

¹ سورة ص : 88

² سورة البقرة : 26

³ سورة آل عمران : 7

⁴ سورة المؤمنون : 14

الرحم وهو حي، فلا يمكن أن يكون محمد ﷺ قد قال هذا الكلام من عند نفسه، ولا بد أن يكون وحياً من عند الله. ثم قام فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله 0

نعم! ولكن هناك في هذا الاتجاه محاذير 00 فبعض الناس تدفعهم الحماسة فيتلفقون كل نظرية علمية يظنون فيها تأييداً أو إثباتاً لإشارة من الإشارات الواردة في القرآن، فيسارعون إلى تبنيها، ويفسرون الآيات القرآنية على هداها.. وليس كل ما يقال في الساحة العلمية حقائق! فبعضها لا يزيد على فروض علمية، وبعضها ما زال في طور النظرية لم يصل إلى حد أن يصبح حقيقة علمية موثوقاً بها. فإذا ربطنا تفسيرنا للآيات القرآنية ببعض هذه الفروض أو النظريات، ثم تبين بعد حين من الوقت أنها لم تكن صحيحة، فإننا نقع – من حيث لا ندرى – في الغلطة التي وقعت فيها الكنيسة في العصور الوسطى، إذ تبنت أفكاراً علمية كانت سائدة يومئذ، ففسرت بها ما جاء في التوراة والإنجيل؛ وكذبوا كل ما كان فيهما مما بقى على أصله المتزل، وما حرف، ومما أسئ تأويله، فجعلوها كلها أكاذيب!

والقرآن غني بدلائل الإعجاز فيه، سواء الإعجاز البياني الذي تحدى الله به البشر جميعاً، والبلغاء في أولهم، فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بألوان الإعجاز الأخرى التي تحدثنا عن بعضها في هذا الكتاب. ولا يحتاج أن نتلمس له أسانيد من النظريات العلمية المتداولة اليوم، التي قد يظهر بطلانها غداً. ولكن لا بأس أن نأخذ الحقائق العلمية التي ثبتت صحتها، والتي نجدها متوافقة مع ما جاء في القرآن، أو مفسرة له فنعتمدها، ونتخذها دليلاً يضاف إلى الأدلة القائمة من قبل على أن هذا القرآن وحى رباني، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. على ألا نتعسف في ربط تفسير الآيات بكل شاردة وواردة مما يسمى علماً.. كما حاول بعضهم أن يفسر قوله تعالى: ((وقد خلقكم أطواراً))⁽¹⁾. بما يتفق مع نظرية دارون في التطور. بينما أصحاب النظرية ذاهم يتشككون اليوم في صدقها، وينحون في تفسير الحياة على الأرض منحى غير منحى دارون!!

والآن بعد هذه المقدمة التي نراها ضرورية، نأخذ في عرض بعض دلائل الإعجاز العلمى في

كتاب الله!

يقول تعالى في وصف الجبال إنها أوتاد 00

((ألم نجعل الأرض مهاداً (6) والجبال أوتاداً))⁽¹⁾ 0

وهذه الحقيقة العلمية لم تعرف إلا منذ أمد قصير، بعد ما أمكن تصوير باطن الأرض بالوسائل الحديثة التي لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، بل قبل النصف الأخير من هذا القرن.. إذ وجد أن الجبل ليس هو الجزء الظاهر منه فوق سطح الأرض فقط، بل إنه مغروس كالوتد في باطن الأرض، وأن الجزء المغروس منه مدبب كالوتد، ليثبت الجبل مكانه. وأنه لولا جذر الوتد الغروس في باطن الأرض – في ((اللافا)) السائلة – ما ثبت الجبل مكانه! وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للعرب – ولا لغيرهم – وقت نزول القرآن، حتى يقال إن محمداً صلى الله عليه وسلم اقتبسها من علوم عصره .. إنما هي إحدى الإشارات القرآنية الكونية التي وعد الله البشر أنهم سيعلمونها في يوم من الأيام، ويعلمون أنها حق، ويتبينون أنها وحى من عند الله 0

وفيما يختص بالجبال كذلك، هناك حقيقة أخرى لم تعرف إلا منذ عهد قريب، وهي الواردة في

قوله تعالى : ((وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم))⁽²⁾ 0

فمهمة الجبال في الأرض، التي خلق الله الجبال من أجلها هي ترسية الأرض، ومنعها أن تميد بالناس! فهي يجذور أوتادها المغروسة في اللافا السائلة في باطن الأرض هي التي تحفظ توازن الأرض، وتجعلها مستقرة يستطيع البشر أن يعيشوا فوقها، وينشطوا نشاطهم، وبينوا ما بينونه من منازل ومنشآت .. ولولاها لظلت الأرض تميد بالناس، وترتج بهم ذات اليمين وذات اليسار، بما تحدث منه نماذج خفيفة في الزلازل بين الحين والحين 00

وبصدد تلك الرواسي أيضاً جاء في سورة الرعد :

¹ سورة النبا : 6٠7

² سورة النحل : 15

((وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل والنهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون))⁽¹⁾ 0

وهذه الآية وحدها تحمل حشداً من ((المعلومات)) العلمية، متتابعة تتابعاً ((علمياً)) لم يكن يدركه الناس قبل اتساع معلوماتهم عن هذا الكون وما يجرى فيه 0

فالرواسى - وهى الجبال - تحفظ توازن الأرض، وفى الوقت ذاته هى مصدات تصد الرياح المحملة ببخار الماء فيصعد إلى أعلى، فيبرد، فيتكاثف، فيتزل إلى الأرض فى صورة أمطار، ومن الأمطار الغزيرة تتولد الأنهار.. ومن هنا نرى أن ذكر الأنهار بعد الرواسى ليس مجرد تعديد لآيات قدرة الله فى الكون، وإنما هناك ترابط ((علمى)) بينهما، هو ترابط السبب والنتيجة 0

ومرة أخرى يأتى الترابط ((العلمى)) فيما بين الأنهار والثمرات. فالأنهار هى التى تسقى الزروع، فتنتج فيها الثمار. وثمة حقيقة علمية أخرى هى أن الثمرات أزواج، وستحدث عن هذه الحقيقة فى فقرة تالية. ولكن الذى يلفت النظر ((العلمى)) هو ذكر غشيان الليل النهار بعد ذكر الثمرات. وهذه حقيقة علمية لم تكن معروفة إلا أخيراً.. أن الثمرة تنمو فى الليل، وأن غشيان الليل النهار أمر ضرورى لإنضاج الثمرة! وأنه إذا لم يأخذ النبات حظه من الظلام فى الليل فإنه يضعف ويضوى!

اكتشف هذا الأمر فى الخمسينيات من هذا القرن فى حادثة طريفة! فقد أقامت إحدى شركات الإعلان لوحة قوية الإضاءة فى مزرعة أرز مملوكة لأحد اليابانيين. فلاحظ الرجل أن محصول الأرز قد تضاعف، فرفع دعوى على الشركة المعلنة يطالبها بتعويض عما أصابه من الخسارة بسبب هذه الإضاءة القوية فى الليل! وأخذت المحكمة الأمر مأخذ الجد، فكلفت فريقاً من العلماء أن يدرس القضية دراسة علمية لتقرير ما إذا كانت الإضاءة القوية قد أثرت بالفعل فى تناقص محصول الأرز! وجاءت الأبحاث مثبتة هذه العجيبة: أن النبات يستريح فى الليل أو إن شئت قلت ينام فى الليل ليستأنف نشاطه مع مطلع النور فى الصباح، وأن تلك الإضاءة القوية قد منعت النبات من غفوته الضرورية له، فضعف نتيجة الإرهاق!

ثم تبين كذلك أن الثمرة تأخذ أكبر حظ من نموها في تلك الفترة بالذات! الفترة التي يكون النبات فيها في غفوته! وأن كل نوع من الثمار يحتاج إلى فترة معينة من الإظلام لكي ينمو نموه الطبيعي، وأن توزيع النبات على وجه الأرض يتناسب تناسباً دقيقاً مع أطوال فترة الليل في كل مكان، وأن النبات الذي تحتاج ثمرته - مثلاً - إلى فترة إظلام تمتد اثنتي عشرة ساعة، إذا استتبت في بقعة ليلاً عشر ساعات فقط فإنه يخرج ضعيفاً عن أصله في أرضه الأصلية. أما إذا كان النقص كبيراً فإنه لا يثمر!

هذه الحقائق العجيبة كلها، التي كشفت بمناسبة تلك القضية العجيبة (التي حكمت فيها المحكمة لصالح صاحب المزرعة) تبين لنا أن هناك ترابطاً ((علمياً)) متسلسلاً ما بين الجبال إلى الأنهار إلى الإثمار إلى غشيان الليل النهار .. وذلك من الإعجاز!

* * *

أما قضية ((الأزواج)) فهي قضية علمية لم تكن مكشوفة بكاملها للأجيال الأولى التي تلقت هذا القرآن، ولكن الأبحاث العلمية بينتها ووضحتها وكشفت دقائقها⁰

يقول تعالى :

((سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون))⁽¹⁾

((ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون))⁽²⁾

وقد كان معروفاً عند الناس وقت نزول القرآن أن في النبات والحيوان والإنسان زوجين : ذكراً وأثني، ولكن آية يس أشارت إلى مالا يعلمون. ومعنى ذلك أن هناك أزواجاً في غير النبات والحيوان والإنسان، تلك التي يعرفها الناس. كما أن آية الذاريات تشير إلى الأزواج موجودة في كل شيء على الإطلاق، وليست مقصورة على ما كان معلوماً عند الناس يومئذ من وجودها في النبات والحيوان والإنسان⁰

¹ سورة يس : 36

² سورة الذاريات : 49

وتمضى قرون .. ويتعرف العلماء على الذرة .. ويخضعونها للبحث في المعمل فيكتشفون أن في دخلها ((زوجين)) من الطاقة، إحداهما سالبة والأخرى موجبة، وأن فصلهما بعضهما عن بعض يحدث آثاراً مريعة مدمرة، هي التي تحدثها القنابل الذرية والقنابل النووية!

ويكتشفون عجيبة أخرى: إن التفاعلات الكيميائية هي عملية ((تزاوج)) بين المواد المختلفة. ففي كل ذرة لأي عنصر من العناصر نواة موجبة تدور حولها مجموعة من الكهارب السالبة (تسمى الالكترونات))، عددها محدد في كل عنصر، وتكون على هيئة دوائر متكاملة حول النواة، ولكن الحلقة الأخيرة من هذه الدوائر تكون ناقصة، هكذا هي في خلقها الرباني، وأن العنصر الذي تكمل حلقتة الناقصة حلقة عنصر آخر يمكن أن يتم بينه وبين العنصر الآخر تفاعل كيميائي (أي تزاوج) وأن العنصر الذي اكتملت الحلقة الأخيرة لحسابه هو قاعدة التفاعل!

وللتمثيل نفترض أن عنصراً من العناصر تتكون كل حلقة من كهاربه السالبة (الإلكترونات) من ثمانية إلكترونات، وأن الحلقة الأخيرة مكونة من ستة إلكترونات فقط. فأبما عنصر تنتهي حلقتة الأخيرة بإلكترونين اثنين يكون قابلاً للتفاعل مع ذلك العنصر، وتتم في التفاعل عملية تزاوج يكمل فيها أحد العنصرين الآخر!

وهذه المعلومات كلها، التي لم تكن معلومة لأحد من البشر وقت نزول القرآن، هي التي تفسر قوله تعالى: ((ومن كل شيء خلقنا زوجين)). كما أنها تحقق ما أخبر الله به عباده أنه سيكشف لهم عن أسرار في المستقبل، لم يكونوا يعرفونها وقت نزول القرآن، كما جاء في قوله تعالى: ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق))⁽¹⁾. ومن يدري: ماذا يكشف الله غدا للناس من الآيات، في الأنفس وفي الآفاق!؟

* * *

((وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون(68) ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون))⁽¹⁾0

وأمر النحل معلوم من قديم 00

ولكن الجديد الذى أثبتته الأبحاث أن الترتيب فى الآيه ما بين الجبال والشجر ما يعرشون هو ترتيب ((نوعى))! وليس مجرد نذكر للأماكن التى يرتادها النحل ويحصل منها على غذائه بإذن ربه! فعسل الجبال هو أغناها وأعلاها، وأكثرها فاعلية فى شفاء كثر من الأمراض، ثم يأتى بعده فى النوعية المستمدة من الشجر العالية، وأخيراً تأتى نوعية العسل المستمد من النباتات القصيرة القريبة من الأرض 0 وسبحان الخلاق العظيم 00 وسبحان من علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم!

* * *

يقول تعالى: ((مرج البحرين يلتقيان(19) بينهما برزخ لا يبغيان(20) فبأى آلاء ربكما تكذبان))⁽²⁾0

وهذه من العجائب التى لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن. إنما عرفت حديثاً حين سعى الإنسان إلى التعرف على ظواهر الطبيعة بوسائل علمية دقيقة 0

إن الماء العذب الذى تصبه الأنهار فى البحار والمحيطات يظل محافظاً على عذوبته غير ممتزج بملوحة البحر مسافة طويلة داخل البحر، كأنهما معزولان أحدهما عن الآخر بذلك ((البرزخ)) الذى يمنع عدوان أحدهما على الآخر!

بل الأعجيب من ذلك، أن مياه البحر الأحمر لا تمتزج بمياه المحيط الهندى عند باب المندب - ذلك البرزخ الذى يفصل بين البحر والمحيط - مع أن كليهما ماء ملح. ولكن نسبة الملوحة مختلفة بين هذا الماء وذاك، فيظل أحدهما طافياً فوق الآخر لا يمتزج به!

¹ سورة النحل : 68-69

² سورة الرحمن : 19-21

بل العجب العجاب هو اكتشاف بحيرات عذبة في باطن المحيطات، تظل عذبة وهى محاطة بالملوحة من كل جانب، فسبحان الخلاق العظيم 00 وسبحان الفتاح العليم !

* * *

يقول تعالى: ((ألم تر أن الله يرحى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ويتزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار))⁽¹⁾ 0

والسحب الركامية لا تظهر على حقيقتها للناظر إليها من أسفل، أى من فوق سطح الأرض، وإنما يبدو منها قاعدتها السفلية فقط، وهذه تكون ممتدة في السماء بدرجة واحدة. أما حين تصعد إلى أعلى، في الطائرة مثلاً، فإنك ترى تراكم هذه السحب بعضها فوق بعض، فتراها على صورتها الحقيقية، وترى أنها طبقات، وليست طبقة واحدة كما تبدو للناظر من فوق سطح الأرض، وأنها ليست على ارتفاع واحد، وإنما يختلف ارتفاع طبقاتها بمقدار ما تراكم في كل طبقة من بخار الماء، وأن بعضها يبدو كجبال معلقة في الفضاء، جبال ذات قمم مختلفة الارتفاع!

هذا كله لم يكن معروفاً قبل اختراع الطائرات، والسعود بها فوق مستوى السحب. وكان من المستحيل على بشر أن يتصور التراكم الذى تشير إليه الآية في قوله تعالى : ((ثم يجعله ركاماً))، فكان هذا الوصف الدقيق لونا من الإعجاز العلمى، وكان اكتشاف البشر له بعد قرون من تنزل القرآن تحقيقاً للوعد الربانى: ((سنريهم آياتنا 00)) فهو إعجاز مزدوج؛ إذ هو وصف لأمر لم يكن البشر يعرفون صفته في ذلك الحين، وإخبار في الوقت ذاته بأنهم سيعرفونه في مستقبل أيامهم 0

* * *

يقول تعالى : ((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون))⁽²⁾ 0

¹ سورة النور : 43

² سورة الأنعام : 125

وضيق النفس مع الصعود في السماء تجربة لم يجريها البشر قط إلا بعد اختراع الطائرات! فقد عرفوا حينئذ أن الأوكسجين يقل في طبقات الجو العليا عن معدله على سطح الأرض، وأن الضغط الجوى يخف كلما اتجهنا صعدا، فتضيق الأنفاس، وتحس الصدور بالخرج⁰

ولكن أنى للبشر وقت نزول القرآن أن يعرفوا هذا الأمر وهم لم يكونوا قد صعدوا إلى السماء، ولا جربوا كيف تكون الصدور عند التصعيد!

إنه كذلك إعجاز مزدوج: إعلام بأمر كان الناس يجهلونه يومئذ، وإيحاء بأنهم سيعرفونه ذات يوم!

يقول تعالى : ((والسمااء بيناها بأيد وإنا لموسعون))¹

وقبل سنوات قليلة لم يكن الناس يعرفون شيئا عما يجرى في الآماد البعيدة من السماء. فقد كانت أدوات الرصد عندهم محدودة المدى، تدرك وجود الكواكب، وتدرك وجود المجرات في السماء، وتقدر أنها تبلغ الملايين عدا، ولكنها نلا تدرك أن هناك اتساعا دائما في الفضاء، وأن المسافات تتباعد بين بضع الأجرام السماوية وبعض! ولم يدركوا ذلك حتى اخترعوا مناظير من أنواع أخرى تخرق الأغوار البعيدة في الفضاء، ومركبات فضاء تسجل حركة الأفلاك على أبعاد هائلة من الأرض⁰⁰

وكلما اتسعت معارف الإنسان ومخترعاته وجد جديداً في كتاب الله لم يكن يفطن إليه، أو لم يكن يدرك أسرارهِ. وصدق رسول الله ﷺ : ((لا تنفد عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد))²

يلفت النظر ولا شك أن أيا من الكتب المترلة السابقة لم يحو شيئا من هذه الإشارات الكونية الواردة في القرآن . والله أعلم بما ينزل⁰

¹ سورة الذاريات : 47

² سبقت الإشارة إليه 0

فقد شاء الله أن يتميز الكتاب الذى يحمل كلمة السماء الأخيرة للبشرية كافة بخصائص لا توجد

فى غيره 0

كانت الرسائل السابقة محدودة بأقوام معينين، ومحدودة بزمن معين ينتهى بإرسال رسول جديد، بينما هذه الرسالة للبشر كافة، وللزمن كله من مبعث رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكانت الكتب المترلة السابقة تحوى احتياجات الأقسام الذين تنزل عليهم فى الزمن المحدد فى علم الله . أما القرآن، فقد أنزل الله فيه ما تحتاج إليه البشرية كلها، وفى الزمن القادم كله. فلا عجب أن يختلف عن الكتب السابقة فى مبناه وفى محتوياته، وإن كان مصدقا لما فيها، ولكن مهيمناً عليها :

((وأزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه 00))⁽¹⁾0

والإعجاز العلمى كان واحداً من جوانب التميز التى تفرد بها هذا الكتاب 00 وانكشف الحقائق العلمية التى يحتوىها الكتاب للبشر جيلاً بعد جيل هو جانب من جوانب استمرارية الرسالة التى نزل بها الكتاب! فهو ليس لجيل واحد تنتهى مهمته بعدها، أو تنقطع صلة الأجيال به، بل هو لكل الناس فى كل جيل، يهديهم إلى ربهم، ويوجههم إلى الخير وإلى الحق، ويربيهم على المنهج القويم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون!

المستشرقون والقرآن

أشرنا فى المقدمة إلى تلك المحاولة الساذجة التى قام بها أحد الشباب المتأمركين ليقلد ليقلد أسلوب القرآن ثم يقول: ها أنذا قد أتيت بمثله 00 فهو إذن صناعة بشرية وليس متزلاً من عند الله!

وفى ختام البحث نشير إلى المستشرقين 0

إذا كان ذلك الشاب قد قام بمحاولة ساذجة فجة ليشفى غليله من الإسلام والقرآن، فالمستشرقون يقومون بجهد منظم دعوب، ينفق بعضهم فيه عمره، وتنفق عليهم دولهم الملايين، للتشكيك فى المصدر الربانى للقرآن، ومهاجمته بكل وسيلة لعلهم يصلون إلى شىء يشفى الغليل!

((وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون))⁽¹⁾0

((000 وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)) (2) 0

قضية قديمة تكرر ، وموقف معلومة دوافعه !

* * *

إن هذا الكتاب الذى عرضنا بعض جوانب الإعجاز فيه، لا على سبيل الحصر ولكن على سبيل التمثيل.. الكتاب الذى يأخذ النفس البشرية من جميع جوانبها، وينفذ إليها من جميع أقطارها، ويتناول جميع مجالات حياتها، ويمنحها منهجا متكاملا، يشمل عقيدتها وسلوكها، وسياستها واجتماعها واقتصادها، ودنياها وآخرتها.. فى أسلوب معجز متفرد 00

هذا الكتاب موضع غيظ شديد فى قلوب الذين لا يؤمنون به :

((00 قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى

أولئك ينادون من مكان بعيد)) (3) 0

وأغیظ ما یغیظ أعداء الإسلام أن المسلمین یؤمنون إيماناً لا یتزعزع بأن کتابهم هو الكتاب الحق، الذى لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه، وأن الله حفظه بحفظه فلم یتبدل منه حرف منذ نزل من عند الله 0

یغیظهم ذلك فیسعون جاهدين إلى نفی الوحى، ونفى المصدر الربانى للقرآن، ونسبته إلى الرسول

ﷺ ، وهو إفك قديم قالتها الجاهلية العربية من قبل، وما تزال كل جاهلية تردده!

* * *

((وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله 00)) (4) 0

¹ سورة فصلت: 26

² سورة الأحقاف: 11

³ سورة فصلت: 44

⁴ سورة يونس: 37

ليس فقط بأسلوبه المعجز، ولكن كذلك بمحتوياته، وبكون هذه المحتويات – بكل شمولها وتكاملها – معروضة بهذا الأسلوب المعجز .. أى أنه إعجاز فوق إعجاز⁰

لو أن الإعجاز كان فى الأسلوب وحده، الذى عجز الناس خلال القرون عن أن يأتوا بمثله، لكان هذا كافياً لإثبات مصدره الربانى، ودليلاً قاطعاً على صدق رسول الله ﷺ فى دعواه أنه رسول مرسل من عند الله، وأنه لا ينطبق عن الهوى ((إن هو إلا وحي يوحى))⁽¹⁾

فكيف إذا كان الإعجاز موضوعياً إلى جانب الإعجاز البيانى؟

هل تأتى لبشر فى التاريخ كله أن يؤلف كتاباً يحوى من الحقائق ما جاء به القرآن الكريم؟

خذ حقيقة الألوهية وحدها، وما جرى فيها على أيدى البشر من تخططات مقارنة بصفاء الوحي وشفافيته، ووضوحه وتألقه، وعمقه ونصاعته⁰

وخذ إلى جانبها عشرات الحقائق الواردة فى كتاب الله : حقيقة خلق الإنسان. حقيقة الدنيا والآخرة. حقيقة البعث والنشور والحساب والجزاء .. حقيقة القيم التى ينبغى أن تحكم حياة الإنسان فى الأرض. حقيقة الكون المادى وما يجرى فيه حقيقة المهمة التى خلق الإنسان من أجلها. حقيقة الإيمان. حقيقة المعركة القائمة بين الإيمان والكفر. حقيقة السنن الربانية التى تحكم حياة البشر⁰⁰

أى كتاب من صنع البشر جمع هذا الحشد من الحقائق بالتناسق الذى عرضت به فى هذا الكتاب، وبقوة التأثير الذى يبعثه فى النفوس هذا الكتاب؟

وأى بشر تبلغ اهتماماته هذا الشمول الذى لا يغادر شيئاً من أساسيات الحياة إلا ويتعرض له، ويتعرض له فى عمق وتمكن مثل ما جاء فى هذا الكتاب؟

وأى بشر تبلغ اهتماماته هذا الشمول الذى لا يغادر شيئاً من أساسيات الحياة إلا ويتعرض له، ويتعرض له فى عمق وتمكن مثل ما جاء فى هذا الكتاب؟

ولكن المستشرقين لهم فى ذلك تخرصات!

يقولون : لقد جاء محمد ﷺ بما جاء به نقلا من كتب أهل الكتاب، أو سطوا عليها، أو تلقيا من أصحابها!

وما أحسب أن فرية يمكن أن تبلغ من الكذب المفضوح أشد من هذه الفرية!

كيف يتأتى للذى ينقل من كتاب يقول إن الله ثالث ثلاثة أن يقرر أن الله واحد؟ وكيف يتأتى للذى ينقلب من كتاب يقرر أن الله ولدا يشاركه في الألوهية، أن يقرر أن الله لا شريك له ولا ولد؟!

وكيف يتأتى للذى ينقل من كتب لم تترك نبيا من أنبياء الله إلا لطخت سمعته وشوهت صورته، واتهمته بما لا يجوز في حق الرجل العادى فضلا عن النبي المرسل، أن يسرد سير الأنبياء وقصصهم بالنصاعة والطهر والسمو الذى وردت به سير الأنبياء في القرآن؟!

وكيف يتأتى للذى ينقل من كتب لم تتعرض لآيات الله في الكون، ولا لأطوار الجنين البشرى من النطفة للعلقة للمضغة للعظام لاكتمال التكوين، أن يسرد في كل هذه الأمور حقائق لم يتعرف العلم عليها إلا منذ زمن قريب؟!

ألا تستحي هذه الناس؟!

((ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون))⁽¹⁾0

ولكن المعركة لن تكف :

((ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا))⁽²⁾0

فعلى المسلمين من جانبهم أن يعرفوا حقيقة دينهم، وحقيقة الكتاب المتزل إليهم، وأن يقدره حق قدره، وأن يتدبروه ليعرفوا عظمتة وإعجازه :

((أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً))⁽¹⁾0

¹ سورة الأنعام : 21

² سورة البقرة : 217

وأهم من ذلك كله أن يعملوا بما فيه، فإنما نزل ليكون منهج حياة لخير أمة أخرجت للناس⁰

ويوم يرجعون إلى كتابهم فيتدبرونه ليعملوا بمقتضاه، ستعود لهم خيريتهم، وسيعود لهم التمكين الذى كان لهم فى الأرض، وسيقومون بالشهادة على كل البشرية كما أمرهم الله :

((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))⁽²⁾

¹ سورة النساء : 82

² سورة البقرة : 143